

سلسلة العصبية القبلية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس

DKA
دار الكتاب العربي

الجزائر 2007

عاصمة الثقافة العربية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين
في بلاد المغرب والأندلس

DKA
دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 978-9947-833-01-8
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

- إلى شهداء الجزائر الأبرار الذين قدموا أرواحهم من أجل قيام دولة جزائرية عزيزة مستقلة وموحدة.

- إلى المجاهدين المخلصين لهذه البلاد الطاهرة؛ الذين حققوا المعجزة وحرروا البلاد والعباد.

- إلى شباب الجزائر المستقلة الذين يضحون بكل غالٍ ورخيصٍ في سبيل وحدة الجزائر وازدهارها الثقافي والاقتصادي.

- إلى كل امرأة جزائرية حافظت على قيم شعبها وثوابت أمتها.

- إلى كل هؤلاء جميعا أهدي كتابي المتواضع هذا؛ راجيا من الله أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى صرح بلادي الثقافي.

المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت – في إعداد هذه الدراسات – بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون – بعد تأمل عميق وتجربة واسعة – أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر – بدوره – للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ – دوما – عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري – هنا – معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم – أو على الأقل – التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها - مع كثرتها - تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد - بسهولة - من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها - في حقيقة الأمر - كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة ـ كل قبيلة ـ ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني ـ قبل الختام ـ فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب ـ وغيره من الكتب التي أتممتها ـ بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر ـ هنا ـ مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، وولديه: **مهند الجهماني**، و**فراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل ـ في كل مرة ـ بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4. جوان. 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ـ ضمن هذا المجال ـ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ـ معا ـ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ـ منذ الوهلة الأولى ـ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تنشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ـ في هذا السياق ـ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكما هو معروف فنشأة الدولة ـ عموما ـ ليست سوى خطوة حدثت بين خطوات عديدة سبقتها؛ ضمن مسيرة الإنسان الطويلة؛ عبر الفترات التاريخية المختلفة في سبيل تحقيق التمدن والتحضر. وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال الشواهد التي تثبت مواكبة نشأة الدولة ـ في غالب الأحيان ـ للنشاط العمراني، والازدهار الحضاري. وبالمقابل فقد لوحظ أن سقوط الدولة ينجر عنه ـ في جل الحالات ـ انهيار عمراني، وتقهقر حضاري.

فالدارس لتاريخ بلاد المغرب سيلاحظ ـ حتما ـ ما تعرضت له هذه البلاد من تقلبات؛ نتيجة لطغيان ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل؛ تركت بصماتها العميقة في المسار التطوري للمجتمعات المغربية، ومنعت كل نشاط يهدف إلى استقرار الدول في تلك الديار. وهذه الظاهرة تتمثل في كثرة القبائل وتباينها، وتعدد العصبيات واختلافها. ويبدو أن الذي اكتشف تأثير هذه الظاهرة قبل غيره هو عبد الرحمن بن خلدون؛ ذلك النابغة الذي خصص فصلا مستقلا في مقدمته يشير فيه إليها وهو: "**فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب؛ قل أن تستحكم فيها دولة**".[1]

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 646.

وقد برهن على رأيه – في هذا السياق – ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها – آنئذ – كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل – بعد ذلك – شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 647.

فمـا يمكـن استنتاجـه هنـا.. هـو أن للعصبيـة أثـرا كبيـرا؛ عـلى نشـأة الـدول وسقوطهـا في هـذه الديـار. والدليـل عـلى ذلـك يظهـر مـن خـلال مـا واجـه المسلميـن مـن أحـداث؛ عـلى الرغـم مـن قوتهـم، وتعـدد جيوشهـم، وصـدق دعوتهـم. حيـث واجهتهـم – في بـلاد المغـرب – صعوبـات كثيـرة؛ عرقلـت مساعيهـم؛ قصـد ترسيـخ سلطانهـم، وتثبيـت دعائـم الدولـة الإسلاميـة. وربمـا استعـصى عليهـم تحقيـق ذلـك الأمـر؛ ولـم يتمكنـوا مـن تمهيـد البـلاد إلا في عهـد مـوسى بـن نصيـر؛ كمـا ذكـر ابـن خلـدون. أمـا عبـد اللـه المالـكي، والرقيـق القيـرواني؛[1] فيجمعـان عـلى استقامـة الأوضـاع بإفريقيـة في عهـد حسـان بـن النعمـان. ومـع هـذا يبـدو أن استتبـاب الأمـر لـم يـدم طويـلا؛ حيـث عـادت الفتـن، والحـروب مـن جديـد؛ ودون توقـف. ويرجـع السبـب في ذلـك إلى العصبيـة المهيمنـة، والطابـع القبـلي؛ الـذي يتميـز بهمـا المغـرب. هـذا بالإضافـة إلى ظاهـرة البـداوة؛ المتفشيـة في تلـك الربـوع؛ نظـرا لكـون الأمازيـغ يعتبـرون مـن أهـل العصبيـات والأنسـاب؛ كمـا يقـول ابـن خلـدون ضمـن **"فصـل في أن المـدن والأمصـار بإفريقيـة والمغـرب قليلـة"**.[2]

[1] ريـاض النفـوس، ج: 1، ص: 57. وتاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 64.

[2] ((وأيضـا فالصنائـع بعيـدة عـن البربـر؛ لأنهـم أعـرق في البـداوة. والصنائـع مـن توابـع الحضـارة؛ وإنمـا تتـم المبـاني بهـا؛ فـلا بـد مـن الحـذق في تعلمهـا؛ فلمـا لـم يكـن للبربـر انتحـال لهـا لـم يكـن لهـم تشـوف إلى المبـاني؛ فضـلا عـن

وإذا كانت للبيزنطيين أثار بارزة ــ لا ينبغي نكرانها ــ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ــ في الحقيقة ــ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ــ في تلك الفترة ــ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كَسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ــ أيضا ــ إلى عرب القيروان، والعرب

المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ــ 990.

المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب ـ في تلك الفترة ـ تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد ابن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[2] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 ـ 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 ـ 144.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 ـ 101. 107 ـــ 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 ـ 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 ـــ 157.

والشيعة.[1] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي ــ نتيجة لذلك كله ــ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ــ طبعا ــ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

---

[1] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138. 146 ــ 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ــ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ــ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ــ 209.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمنيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بنى أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك ـ حكم من 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) ـ وهشام بن عبد الملك ـ حكم من 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعدا على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمَّا كان المغرب الإسلامي ـ منذ البداية ـ يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة ـ من الطرفين ـ اضطهاد الرعية التي لا تنحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر ابن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم. ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي)**. فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام

ابن ضرار الكلبي[1] يسارع في إرسال أبيات شعرية من نظمه إلى الخليفة هشام؛ ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية. وفيها يقول:[2]

أفأتمْ بَنِي مَرْوَانَ قيساً دِمَاءَنَا
وَفِي اللهِ إنْ لمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ
كَأنكمْ لمْ تشْهَدُوا مَرْجَ رَاهِطٍ
ولَمْ تَعلمُوا مَنْ كَانَ ثمَّ لهُ الفَضْلُ
تعَامَيتمُ عَنَا بِعَيْنٍ جَلِيةٍ
وَأنتمْ كذَا ما قدْ عَلِمْنا لنَا فِعْلُ

فاغتاظ الخليفة هشام من الوالي عبيدة بن عبد الرحمن؛ فعزله من منصبه؛ ولكنه عين قيسيا آخر؛ **(وهو عبيدة الله بن الحبحاب)**. فتمادى ــ هو الآخر ــ في لعبة العصبية الخطيرة؛ التي انجر عنها ــ في عهده ــ أحداث خطيرة للغاية؛ إذ نشبت ثورة الخوارج الكبرى؛ التي قادها ميسرة المطغري؛ تلك الثورة التي كادت أن تطيح الحكم العربي نهائيا في بلاد المغرب؛ كل ذلك جراء النزعة المتطرفة للعصبية، والنعرة المتشددة للقبلية.

---

[1] أسندت إليه فيما بعد إمارة الأندلس؛ فأظهر فيها تعصبا شديدا لأهل عصبيته اليمنية. مما أودى به إلى التهلكة؛ بعد أن أشعل بلاد الأندلس بالفتن والحروب.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 50.

وهكـــذا فمـــن يحلـــو لـــه اللعـــب بالنـــار؛ يتعـــرض للاحتـــراق أحيانـــا.. حيـــث استفحلـــت ظاهـــرة العصبيـــة القبليـــة، وأخـــذت تنخـــر كيـــان الدولـــة الأمويـــة نفسهـــا. فانحـــدرت بهـــا تلـــك الظاهـــرة السلبيـــة إلى مهـــاوي السقـــوط والاندثـــار.[1] لأن خلفـــاء تلـــك الدولـــة استهوتهـــم اللعبـــة، فغفلـــوا عـــن الأخطـــار الـــتي يمكـــن للعصبيـــة أن تفرزهـــا، إذا مـــا استهيـــن بمفعولهـــا العكـــسي، وتأثيرهـــا عـــلى استقـــرار دولتهـــم وسلامتهـــا؛ فلـــم يكتشفـــوا جوانبهـــا السلبيـــة؛ وانساقـــوا خلـــف إغرائهـــا العابـــر، وطمعـــوا في بعـــض الفوائـــد الظرفيـــة الزائفـــة. وشـــاءت الأقـــدار أن تتسبـــب ظاهـــرة العصبيـــة في تفكـــك الدولـــة؛ عندمـــا تمـــردت بعـــض القبائـــل، والعصبيـــات؛ في الأطـــراف النائيـــة؛ حيـــث أنشـــأت دولا، وإمـــارات خاصـــة بهـــا. مـــن ذلـــك مـــا حـــدث في المغـــرب الإســـلامي مثـــلا؛ إذ تمكـــن زعمـــاء بعـــض القبائـــل، والأحـــزاب مـــن إقامـــة كيانـــات، ودول مستقلـــة؛ عـــن الدولتيـــن: الأمويـــة، ثـــم العباسيـــة بعدهـــا؛ وتبعـــا لمـــا تفرضـــه المجتمعـــات القبليـــة؛ فقـــد كانـــت تلـــك الكيانـــات تستنـــد ــ بدورهـــا ــ إلى عصبيـــة القبائـــل الأمازيغيـــة.

---

[1] المفصـــل في تاريـــخ العـــرب قبـــل الإســـلام، ج: 1، ص 495. والعصبيـــة القبليـــة وأثرهـــا في الشعـــر الأمـــوي، ص: 243. وفجـــر الأندلـــس، ص: 142. والمغـــرب الإســـلامي، ص: 119.

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات – منذ البداية – قصد تأليف دول وإمارات – هنا وهناك – ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ اللذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم – في هذه الحال – متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتحِ وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن

أهم عوامل فشلهما ـ على ما يبدو ـ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: **"فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة"**. و**"فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق"**. و**"فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها"**. و**"فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم"**.[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 626، 636 ـ 642.

القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب ـ بعد سقوط الدولة الأموية ـ فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا ـ طبعا ـ يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.

****

دول الخـــوارج

هــذه التسميــة (**الخــوارج**) لــم يطلقهــا أصحابهــا عــلى أنفسهــم؛ بــل سماهــم بهــا خصومهــم. لذلــك نجـد الإباضييــن في بــلاد المغــرب يستنكــرون إطــلاق هــذه التسميــة عليهــم.[1] وتعــود بدايــة ظهــور المذهــب الخــارجي إلى عهــد عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه. وبالتحديــد أثنــاء وقعــة صفيــن؛ أي حيــن رفضــت فئــة مــن المتقاتليــن نتيجــة التحكيــم؛ فخرجــوا عــن صــف عــلي، وفارقــوا صفــوف أنصــاره؛ معلنيــن العصيــان، ثــم دعــوا النــاس إلى خلعــه هــو ومعاويــة معــا. فاعتبرهــم أهــل السنــة ــ بسبــب ذلــك ــ خارجيــن عــن الصــف؛ وأسموهــم الخــوارج.[2]

---

[1] أنظــر: كتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، للدرجينــي، ج: 2، الصفحــات: 201 ومــا يليهــا. وكتــاب مختصــر تاريــخ الإباضيــة لسليمــان البــاروني، ص ص: 17 ــ 33. وكتــاب الإباضيــة في موكــب التاريــخ، الحلقــة الثانيــة، ص ص: 21 ــ 23. وكتــاب تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 2، ص ص: 337 ــ 400.

[2] أمــا الشهرستــاني فيقــول: ((كــل مــن خــرج عــلى الإمــام الحــق الــذي اتفقــت الجماعــة عليــه يسمــى خارجيــا؛ ســواء كــان الخــروج في أيــام الصحابــة عــلى الأئمــة الراشديــن، أو كــان بعدهــم عــلى التابعيــن بإحســان، والأئمــة في كــل زمــان... اعلــم أن أول مــن خــرج عــلى أميــر المؤمنيــن عــلي رضي الله عنــه جماعــة ممــن كــان معــه في حــرب صفيــن؛ وأشدهــم خروجــا عليــه ومروقــا في الديــن الأشعــث بــن قيــس الكنــدي، ومسعــر بــن فــدكي التميــمي، وزيــد بــن حصيــن الطــائي؛ حيــن قالــوا: "القــوم يدعوننــا إلى كتــاب اللــه، وأنــت تدعونــا إلى السيــف" حــتى قــال: "أنــا أعلــم مــا في كتــاب اللــه! انفــروا إلى بقيــة الأحــزاب! انفــروا إلى مــن يقــول: كــذب اللــه ورسولــه، وأنتــم تقولــون: صــدق اللــه

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت ــ بمرور الوقت ــ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتنتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛

ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ــ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ــ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ــ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ــ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ــ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ــ

نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[1]

وترجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[2] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف

فيما بعد ـ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية، البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ـ 138.

[1] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح

---

[1] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ــ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ــ 59.

[2] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.

[3] قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقية وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ــ 83.

من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ـ منذ البداية ـ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة

---

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: 149. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: 6، ص ص: 210. 267 ـ 268.

122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ــ بعد مقتل ميسرة ــ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ــ منذ البداية ــ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ــ سطحيا ــ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ــ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ــ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ــ في ذلك الوقت ــ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ــ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ــ 51.

الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ ((**لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية**)).[1] ولما كانت القبائل الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[2] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت

---

[1] **المقدمة ، ج: 2، ص: 599.**

[2] **يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة]**

قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية؛ فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية

من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ــ 638.

[1] أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.

الثائـرة إلى صفريـة وإباضيـة؛ تبعـا لملاحظـة سلـوك كـل فئـة في القتـال أمـام خصومهـم مـن المسلميـن؛ ومـدى مـا يحرمونـه عـلى أنفسهـم ومـا يحللونـه.

وهكـذا فبواسطـة هاتيـن الفرقتيـن انتشـرت ــ بعـد ذلـك ــ الثـورات الطاحنـة؛ عبـر بـلاد المغـرب كلهـا. ثـورات ظاهرهـا مذهـبي وديـني؛ أمـا مضمونهـا فيتميـز بالعصبيـة والنزعـة القبليـة. وقـد تمكـن المذهبـان المذكـوران مـن تقسيـم البـلاد بينهمـا تقريبـا؛ فانحـازت قبائـل: غمـارة ومكناسـة وبرغواطـة وبنـو يفـرن ومغيلـة وورفجومـة، وبعـض بطـون صنهاجـة، وبطـون مـن زناتـة؛ إلى الصفريـة. أمـا: هـوارة ونفوسـة ولمايـة ولواتـة، وبطـون أخـرى مـن زناتـة؛ فقـد انضمـت إلى المذهـب الإبـاضي.[1]

هـذا وقـد انجـر عـن تلـك الانتمـاءات المذهبيـة قيـام دول خارجيـة مستقلـة في أقـاصي البـلاد؛ ترتكـز عـلى النظـام القبـلي، والـروح المذهبيـة. منهـا: دولـة برغواطـة؛ الـتي نشـأت في بدايتهـا ضمـن الغطـاء المذهـبي الصفـري، ثـم دولـة بـني مـدرار الصفريـة، ثـم دولـة بـني رستـم الإباضيـة. وقـد استطاعـت هـذه الـدول الثـلاث البقـاء والصمـود؛ أمـام كـل الاضطرابـات الـتي اجتاحـت المغـرب الإسـلامي آنـذاك؛ متحديـة ــ بذلـك ــ سطـوة الخلافـة الأمويـة، ثـم الخلافـة العباسيـة بعدهـا. كمـا استطاعـت أيضـا إضفـاء

---

[1] العبـر، مج: 6، ص ص: 223 ــ 227. 246 ــ 248. 255 ــ 267. 286 ــ 287. 428 ــ 438.

طابع مذهبي وديني على مؤسساتها؛ مع شيء من التفاوت فيما بينها.

غير أنه من الضروري – هنا – التذكير؛ بكون الدول الثلاث كان يغلب عليها الطابع القبلي؛ مصبوغا بسمات البداوة المحض؛ معززة بمبادئ مذهبية، وعقائدية؛ منحتها نفحة دينية متميزة. علما بأن دولة بني رستم تفوقت على أختيها؛ في نظمها وفي سيادتها وفي نفوذها. إذ كانت تتمتع باستقلالية أوسع منهما. حيث كانت دولة برغواطة تعلن ولاءها للدولة الأموية بالأندلس.[1] أما إمارة بني مدرار؛ فقد صرحت بالدعوة لخلفاء بني العباس ببغداد.[2] ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا؛ لا يؤثر ولا يتأثر. فالهدف منه هو كسب نوع من الشرعية؛ قد تساعد على الثبات والاستقرار. والذي يحث على تخصيص فقرات للحديث عن تلك الدول؛ في هذا المجال؛ هو ما عرف عن منعتها، وتحديها للدول الكبرى آنئذ. غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها المؤرخون عنها لا تفي بالحاجة المطلوبة. وسيبقى أمرها مغلفا بالغموض؛ ما دامت النصوص التاريخية الكافية مفقودة.

---

[1] المغرب، 135. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص: 183. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 224. والعبر، مج: 6، ص: 130.

[2] العبر، مج: 6، ص: 268. وصبح الأعشى، ج: 5، ص: 165.

وجملـــة القـــول؛ فهـــذه الـــدول نشـــأت في أعقـــاب الفشـــل الـــذي لحـــق بالقبائـــل الصفريـــة والإباضيـــة؛ أمـــام ولاة إفريقيـــة والمغـــرب؛ طـــوال الفتـــرة الزمنيـــة الممتـــدة مـــن عـــام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيـــث تفرقـــت ــ نتيجـــة لذلـــك الفشـــل ــ القبائـــل الأمازيغيـــة (الصفريـــة والإباضيـــة) في ربـــوع المغربيـــن: الأقـــصى والأوســـط؛ أيـــن تحصنـــوا في المناطـــق النائيـــة، وشيـــدوا دولهـــم الخاصـــة بهـــم.

****

1)ـ الدولة البرغواطية:

أدى فشل الصفرية والإباضية أمام الدولة الأموية ببلاد المغرب؛ إلى قيام الدولة الصفرية الأولى في أقصى البلاد؛ ممثلة ببرغواطة سنة 127هـ (744م). وذلك عندما لجأت فلولهم ـ مع طريف الصفري ـ إلى إقليم تامسنا (بمنطقة الدار البيضاء حاليا)؛ حيث ترأس بعض القبائل ـ هناك ـ من: مصمودة وزواغة وزناتة، وقبائل أخرى.[1] وبعد موته خلفه ابنه صالح؛ الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. وبذلك يكون طريف وابنه صالح قد وصلا إلى مرتبة الرئاسة والسؤدد في قبائل متعددة؛ مع أنهما لا ينتميان إلى عصبيتهما. فكيف حصل ذلك؟

الإجابة على هذا توجد عند ابن خلدون؛ الذي ذكرها ضمن: **"فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية"**.[2]

---

[1] وكانوا أحياء من قبائل كثيرة؛ ذكرهم البكري بقوله: **((**وأن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم؛ وهم على ملتهم: جراوة، وزواغة، والبرانس، وبنو أبي ناصر، ومنجصة، وبنو أبي نوح، وبنو واغمر، ومطغرة، وبنو يورغ، وبنو دمر، ومطماطة، وبنو وزكسينت؛ وعددهم ينتهي أزيد من عشرة آلاف فارس. وممن يدين لهم من المسلمين، وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل، وبنو يليت، ونمالتة، وبنو واسينت، وبنو يفرن، وبنو وناغيت، وبنو النعمان، وبنو إفلوسة، وبنو كونة، وبنو يسكر، وأصادة، وركانة، وإيزمين، ومنادة، وماسينة، ورصانة، وترارتة؛ ومبلغ عددهم اثني عشر ألف فارس**))**. المغرب، ص ص: **140 ـ 141**.

[2] المقدمة، ج: **2**، ص ص: **635 ـ 636**.

والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ـ أيضا ـ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ـ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ـ المتواجدة بمنطقة تامسنا ـ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب جزيرة طريف ـ بالعدوة الأندلسية ـ إلى طريف هذا[2]. وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.

[2] المغرب، ص: 135.

[3] قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في

أبرز القادة والأمراء الأمازيغ. أضف إلى ذلك كله ما للعامل الديني من أثر على الأوضاع؛ حيث كان للمذهب الصفري دوره في تعزيز اللحمة وشحن النفوس بالغيرة وروح التضحية. ذلك لأن الدين يزيل خلق التكبر والحسد والتنافس. وبمرور الوقت نسيت قبائل تامسنا نسب طريف الأول، وخفيت عن التابعين الكيفية التي وصل بها إلى الحكم. وهكذا أصبح منسوبا إليهم وفي عدادهم.

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ثمة من لا يضع الدولة البرغواطية في عداد الدول الصفرية أصلا؛ نظرا لكونها انحرفت عن تعاليم المذهب الصفري الخارجي نفسه؛ بل هناك من يتهم أمراءها بالارتداد عن الدين الإسلامي أيضا؛ حيث أجمعت المصادر التاريخية على ذلك تقريبا؛ تبعا لما يدعيه البرغواطيون من النبوة، وزعمهم بنزول الوحي على رابع أمرائهم (يونس)؛ الذي يقال أنه ابتدع النحلة البرغواطية، وألف ما أسماه قرآنا.[1] على أن بعض المؤرخين ينسبون ادعاء النبوة إلى جدّه صالح؛ ويقولون أنه هو الذي ابتكر هذه

أربعة مراكب؛ حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس؛ فيما يحاذي طنجة؛ وهو المعروف اليوم بجزيرة طريف؛ سميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا؛ ورجع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيان المغرب، ج: 2، ص: 5.

[1] المغرب، ص ص: 134 ـــ 141. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 223 ـ 227. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 182 ـ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ـ 435.

النحلة. أما يونس فقد أظهرها للعلن؛ بعد أن كانت تمارس في الخفاء.[1] وهذا طبعا يخرجه – مع أتباعه – من صفوف المذهب الصفري الخارجي الإسلامي. غير أن نشأة الدولة البرغواطية في بداية عهدها الأول – كما تشير مصادر عديدة – كانت صفرية المذهب؛ ولم يظهر على أصحابها انحراف ما عن جوهر الدين الإسلامي؛ وما حدث من انحراف لم يتم إلا في عهد أمير الدولة الرابع. لذلك وجدت هذه الدولة مكانا لها في هذا المجال.

والذي يهم هنا؛ هو أنه لا سبيل إلى الشك في أن عامل العقيدة – الممثل بالمذهب الصفري – قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي، وفي التلاحم بين أعضائه في بداية الأمر؛ مما ساعد على تشييد إمارة برغواطة. لكن هذا لا ينفي ما للعصبية الأمازيغية أيضا من تأثير في تقوية اللحمة وتماسكها بين القبائل. بحيث انبثق الأمر على شكل من أشكال الرفض والمقاومة للعصبية العربية؛ الممثلة بالأمويين أولا، ثم العباسيين بعدهم. هذا كله حث بعض العشائر والقبائل الأمازيغية، وحفزها على التحالف فيما بينها؛ ضمن عصبية واحدة؛ لمواجهة التحدي الذي كانوا يعتقدون أنه يهددهم.

---

[1] المغرب، ص: 135.

وظهور النحلة البرغواطية ــ فيما بعد ــ بين قبائل لا تعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة إلا القليل منها؛ ساعد على تكتلها ضمن عصبية موحدة وقوية؛ شحنت بمفاهيم خرافية وطقوس مضللة، خاطئة. كما أن تلك النحلة ليست بريئة من النزعة الشعوبية؛ التي متنت اللحمة بين العشائر الأمازيغية، وزادتها ارتباطا. ودلائل ذلك؛ تتجلى فيما ورد من نصوص تخص نحلتهم؛ تلك النصوص والطقوس الوثنية الناطقة بالأمازيغية.[1] الأمر الذي كان يمدهم بشحنات من الزهو والافتخار الشعوبي. وبذلك اشتدت عصبيتهم واستفحلت؛ محققة لدولتهم البقاء، والاستمرار إلى عهد المرابطين؛ المشكلين من قبائل لمتونة ومسوفة؛ الذين تمكنوا من إسقاط الدولة البرغواطية تماما سنة 450هـ(1058م)؛ بفضل تفوقهم وامتيازهم في شدة العصبية وتماسكها؛ إلى جانب صدق وعنفوان التعاليم الدينية المهيمنة على النفوس.

وثمة بعض الكتاب والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة ــ مثل ابن أبي زرع وابن الخطيب ــ ينسبون طريفا وابنه صالحا إلى أصول يهودية؛ وتقول مصادرهم بأن صالحا ــ أو طريفا وربما يونس في أقوال أخرى ــ قد قدم إلى بلاد المغرب من بلدة شذونة؛ المتواجدة بوادي بربساط بالجنوب

---

[1] أنظر ما أورده البكري في كتابه المغرب، ص ص: 139 ــ 140. وابن عذاري في البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 226 ــ 227.

الغربي من بلاد الأندلس؛ وعلى ذلك فقد سمي كل من اتبعه ـ في بداية الأمر ـ برباطي؛ ومع الوقت حرفت التسمية تبعا لنطق الناس آنذاك؛ فقالوا في كل من أتبع مذهب صالح الصفري برغواطي.[1] غير أن عددا من المؤرخين يخالفون

---

[1] وعن صالح ونحلته يقول ابن أبي زرع: ((وكان أصله ـ لعنه الله ـ من بَرباط من عمل شذونة من بلاد الأندلس؛ فكان يقال من تبعه ودخل في ديانته برباطي؛ فعربته العرب، وقالوا برغواطي؛ فسموا برغواطة. وكان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلا خبيثا يهودي الأصل؛ من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام؛ نشأ ببرباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق؛ فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدَري، واشتغل بالسحر؛ فجمع منه فنونا كثيرة. وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا؛ فوجد بها قبائل من البربر هالا؛ فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع؛ فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه؛ وأراهم من نوارجه [أي نميمته] وتمويهاته؛ فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته؛ فقدموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، ووقفوا عند أمره ونهيه؛ فادعى النبوة، وتسمى بصالح المؤمنين. وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد e؛ وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك في سنة خمس وعشرين ومائة... وأنهم يصومون شهر رجب، ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات: خمسا بالليل، وخمسا بالنهار؛ وإن الأضحية واجبة على كل مسلم في الحادي والعشرين من المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين. وصلاتهم إيماء؛ لا سجود فيها، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجدات. ويقولون عند الطعام والشراب: باسم "ياكس"؛ وزعم أن تفسيره باسم الله. وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء؛ ولا يتزوج من بنات عمه؛ ويطلقون ويرجعون ألف مرة في اليوم. فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك. وأمرهم بقتل السارق حيث وجد؛ وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف. وأمرهم بالدية من البقر. وحرم عليهم رأس

هذا الرأي؛ من بينهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يكذب الأخبار التي تنسب صالحا هذا إلى اليهود، أو ترجع موطنه الأول إلى بلدة برباط، أو تقول أنه ذهب إلى المشرق؛ أين تعلم السحر، أو تزعم أنه قرأ على عبيد الله المعتزلي؛ ثم عودته إلى المغرب؛ أين وجد قوما من زناتة جهلة... إلخ. ثم ينتهي إلى القول: **((ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابين للبربر. وهو من الأغاليط البينة. وليس القوم من زناتة؛ ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم؛ وليس من غيرهم؛ ولا يتم التغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه، دخيل في نسبه. سنة الله في عباده؛ وإنما الرجل في برغواطة؛ وهم شعب من شعوب المصامدة معروف)).**[1] ومع ذلك فما قاله ابن خلدون في هذا الأمر يحتاج إلى تمحيص وفحص؛ فهو عندما نسب برغواطة إلى المصامدة. وحين أرجع مصدر تلك الأخبار ـ المرفوضة

كل حيوان؛ والدجاجة مكروه أكلها؛ وقد وقتهم في الأوقات الديكة؛ وحرم عليهم ذبحها وأكلها؛ ومن ذبح ديكا وأكله أعتق رقبة... ووضع لهم قرآنا يقرؤونه في صلواتهم)). الأنيس المطرب، ص: 83. كما تكلم البكري أيضا عن بعض التفاصيل الأخرى تخص هذه النحلة. المغرب، ص ص: 135 ـ 140. وقد أشار إليها أيضا ابن عذاري وابن الخطيب. البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 225 ـ 227. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص : 182 ـ 183.

[1] العبر، مج: 6، ص: 435.

لديه ــ إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب ــ وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون ــ وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكري.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور ابن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى ابن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

---

[1] المغرب، ص: 135.

[2] العبر، مج: 6، ص ص: 428 ــ 432.

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ــ حسبما يبدو ــ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] العبر، مج: 6، ص: 428.

الـذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. ويقول ابن خلدون أن أول ظهور له كان في عهد هشام بن عبد الملك.

أما ما راج من مزاعم تنسب طريفا أو صالحا إلى اليهود؛ يظهر أنها لم تكن سوى شكل من أشكال النبز والشتيمة.. والذي عزز تلك الافتراضات – حسبما يظهر – هي أسماء أجدادهما مثل: شمعون ويعقوب وإسحاق؛ ثم بعض الإشارات الأخرى التي تنبعث من معتقداتهم وأساطيرهم؛ التي وردت في قرآنهم المزعوم. وحتى إن صح نسبهم لليهود؛ فقد يكون ذلك حصل قبل الفتح؛ إذ يحتمل أن يكون طريف قد انحدر من أسرة كانت تعتنق ديانة يهودية؛ قبل أن يدخل الإسلام إلى ديار المغرب. وهذا أمر كان موجودا في تلك الربوع؛ إذ ذكرت مصادر تاريخية عديدة اعتناق بعض القبائل الأمازيغية للديانة اليهودية، إلى جانب المسيحية في بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي. وطبعا فما المانع من التسليم بدخول من كان يهوديا أو نصرانيا إلى الإسلام؛ ضمن الأفواج التي دخلت فيه من أتباع الديانات الأخرى؟

ــ حكومــة إليــاس بــن صالــح البرغــواطي:

وتقــول بعــض المصــادر أن صالحــا استخلــف ابنــه إليــاس، ثــم سافــر إلى المشــرق سنــة 128هــ(745م). وذلــك بعــد أن أوصــاه بإخفــاء ديانتهــم؛ حــتى يقــوى شأنهــم؛ فيتســنى لــه ــ عندئــذ ــ قتــل المخالفيــن. كمــا أوصــاه بــأن يلتــزم بمــوالاة ملــوك بــني أميــة في الأندلــس. وتقــول بعــض الروايــات أيضــا أنــه أخبــره بموعــد عودتــه المقبلــة؛ الــتي حددهــا بحلــول عهــد الملــك السابــع مــن ملوكهــم؛ حيــث قــال أنــه سيظهــر لهــم في شخــص المهــدي؛ الــذي يقتــل الدجــال، ويمــلأ الأرض عــدلا بعــد أن تكــون قــد ملئــت جــورا. ثــم قــال لــه: إن عيــسى بــن مريــم عليــه الســلام سيكــون مــن بيــن جنــوده؛ إذ يصــلي خلفــه. ومــن خــلال مــا جــاء في بعــض الروايــات؛ تكــون مــدة حكــم صالــح قــد دامــت نحــو ســت سنيــن. ولمــا انتصــب إليــاس ملكــا عــلى قبائــل برغواطــة عمــل بوصيــة والــده؛ فلــم يظهــر شيئــا مــن نحلــة برغواطــة؛ وتقــول المصــادر أنــه كتمهــا ولــم يخــض في شأنهــا؛ وبالمقابــل كــان يظهــر الإســلام، ويتحــلى بالعفــاف والصــلاح. وبــقي في الحكــم مــا يقــارب الخمسيــن سنــة.

ــ حكومة يونس بن إلياس البرغواطي:

وبعد موت إلياس سنة 176هـ(792م) خلفه ولده يونس. فاتخذ **شالة** حاضرة لملكه. وهو أول من أظهر ديانتهم المزعومة؛ في أرجح الأقوال. وتم ذلك بعد عودته من رحلة الحج.[1] غير أن بعضهم ينسب إليه تأسيس النحلة دون جده صالح.[2] وكان يونس هذا شديدا وفاتكا؛ إذ أشعل تلك الجهات الغربية حربا وتدميرا وتشريدا للسكان؛ مجبرا

---

[1] **قال ابن خلدون: ((ورحل يونس إلى المشرق وحج؛ ولم يحج أحد من أهل بيته قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبر، مج: 6، ص: 430.**

[2] **نقل البكري قائلا: (("قال أبو العباس فضل بن مفضّل المذحجي؛ أن يونس القايم بدين برغواطة أصله من شذونة؛ من وادي بَربَط. وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، ويزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوت بن سعيد التراري، وجدّ بني عبد الرزاق (ويعرفون ببني وكيل الصفرية)، ومناد صاحب المنادية (المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة)، وآخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين؛ وادعى ثلاثة منهم النبوة؛ منهم يونس صاحب برغواطة". قال: "وكان يونس شرب دواء الحفظ؛ فلقن كل ما سمع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ، ونظر في الكلام والجدال؛ وأخذ ذلك عن غيلان؛ ثم انصرف يريد الأندلس؛ فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة؛ فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها؛ مما تدل عليه النجوم عندهم؛ فتكون على ما يقول أو قريبا منه؛ فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته، ودعا إلى نبوته؛ وسمى من اتبعه بربطي؛ لما كان من بربط؛ ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم؛ فقالوا برغواطي)). المغرب، ص ص: 137 ــ 138.**

الناس على إتباع نحلة جده.[1] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربعِ علىٰ سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غفيْر معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال

---

[1] وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الأمر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تَامْلُوكَافْ ـ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـ سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ ـ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم ـ)). المغرب، ص: 136.

له **بَهْت**؛ فأحدث فيه من القتل والتمثيل ما لا حصر له. وكانت له كذلك حروب عظيمة مع الأدارسة؛[1] وقد خسر في تلك الحروب كثيرا من أتباعه وأراضيه؛ حتى **شالة** ــ عاصمة دولته نفسها ــ سقطت في أيدي إدريس بن إدريس؛ بالإضافة إلى مناطق واسعة من تامسنا.[2]

---

[1] أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 186. دولة الأدارسة، ص: 280.

[2] وأبو غُفَير هذا هو الذي جاء ذكره في القصيدة التي قالها سعيد بن هشام المصمودي؛ يهجو فيها برغواطة؛ منها:

قِفِي قَبْل التَّفَرق فَاخْبِرينَا
وقُولِي وَاخْبِري خَبَراً مُبِينَا
هُمُومَ بَرَابِر خَسِرُوا وَضَلُّوا
وخَابُوا لاَ سُقُوا مَاءً مَعِينَا
يَقُولُونَ: النَّبِيُّ أَبُو غفِير
فَأَخْزَى اللَّهُ أمَّ الكَاذِبِينَا
أَلَمْ تَسْمَعْ ولَمْ تَرَ يَوْمَ بَهْتٍ
عَلَى آثَارِ خَيْلِهِمُ رَنِينَا
رَنِينَ البَاكِيَاتِ بِهِمْ ثُكَالَى
وَعَاوِيَةٍ وَمُسْقِطَةٍ جَنِينَا
هُنَالِكَ يُونُسُ وبَنُو أَبِيهِ
يُوَالُونَ البَوَارَ مُعَظِّمِينَا
فَلَيْسَ اليَوْمَ رِدَّتُكُمْ وَلَكِنْ
لَيَالِي كُنْتُمُ مُسْتَيْسِرِينَا

(يقصد بكلمة مستيسرين أنهم كانوا من أتباع ميسرة المطغري)

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه

[1] من هنا بدأت أخبار المؤرخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى أسلموا إسلاما جديدا. وكان آخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.

يبدي ـ في كل عام ـ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

---

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي ـ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـ المعروف بالحقير ـ ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبي صلى الله علية وسلم بماية عام سوا". قال:

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر ابن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

"وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـــ 136.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت – منذ نشأتها – إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو – بالطبع – شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي – في عهد المنصور بن أبي عامر – بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد.

وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

****

ــ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ــ أو يونس ــ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان،

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 432 ــ 434.

وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[1] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: **((بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله)).**[2] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم؛ مع أن الأثير الإسلامي متوفر أيضاً.

---

[1] المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.

[2] المغرب، ص: 140.

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ـ طيلة القرون التي عاشتها ـ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ـ من جهة أخرى ـ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: **"فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر"**.

و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ـ ولو بإيجاز ـ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي بها من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ـ بعض الشيء ـ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((**من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)).

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـ 589. 607 ـ 609.

وهـذه العبـارة تـوحي للقـارئ باحتمـال اعتنـاق سقـوط للمذهـب الخـارجي. غيـر أن قـول ابـن حيـان هـذا قـد يكـون مـن قبيـل التشنيـع بسقـوط؛ وتذكيـر النـاس بأسلافـه الصفريـة. المهـم أن سقـوط وابنـه ــ حسبمـا جـاء في المصـادر ــ لا علاقـة لهمـا ببـدع الامـارات البرغواطيـة الأولى؛ وكـل مـا يربطهمـا ببرغواطـة هـو أنهمـا ينحـدران مـن أصـول عرقيـة برغواطيـة؛ كمـا أن جيشهمـا مكـون ــ في معظمـه ــ مـن شتـات قبيلـة برغواطـة.

ــ حكومـة سقـوط البرغـواطي:

تجمـع المصـادر عـلى أن هـذه الإمـارة نشـأت في سبتـة وطنجـة؛ بقيـادة سقـوط أو (سكـوت) بـن محمـد البرغـواطي، وبمساعـدة زميلـه أبي العطـاف رزق اللـه البرغـواطي أيضـا؛ والـذي كـان في طنجـة. وربمـا تكـون هـذه الإمـارة قـد بـدأت في الظهـور لأول مـرة؛ في شكـل ولايـة مـن ولايـات الدولـة الإدريسيـة الحموديـة الـتي كانـت قائمـة بمالقـة؛ ويرجـح أن ذلـك حصـل بعـد مقتـل الفـتى الصقلـبي نجـا في سنـة 434هـ(1042م)؛ الأمـر الـذي أبـقى سبتـة خاليـة مـن شخـص قـوي يتولاهـا. ولا يعـرف بالضبـط التاريـخ الـذي أصبـح فيـه سقـوط هـذا واليـا عليهـا.[1] وكـل مـا

---

[1] لقـد تضاربـت الأقـوال حـول التاريـخ الـذي ولي فيـه سقـوط بسبتـة. وقـد ذكـر ابـن بسـام أن يحـيى بـن علـي بـن حمـود هـو الـذي ولى سقـوط علـى سبتـة؛ (المجلـد الثـاني مـن القسـم الثـاني، ص: 657. أنظـر إلى مـا جـاء في التعليـق

عرف هو أن الذي ولي على سبتة وطنجة ــ بعد إدريس بن علي بن حمود ــ هو الحسن بن يحيى بن علي؛ رفقة الوصي عليه المسمى نجا الصقلبي. لذا يمكن إرجاع بداية أمر هذين البرغواطيين إلى الفترة الزمنية التي تلت مقتل الفتى نجا؛ ذلك المملوك الصقلبي الذي طمع في اغتصاب عرش الحموديين؛ فاغتاله بعض جنوده؛ الذين ينتمون أصلا إلى برغواطة؛ وهم كما قيل: أخوال الأمير حسن بن يحيى بن علي بن حمود.[1]

وحسبما يظهر فمنذ تلك الحادثة رجحت كفة سقوط مولى يحيى بن على بن حمود؛ ذلك المملوك الذي تركه يحيى في سبتة لأمر ما؛ عندما قرر التوجه إلى مالقة.[2] ومرت فترة من

بالصفحة الموالية). بينما الخبر المؤكد الذي ذكره ابن بسام نفسه؛ نقلا عن ابن حيان؛ واتفق فيه مع كثير من المؤرخين (أنظر المجلد الأول من القسم الأول، ص: 481.) أن يحيى المعتلي أسند ولاية سبتة ــ عندما جاز للأندلس ــ إلى أخيه إدريس بن علي؛ الذي كان ــ في عهد أبيهما ــ واليا على مالقة. ولما قتل يحيى بن علي؛ خلفه أخوه إدريس المتأيد؛ الذي ولى الحسن بن يحيى بسبتة؛ تحت وصاية الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 288. والمعجب، ص: 61). ولما تولى الحسن بن يحيى مقاليد الخلافة بمالقة؛ ترك أمر سبتة في يد الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 63). وعليه قد يعود ظهور سقوط إلى هذه الفترة بالذات؛ خاصة بعد مقتل نجا.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقول ابن عذاري: ((وكان سوَّجَّات [سقوط] مولى ليحيى بن علي بن حمود؛ اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ؛ فحظي عنده؛ فلما سار يحيى إلى الأندلس وخلف سوَّجَّات مولاه بسبتة؛ وجعل معه ناضرا عليه مولاه رزق الله)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250. وهذا الخبر

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة

يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ــــ المتقدم الذكر ــــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطمعه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس بن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ــــ لأول وقته يومئذ ــ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ــ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

بالخصوص. والأمر المؤكد ــ بعد ذلك ــ أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك ــ بالفعل ــ سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة

---

[1] وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

الخضــراء ضمــن مملكتــه؛ وقــد تصاعــد خلافهمــا حــتى وصــل إلى الاقتتــال في البحــر ســنة 457هـ(1064م).[1] وكــان يشــد أزره ابنــه يحــيى؛ الــذي يقــوم مقــام وزيــره، إذ هــو المتصــرف في شئــون الدولــة؛ خاصــة بعــد أن كبــر سقــوط، وبعــد أن أثقلتــه السنــون. وظهــر هــذا مــن خــلال معارضتــه لأبيــه؛ حيــن أراد مساعــدة المرابطيــن ضــد قبائــل غمــارة [وعنــد ابــن بســام زناتــة]؛ فأقنعــه بالعــدول عــن ذلــك الأمــر.[2] المهــم أن

---

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((كــان سبــب ذلــك باعتقــال عبــاد لرجــل مــن تجــار سبتــة؛ في شــيء حضــره بحضرتــه؛ فاعتــدى عليــه سقــوت؛ فاعتقــل لــه عــدة تجــار؛ فنشــأت لذلــك بينهمــا وحشــة سنــة سبــع وخمسيــن [وأربعمائــة]؛ فامتطيــا لهــا ظهــر اللجــج؛ علــى مــا بينهمــا مــن التطــام اللجــج؛ فتهافتــا عــلى القطيعــة، واجتمعــا عــلى عقــد البحــر بينهمــا؛ فتلفــت فيــه رؤوس وأمــوال، وهلكــت مــن أجلهــا نفــوس رجــال؛ يطــول في صفتهــا المقــال؛ إلى أن أكمــل عبــاد مــن أسطــول أنشــأه نحــوا مــن ثمانيــن قطعــة؛ فأجراهــا إلى سبتــة؛ فخــرج عليهــا أسطــول لسقــوت؛ فكــان الظهــور لابــن عبــاد؛ ثــم افترقــت الأساطيــل؛ بعــد حــروب وسفــك دمــاء؛ وانقطــع بحــر الزقــاق بينهمــا مــدة استهمــا اجتــرار منافعــه فيهــا. ثــم يضيــف ابــن بســام قائــلا: ثــم غلــظ أمــر سقــوت؛ حــتى أخــاف القريــب والنــازح، واقتــاد الحــرون والجامــح، وانبثــت سرايــاه في البحــر والبــر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ــ 660.

[2] يقــول ابــن بســام ((ودارت النوبــة عــلى سقــوت بــن محمــد؛ فتطــرف أميــر المسلميــن ــ رحمــه اللــه ــ بلــده للفــراغ ممــن شــذ عنــه مــن زناتــة؛ وقــد التفــوا بأحــد محــاش الفتنــة، ووألــوا إلى موضــع يعــرف بالدمنــة؛ فنــزل بساحتهــم أميــر المسلميــن؛ سنــة إحــدى وسبعيــن [وأربعمائــة]؛ عــلى مقربــة مــن بــلاد سقــوت؛ فهــم بالانحيــاش إليــه؛ فقــد كــان آل وآيــل عليــه؛ فنهــاه حزبــه الذميــم الســعي، وثنــاه ابنــه الفائــل الــرأي)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقــال أحمــد الناصــري: ((إلى أن استقــل [سقــوط] بالأمــر، واقتعــد كــرسي عملهــم [عمــل الحمودييــن] بطنجــة وسبتــة؛ وأطاعتــه قبائــل غمــارة؛ واتصلــت أيــام ولايتــه إلى أن

جيش لمتونة ـ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ـ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: **((ألاّ يسمع قرع طبله في ملكه)).**[1] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة، وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ـ 31.

[1] مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ـ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ـ وقال: "والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: **662**. ومفاخر البربر، ص ص: **55 ـ 56**.

[2] قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ـ مرة أخرى ـ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت

به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ـ لأول ذلك اليوم ـ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ـ يومئذ ـ أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين ـ رحمه الله ـ إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز بن أمير المسلمين ـ رحمهما الله ـ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ـ 664.

ليلـــة بكاملهـــا. ويقــول صاحـــب مفاخـــر البربـــر: أنــــه لمـــا مثـــل أمـــام المعـــز بـــن يوســـف بـــن تاشفيـــن ((**فطلـــب منــــه المـــال؛ فقـــال لــــه: "ألخـــازن أبيـــك كنـــت نجمـــع المـــال؟" فحللـــه الحســـام، وحكـــم فيـــه الحمـــام**)).[1] وانتـــهى بذلـــك أمـــر ضيـــاء الدولـــة العـــز بـــن سقـــوط؛ إذ قتـــل في ربيـــع الآخـــر مـــن سنـــة 477هـ(1084م). وبذلـــك انتهـــت دولـــة سقـــوط البرغـــواطي نهائيـــا.

****

---

[1] **مفاخـــر البربـــر، ص ص: 56 ــ 57.**

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبـــدو أن سبتـــة في عهـــد سقـــوط البرغـــواطي لـــم تكـــن في مستـــوى يؤهلهـــا للقيـــام بـــدور ثقـــافي معيـــن بيـــن سكانهـــا. وعـــلى الرغـــم مـــن أنهـــا كانـــت كرسيـــا لحكـــم بعـــض الأدارسـة مـن الحموديـيـن؛ إلا أنهـا لـم تظهـــر أي دور ثقـــافي وعلـــمي يستحـــق التنويـــه. وإن كـــان البكـــري ــ الـــذي عاصـــر سقوطـــا ــ يقـــول عـــن سبتـــة: ((**ولـــم تـــزل دار علـــم**)).[1] ومـــع هـــذا فـــلا بـــد أن يكـــون للأندلـــس بعـــض الأثـــر في الحركـــة الثقافيـــة بتلـــك المدينـــة، خاصـــة في بعـــض المنجـــزات الحضاريـــة والعمرانيـــة كالمساجـــد والحمامـــات. غيـــر أنـــه سجـــل في الزمـــن الـــذي تـــلا عصـــر سقـــوط هـــذا؛ ازدهـــار علـــمي ملحـــوظ في سبتـــة؛ تلـــك المدينـــة الـــتي أضحـــت مركـــز علـــم وثقـــافـــة مرمـــوق في المغـــرب والأندلـــس.[2] أمـــا عصـــر سقـــوط فيمكـــن أن يعبـــر عنـــه خطابـــه لابـــن جهـــور أميـــر قرطبـــة؛ الـــذي يقـــال أنـــه طلـــب فيـــه منـــه أن يرســـل إليـــه قارئـــا للقـــرآن. وربمـــا دل هـــذا عـــلى نـــدرة القـــراء في سبتـــة في تلـــك الأثنـــاء.[3] كمـــا أن

---

[1] المغـــرب، ص: 103.

[2] للتوسـع في هـذا الأمـر يمكـن الرجـوع إلى كتـاب المقـري أزهـار الريـاض في أخبـار عيـاض؛ ففيـه مـا يفيـد.

[3] أورد ابـن عـذاري خبـرا قـال فيـه: ((وذكـر عـن أبي الوليـد بـن جهـور صاحـب قرطبـة أنـه قـال: "وردت علـي مـن الكتـب في يـوم واحـد كتـاب مـن ابـن صمـادح صاحـب المريـة يطلـب جاريـة عـوادة، وكتـاب مـن ابـن عبـاد يطلـب جاريـة زامـرة، وكتـاب مـن سواجـات [سقـوط] صاحـب سبتـة يطلـب قارئـا يقـرأ القـرآن". فوجـه مـن طلبـة قرطبـة رجـلا يعـرف بعـون اللـه بـن نـوح. وعجـب أبـو الوليـد

الإشارة الساخرة التي أطلقها أبو الوليد الشقندي في رسالته التي يفاخر فيها ببلاد الأندلس والأندلسيين؛ تبرز صورة سقوط التي كانت في ذهن المثقفين آنئذ؛ وذلك حين قال لأبي يحيى بن المعلم الطنجي: ((**وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية** [يقصد دعوة الموحدين] **أبسقوط الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟**)).[1] ومع هذا لا سبيل إلى نكران أن بلاط ضياء الدولة يحيى ابن سقوط بسبتة احتضن ــ يوما ما ــ شاعرا مثل علي بن عبد الغني الحصري الضرير؛[2] صاحب القصيدة الذائعة الصيت التي يقول فيها:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ   أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد اتصل هذا الشاعر الفحل ــ أثناء مقامه بسبتة وطنجة ــ بضياء الدولة يحيى بن سقوط

من ذلك وقال: "جاهل يطلب قارئا، وعلماء يطلبون الأباطيل")). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص: 191.

[2] ذكره ابن بشكوال فقال: ((ذكره الحميدي وقال:" شاعر أديب رخّم الشعر؛ دخل الأندلس ولقي ملوكها؛ وشعره كثير، وأدبه موفور. وكان عالما بالقراءات وطرقها؛ وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التي نظمها في قراء نافع؛ وهي مائتا بيت وتسعة أبيات. قال لقيته بمرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وتوفي بطنجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ــ 433.

البرغـواطي؛ حيـث كانـت لـه حظـوة عنـده؛ وهـذا مـا سجلـه ابـن بسـام حيـن قـال: ((**وأفضـت الدولـة البرغواطيـة إلى الحاجـب المعـز ابنـه** [أي ابـن سقـوط] **شهـاب أفلاكهـا، وخيـرة أملاكهـا. هـبَّ الأدب ريحـا، ونفخـت دولتـه في أهلـه روحـا. أعـرض بـه الشعـراء وأطالـوا، ووجـدوا بـه السبيـل إلى المقـال فقالـوا. وممـن خيـم في ذراه، ونـال مـن الحـظ الجسيـم مـن دنيـاه؛ الحصـري الضريـر؛ فـإن لـه فيـه مـا اذهـل الناظـر عـن الرقـاد، وأغـنى المسافـر عـن الـزاد؛ والحاجـب يكحـل عينيـه بزينـة دنيـاه، ويفتـق لهاتـه بمواهبـه ولهـاه. وكـان** [يحـيى] **سهـل الجانـب للقصـاد، طلـق اليـد بالمواهـب الأفـراد**)).[1] لـذا فـلا يستبعـد أن يكـون بـلاط سقـوط ــ وخاصـة ابنـه ضيـاء الدولـة ــ قـد عـرف حركـة ثقافيـة ــ ولـو متواضعـة ــ إذ يكونـان قـد أرادا بذلـك تقليـد ملـوك الأندلـس والمغـرب.

****

---

[1] الذخيـرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 661 ـــ 662. أنظر أيضا مفاخـر البربـر، ص: 55.

2)ـ دولة بني مدرار:

تنسب هذه الدولة ـ أيضا ـ إلى مدينة سجلماسة ذات الموقع القريب من مدينة تافيلالت الحالية. ويبدو أن هذه الدولة نشأت قبل تشييد مدينة سجلماسة[1] المنسوبة إليها أصلا؛ إذ كانت عبارة عن إمارة قبلية؛ ذات طابع بدوي. وقد سميت ـ أيضا ـ بدولة بني واسول؛ وهو أحد أجداد بني مدرار. هذا وقد تباينت الأخبار ـ بعض الشيء ـ حول بدء قيامها؛ غير أن المهم ـ هنا ـ هو أن هذه الدولة تأسست في عام 140هـ(757م)؛[2] بعد أن تجمعت فئات من قبيلة

---

[1] أنظر رأي ابن خلدون في الكيفية التي يحدث بها ذلك النشوء؛ ضمن "فصل في أن الدول أقدم من المدن والأمصار؛ وأنها إنما توجد ثانية عن الملك" إذ يقول: ((وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدعة كما قدمناه؛ وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة، وبناء كبير؛ وهي موضوعة للعموم، لا للخصوص؛ فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون؛ وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى؛ حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا؛ بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطرين بعصا الملك؛ أو مرغبين في الثواب والأجر؛ الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 966.

[2] أما البكري فقال أنهم شرعوا في بناء سجلماسة في عام 104هـ؛ وهذا لا يتطابق مع ما أجمعت عليه بقية المصادر. لذا فالراجح أن يكون ما ورد في المغرب تحريفا في النسخ. المغرب، ص: 149.

مكناسة البترية؛[1] في تلك الربوع؛ التي هي ــ في حقيقة الأمر ــ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[2] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شرّ قتلة.[3]

---

[1] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى بن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

[2] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ـــ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[3] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن

وهكذا نرى كيف يتكرر بطش الصفرية بأمرائهم؛ فبعد قتل أمير الصفرية الأول (ميسرة)؛ بتدبير من أصحابه؛ يقتل أمير ثان ـ مرة أخرى ـ بواسطة أتباعه من الصفرية بسلجماسة.[1]

ـ حكومة أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي:

وبعد أن قتل الصفرية إمامهم عيسى بن يزيد؛ ولوا عليهم بدلا منه أبا القاسم سمغون بن واسول بن يزلان بن يزول المكناسي.[2] ويقول ابن خلدون أن أبا القاسم سمغون[3] هذا هو الذي حمل

طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل؛ فسمي ذلك الجبل جبل عيسى؛ وولوا بعده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ـ 140.

[1] للتوسع في موضوع دولة مكناسة بسجلماسة يستحسن الرجوع إلى: كتاب المغرب، ص ص: 148 ـ 152. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 156 ـ 157. والعبر، مج: 6، ص ص: 267 ـ 273. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ـ 149.

[2] وذكر ابن الخطيب أن أبا القاسم هذا هو الملقب بالمدرار. دخل جده الأندلس مع طارق ابن زياد. كما قال أنه كان حدادا من أهل الربض بقرطبة؛ فلجأ إلى سجلماسة؛ حيث تقرب من أبي الخطاب الصفري رئيس الصفرية فيها بسلاح صنعه بنفسه؛ فاستحسنه أبو الخطاب وقربه وقدمه على غيره. ولما توفي أبو الخطاب سنة 191هـ ولي مكانه.

[3] عرف ابن خلدون بأبي القاسم هذا بقوله: ((واجتمعوا بعده [أي بعد عيسى ابن يزيد الأسود] على كبيرهم أبي القاسم سمغون بن مصلات بن أبي يزول؛ كان أبوه سمغون من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين؛ وأخذ عن عكرمة مولى بن عباس؛ ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية؛ وهو [أبو القاسم] الذي بايع لعيسى بن يزيد؛ وحمل قومه على طاعته؛ فبايعوه من بعده)). العبر، مج: 6، ص ص: 267 ـ 268. أما البكري فيرى أن أبا القاسم هو الذي لقي عكرمة بإفريقية وسمع منه. المغرب، ص: 149.

قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ـ بعد عيسى ابن يزيد ـ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4]

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[4] الفرق الإسلامية، ص: 170.

المهــم أن سمغــون عندمــا تربــع عــلى سريــر الحكــم أعلــن بالدعــوة للمنصــور والمهــدي العباسيَّيْــن؛ مــع أنــه صفــري المذهــب. وقــد بــقي أبــو القاســم في الحكــم حــتى تــوفي أثنــاء صــلاة العشــاء، وفي آخــر ركعــة منهــا؛ وذلــك سنــة 168هــ(784م). أمــا ابــن الخطيــب فيقــول بأنــه تــوفي في آخــر ذي القعــدة سنــة 199هــ(814م). كمــا قــال أنــه هــو الــذي أمــر ببنــاء الســور الــذي يحيــط بمــزارع النخيــل.

ــ حكومــة أبي المنتصر اليســع بن سمغــون المكنــاسي:

ولمــا تــوفي أبــو القاســم سمغــون خلفــه ولــده أبــو الوزيــر إليــاس؛ ولكــن حكمــه لــم يــدم طويــلا؛ إذ قــام عليــه أخــوه أبــو المنتصــر اليســع؛ فخلعــه وانتصــب في مكانــه سنــة 174هــ(790م) في روايــة، أو سنــة 200هــ(815م) في روايــة أخــرى. وكــان حكــم أبي المنتصــر اليســع متميــزا عمــا سبقــه؛ ذلــك أن هــذا الأميــر اتصــف بشــدة الوطــأة، وبميــل إلى العنــاد، وحــدة الطبــع، والحــرص عــلى ملكــه؛ وكــان شغوفــا بالضبــط والقهــر، جبــارا في سلوكــه. فتمكــن بحزمــه وعزمــه مــن فــرض الخمــس عــلى معــادن درعــة، وفتــك بمــن حولــه مــن القبائــل الأمازيغيــة.

ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار بن اليسع المنتصر المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى

---

[1] وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.

كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد ــ للمرة الثانية ــ إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه.

هـذا ولا يعـرف ــ بالضبـط ــ سبـب ذلـك الخـلاف بيـن الأخويـن. كمـا لا يعـرف إن كـان ميـل الرعيـة إلى ابـن تقيـة مبعثـه إلى صلاحـه وتقـواه، أم إلى سبـب آخـر؛ ربمـا تعلـق بالعصبيـة القبليـة الـتي تـرى في أروى بنـت عبـد الرحمـن بـن رستـم أنهـا مـن أسـرة ليسـت مكناسيـة منهـم. هـذا ولـم يطـل الزمـن بمـدرار بعـد تلـك الأحـداث حـتى مـات سنـة 253هـ(866م)؛ وقـد دام ملكـه كلـه زهـاء خمـس وأربعيـن سنـة. أمـا ولـده ميمـون بـن تقيـة فقـد بـقي في الحكـم حـتى تـوفي سنـة 263هـ(876م).

ــ حكومـة محمـد بـن ميمـون المكنـاسي:

وبمـوت ميمـون بـن تقيـة تـولى الحكـم مـن بعـده ولـده محمـد الـذي ــ كمـا قـال ابـن خلـدون ــ كـان متمذهبـا بالإباضيـة. وهنـا تبـرز إشـارة لمـا يمكـن أنـه حـدث مـن تحـول مذهـبي في عهـد الأميـر مـدرار. ويقـول ابـن الخطيـب أن محمـدا هـذا غـزا أرض القبلـة ــ أي الجنـوب ــ حيـث تغلـب عـلى **"تافلبالـت"** [ربمـا كانـت تابلبالـت الحاليـة القريبـة مـن بشـار]. هـذا وقـد تـوفي محمـد بـن ميمـون في سنـة 270هـ(883م). ومـع ذلـك فقـد كانـت أخبـار عهـد محمـد هـذا شحيحـة، وغيـر كافيـة لتحديـد صـورة واضحـة لهـا.

ـ حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ ـ مع ابنه أبي القاسم ـ إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع ـ الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل آبائه ـ فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده ـ بدوره ـ يكتنفه غموض كثيف.

ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم ابن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛

وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة.

وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من** قومه)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ـ قبل عودته إلى إفريقية ـ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسَّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: ((**واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة**

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـــ 642.

[2] نفسه، ص: 638.

رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد)).[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

ـ حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:

انتقل محمد الشاكر ـ هذا ـ نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[2] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه:

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

((كان غاية في إظهار العدل، وتسمى الشاكر لله، وإليه تنسب المثاقيل الشاكرية)).[1] ويعتبر موقف الشاكر هذا كافيا لاستثارة الفاطميين؛ الذين شغلتهم – في البداية – فتن بني أبي العافية، وأبي يزيد مخلد ابن كيداد. ولما استتب الأمر للدولة أرسل المعز لدين الله الفاطمي جيشا من كتامة وصنهاجة إلى سجلماسة؛ ووضع على رأس ذلك الجيش جوهر الكاتب (الصقلي)؛ فتغلب عليها. وقد تمكن الشاكر – في بداية الأمر – من الإفلات واللجوء إلى حصن قريب من سجلماسة يسمى تاسكرات؛ ولكن سوء حظه أوقعه في قبضة الفاطميين؛ عندما دخل سجلماسة متنكرا؛ فعرفه رجل من قبيلة مطغرة؛ فأخبر الفاطميين عنه؛ الأمر الذي سهل القبض عليه؛ حيث نقله جوهر معه إلى القيروان في سنة 347هـ(958م). أين حبس في رقادة حتى مات في سجنه سنة 354هـ(965م). أما سجلماسة فقد أسند جوهر الكاتب ولايتها إلى مبادر بن زيري.

---

[1] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون المغراوي بمقتل الأول واحتلال البلدة من طرف المغراويين؛ وبذلك سقطت دولة بني مدرار نهائيا؛ وغدت

[1] يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز آخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ إلى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ــ 272.

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ــ قبل هرمها ــ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ــ كسابقتها دولة برغواطة ــ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ــ أيضا ــ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ــ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ــ بعنفوانها ــ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة

الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ــ بدءا بعهد مدرار ــ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ــ المتعطشين للعلم ــ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2]

---

[1] المغرب، ص ص: 149 ــ 150.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني، ج: 1، ص ص: 109 ــ 113. ج: 2، ص: 502.

من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم ـ مع أبي يزيد ابن كيداد ـ في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[1] ويدل خبر كهذا ـ طبعا ـ على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

****

3)ـ الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت ـ بعد ذلك ـ تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه ـ أيضا ـ في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 ـ 110.

شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد بن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

---

[1] البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى

---

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين ومائة هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو عيصة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدّف؛ شبهوه بالدّف لتربيعه)). المغرب، ص: 68.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حوَلَ تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ
وَيَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرِسْلُ الهَوَى عَدَى
وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ
سَقَى اللَّهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً
بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ
كَأنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا
وَلَم يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ

تقع إلى الغرب منها؛ وتعرف بتاقدمت؛ ويفسر هذا الاسم الصفة التي كان عليه موقعها الجغرافي؛ الذي يظهر في شكل مربع. وقد يكون بناؤها ـ حسب بعض الروايات ـ بدأ بعد قيام الدولة الرستمية.[1] حيث ترعرعت الدولة الرستمية الإباضية ونمت شيئا فشيئا داخلها. وقد كانت هذه الإمارة هي الدولة المستقلة الأولى في ربوع المغرب الأوسط. غير أنها لم تظهر في ثوبها الكامل سوى في سنة

فَلَمَّا تَمَادَى العَيْشُ وَانْشَقَّتِ العَصَى
تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَلُّ
سَلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِقْ يَوْمَ بَيْنِنَا
سَلاَمًا وَلَكِنْ فَارَقَتْ وَبِهَا ثُكْلُ
وَمَا هِيَ آمَاقٍ تَفِيضُ دُمُوعُهَا
وَلَكِنَّهَا الأَرْوَاحُ تَجْرِي وَتَنْسَلُّ)).

البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 198 ـــ 199.

[1] ويصف البكري هذه المدينة بقوله: ((ومدينة تيهرت مسورة؛ لها ثلاثة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها [عدَّ أربعة أبواب بدلا من ثلاثة]. وهي في سفح جبل يقال له جزُّول؛ ولها قصبة مشرفة على السوق؛ تسمى المعصومة؛ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة؛ يسمى مينا؛ وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتُش؛ ومن تاتش شُرب أهلها، وبساتينها؛ وهو في شرقيها. وفيها جميع الثمار؛ وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما مشما؛ وسفرجلها يسمى بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز؛ فقال احرقي ما شئت؛ فوالله أنك بتاهرت لذليلة. وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تاهرت القديمة؛ وهي حصن لبرقجانة؛ وهو في شرقي الحديثة... وبقبليها لواتة وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة؛ وقد ذكرنا أن بشرقيها حصن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ـ 67.

160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ــ ولو شكلية ــ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ــ بعد أن مات بعلها في الحج ــ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ــ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ــ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

---

[1] ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب ابن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ــ 30.

[2] المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ــ 968.

ومن الضروري التنبيه – هنا – إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 – 638.

لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ـ بهذا الاعتبار ـ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ـ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ـ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[1] وبذلك يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل: لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد

---

[1] ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ـ من أهل النظر منهم ـ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي رضي الله عنه؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب رضي الله عنه. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها، ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.

بين الناس؛ فهذبت بذلك طيش العصبية، وكبحت جموحها؛ فامتلكت قوة وقدرة؛ حققت بهما استقلالها، وضمنت امتداد رقعتها، واكتسبت هيبة واحترام خصومها.

كان إمام الإباضيين عبد الرحمن بن رستم في غاية الصلاح والزهد وفي قمة المعرفة والعلم. وله بعض المؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، وديوان خطب، ورسائل إخوانيات. ومن علامات زهده وفضله وتواضعه؛ أنه كان يقوم ببناء داره بنفسه، وبمعونة عبد له. كما أوردت المصادر أنه لما وصلته ـ في بداية الدولة ـ ثلاثة أحمال من المال؛ بعث بها الإباضيون في المشرق؛ استشار أصحابه في أمرها؛ فأشاروا بقبولها؛ لحاجة الدولة والرعية إليها أنئذ. فعمل بمشورتهم وقبلها، ثم فرقها أمام الوفد المشرقي على فقراء المسلمين، وفي شراء الأسلحة الضرورية. ولما وصلته عشرة أحمال أخرى من المال ـ بعد فترة ـ مع وفد آخر؛ شاور أصحابه أيضا؛ فتركوا القرار له. عندها أرجع الأحمال إلى أصحابها؛ بحجة أن أصحابها أحوج إليها من الدولة؛ نظرا لاستغنائها وما وصلت إليه من قوة.[1]

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 83 ـ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فنديn اليفرني، ثم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فنديn اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا.

وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر – في الأول – بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فندين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: ((**هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا**)).[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فندين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

– حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل

---

[1] السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.

[2] السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 – 47.

بأنهـا دامـت نحـو أربعيـن سنـة؛ أي أنـه تـولى الحكـم سنـة 168هـ(784م) ومـات سنـة 208هـ(823م)، وقائـل أنهـا لـم تتجـاوز التسعـة عشـر سنـة. غيـر أن سليمـان البـاروني يقـول أنـه حكـم مـن عـام 171هـ إلى عـام 190هـ(805م) سنـة وفاتـه.

وفي عهـد الإمـام عبـد الوهـاب بـدأت **العصبيـة** تتملمـل وتتحـرك؛ استجابـة لمقتـضى طبيعتهـا المتصفـة بالأنانيـة والغضـب. وعلى الرغـم مـن انتمـاء أم عبـد الوهـاب إلى القبيلـة بـني يفـرن الزناتيـة؛ تلـك القبيلـة القويـة النافـذة؛ فإنـه لـم يستطـع كسـب ولاء كـل عشائرهـا؛ إذ وقـف في طريقـه يزيـد بـن فنديـن اليفـرني؛ ذلـك الخصـم العنيـد، المتعصـب لنفسـه ولقبيلتـه. ونتيجـة لهـذا حـدث مـا يعـرف لـدى الإباضييـن بالافتـراق الأول بيـن الإباضييـن. وقـد تطـور الخـلاف بيـن الطرفيـن حـتى وصـل إلى استعمـال السـلاح، وسفـك الدمـاء. وتكـررت الفتـن بينهمـا حـتى اختتمـت بمقتـل يزيـد بـن فنديـن؛ في موقعـة قتـل فيهـا مـا لا يقـل عـن اثـني عشـر ألفـا.

وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[2] كما وضع أبو زكرياء في كتابه فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن – مدة طويلة – قبل أن تتمكن من التغلب

---

[1] السير، ص ص: 88 – 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 – 56.

[2] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت الأعراب؛ يحملونها)). المغرب، ص: 67. أنظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[1] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ـ كما قال البكري ـ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ـ في فصل الواصلية ـ أن فئة منهم

---

[1] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر إليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ـ رضي الله عنه ـ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والآخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:102.

متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[1] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ـ من بعده ـ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[2] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى.

---

[1] الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.

[2] سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ــ 421. 430 ــ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

والسبب ـ على ما يبدو ـ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ـ في قصة طويلة ـ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح ابن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ـ كما يبدو ـ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛

---

[1] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 431. 491 ـ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية ـ بدقة ـ عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد.

ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ـ في الحقيقة ـ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث ابن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

ـ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها.

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ـــ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ـــ 82.**

وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: **"فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون"**. و**"فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار"**.[1]

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: **((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسْوَة قومه في**

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدِّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ـ في حياته إذ ذاك ـ على الضروري من العيش. ولم يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان.

اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته...الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَةِ؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْزِع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بَنَى أوَّلُوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوَّلُوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرْءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ـ 666.

ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ـ هو في ذاته ـ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ـ نتيجة لذلك ـ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم.

ويبدو أنه تم ـ وفي عهد أبي بكر هذا ـ إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية ـ في أواخرها ـ نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية ـ بدءا بعهد أبي بكر هذا ـ في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

---

[1] وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: **26**.

ـ حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:

بويع أبو اليقظان بالإمامة سنة 241هـ خارج تيهرت؛ أثناء الفتنة التي تسبب فيها أخوه أبو بكر. حدث ذلك بعد لجوئه إلى حصن لواتة المحاذي لتسلونت؛ أين ينبع نهر مينا. ولما ولي شئون الدولة عمل من فوره إلى إخماد الفتنة، وعقد صلحا مع بني مسالة الهواريين الذين تغلبوا على تيهرت. هذا وقد لعبت نفوسة دورا هاما في إعادة المياه إلى مجاريها، وتمهيد الأمر لعودة الدولة بقيادة أبي اليقظان. وبالفعل دخل إمام الإباضية من جديد إلى تيهرت؛ بغرض إصلاح ما تصدع، وعلاج ما أفسده الدهر والعباد.

ومع ذلك لم تجد إصلاحات أبي اليقظان في إنعاش هذه الدولة؛ لأن الداء أصبح مزمنا والعلاج مستحيلا. خاصة عندما اتضح أن العامل الديني ـ هو بدوره ـ أخذ مفعوله يتلاشى ويضعف في حياة تلك الدولة. كما أصبحت عصبية البيت المالك فاقدة لتلاحمها وفاعليتها. عندئذ برز الوجه الآخر للعصبية؛ كاشفا عن العيوب، والسلبيات التي كبحها الدين وضبط مفعولها ومؤثراتها من قبل. غير أن بوادر هذا الأمر السلبي بدأت ـ في الحقيقة ـ تظهر منذ عهد الأمير الثاني؛ ولكن الدولة كانت مازالت قوية بعصبيتها، وبمذهبها الديني. ولما حل عهد أبي بكر أخذ التنافس، والتحاسد يهيمنان على كيان التحالف القبلي المساند للدولة.

وهكذا؛ أضحت الخلافات والمؤامرات تحجب ضوء الشمس؛ في سماء الدولة الرستمية؛ وشرع أفراد العائلة المالكة في حبك المؤامرات ضد بعضهم بعضا. ووصل بهم الحال إلى سفك دماء قرابتهم وأهاليهم. وبذلك كتب لهذه الدولة صك فنائها واندثارها.

ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:

لما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ(894م) ولي بعده في منصب الإمامة ولده أبو حاتم يوسف. وكان ـ حين توفي والده ـ خارج تيهرت في مهمة أسندت إليه مع جماعة من قبيلة زناتة؛ تهدف إلى حماية القوافل التجارية. وعلى الرغم من غيابه فقد خرجت العامة في شوارع تيهرت هاتفة باسمه؛ نظرا لما تخصه به من حب وإجلال. ولكنه لم يبق في منصبه أكثر من عام حتى بدأت المصاعب تظهر بوجهها القبيح؛ إذ تحركت بعض المؤامرات التي حاكها جماعة من أصحاب المصالح؛ حيث حرضوا عليه عمه يعقوب بن أفلح. فأغروه بالملك وواعدوه بالوقوف إلى جانبه إن هو ثار على ابن أخيه. وبالفعل تحرك يعقوب محاولا الاستيلاء على سدة الحكم. وظل الصراع بينهما يتصاعد؛ وكان النجاح سجالا بينهما؛ إلى أن قتل أبي حاتم غيلة بأيدي طرف ثالث في الأسرة المالكة؛ وهم أبناء اليقظان أخيه من الأب في سنة

294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـ 45. 47 ـ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـــ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1]

---

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقتعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت

وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله ابن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية**

هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ـ 150.

في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا ابن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلــت كمـــا قـــال النـــواسي قبلهـــا
((عزيـــز علينـــا أن نـــراك تســـيـــر))
فقلــت جفـــاني يوســـف بن محمـــد
فطـــال عـــلي الليـــل وهـــو قـــصيـــر
أبا حاتـــم ما كان ما كـــان بغضـــة
ولكـــن أتـــت بعـــد الأمـــور أمـــــور
فأكرهـــني قـــوم خشيـــت عقابـــهـــم
فداريتهـــم، والدائـــرات تـــــدور
وأكـــرم عفـــو يؤثـــر الناس أمـــره
إذا مـــا عفـــا الإنســـان وهـــو قديـــر

كمـــا قـــال لـــه لمـــا مثـــل بيـــن يديـــه:
مـــاذَا يُدَبـــرُ رَبنـــا فِي أمْـــرِهِ
سُبحانـــهُ فِي أرْضـــهِ وَسمائِـــهِ
رَدَّ المُلـــوكَ إلَى مَحـــلِّ قرَارِهِـــمْ
مُستبْشِرِيـــنَ بِفضلِـــهِ وَعَطائِـــهِ
فتبَـــارَكَ اللـــهُ اللطِيـــفُ بِصنُعِـــهِ
مَا أغفـــلَ الثقليْـــنِ عَـــنْ نِعمَائِـــهِ

رَفَــعَ السمــاءَ بــلاَ عِمَــادٍ بَيــنٍ

وَالبَحــر أمْسَكــهُ عَلَى أرْجائــهِ

لــوْلاَهُ فاضَ عَلَى العِبَــادِ بمَوْجــهِ

وَعَلى الجبَــالِ الرَّاسِيَاتِ بمَائــهِ

أخــذَ البــلاَدَ بِسَيفِــهِ فاسْتَسْلمَــتْ

وَبعَدْلــهِ وَبفضْلِــهِ وَسَخائــــهِ

ومــن شعــر أبي عبــد الرحمــن بكــر بــن حمــاد الزنـــاتي في وصــف البــرد بتاهــرت قولــه:

مَــا أخْشَــنَ البَــرْدَ وَرَيعَانــهُ

وَأطــرَفَ الشمْـــسَ بتاهَــرْتِ

تَبـــدُو مِنَ الغيــمِ إذا مَا بَــدَتْ

كأنهَــا تنشَـــرُ مِــن تخـــتِ

نَحْــنُ فِي بَحْــرٍ بَــلاَ لجَّـــةٍ

تَجْــرِي بِنَا الرِّيــحُ عَلَى السَّمْــتِ

نفــرَحُ بِالشَّمْــسِ إذا مَــا بَــدَتْ

كفرْحَــةِ الــذمِّي بِالسَّــبْـــتِ

ويقــول في تيهــرت بعــد تخريبهــا مــن طــرف الفاطميــن سنــة 296هــ(908م)؛ وهي السنــة نفسهــا الــتي تــوفي فيهــا ابــن حمــاد. فقــال:

زُرنـــا مَنـــازِلَ قـــوْمٍ لمْ يَزُورُونـــا
إنـــا لـــفِي غفلـــةٍ عَمـــا يُقاسونـــا
لو يَنطِقــونَ لقالوا: الزَّاد وَيحَكــمُ
حَلَّ الرَّحِيلُ فمَا يَرْجُــو المُقِيمِينـــا
الموْتُ أجْحَــفَ بِالدُّنيـــا فخرَّبهَـــا
وَفعَلنـــا فِعْــلَ قـــوْمٍ لاَ يَمُوتونـــا
فالآنَ فابكوا فقدْ حَقَّ البُكـــاءُ لكـــمْ
فالحامِلونَ لِعَــرشِ اللـــهِ باكونـــــا
مَاذَا عَسَى تنفـــعُ الدُّنيـــا مُجَمِّعِهَـــا
لوْ كانَ جَمـــعَ فِيهَا كنـــزَ قارُونـــا

ثــم ولــده أبــو زيــد عبــد الرحمــن بــن بكــر بــن حمــاد؛ قــال فيــه ابــن الفــرضي: ((**عبــد الرحمــن بــن بكــر بــن حمــاد التيهــرتي الشاعــر؛ مــن أهــل القيــروان؛ يكــنى أبــا زيــد؛ قــدم الأندلــس. حــدث عــن أبيــه، وكتــب عنــه غيــر واحــد مــن شعــر أبيــه وحديثــه**)).[1] ويقــول ابــن الفــرضي أنــه تــوفي بقرطبــة؛

---

[1] **تاريــخ علمــاء الأندلــس، ص: 268.**

بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكيْتُ عَلَى الأحِبةِ إذْ توَلوْا
وَلوْ أنِّي هَلكتُ بَكوْا عَليا

فيا نسْلي بَقاؤُكَ كانَ ذُخراً
وَفقدِكَ قدْ كوَى الأكبادَ كيا

كفَى حُزناً بِأننِي مِنكَ خلوٌ
وَأنكَ ميتٌ وَبقيتُ حيا

وَلمْ أكُ آيساً فيئسْتُ لمَّا
رَميتُ الترَابَ فوقكَ مِنْ يَدَيا

فليْتَ الخلقُ إذَ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا

تسرُّ بِأشهرٍ تمْضِي سِرَاعاً
وَتطوَي فِي لياليهنَّ طيا

فلاَ تفرَحْ بدنيا ليسَ تبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا

فقدْ قطعَ البَقاءَ غرُوبَ شمسٍ
وَمَطلعها عَلِيٌّ يَا أخيا

وَليــسَ الهــمُّ يجلــوهُ نهـــارٌ

تــدُورُ لــهُ الفرَاقــدُ وَالثرَيـــا

ورثـــاه بقصيــدة أخــرى أيضـــا فقـــال:

وَهــوَّنَ وَجــدِي أننِي بكَ لاَحِــقٌ

وَأنَّ بَقــائِي فِي الحيـــاةِ قليــلُ

وَأنْ ليــسَ يَبــقَى لِلحَبيبُ حَبيبــهُ

وَليــسَ ببـــاقٍ لِلخليــلُ خلِيــلُ

وَلوْ أنَّ طولَ الحــزْنِ مِما يَــرُدُّهُ

للاَزَمـــنِي حــزْنٌ عليـــهِ طوِيــلُ

بلى رُبما دَارَتْ علَى القلبِ لوْعَـــة

فيرجعُهـــا صبَـــرٌ هنـــاكَ جمِيــلٌ

تبـــدَّدَ مَا قدْ كـــانَ مِنـــكَ مُجمعــاً

وَجللـــهُ رَمـــلٌ عليــك مهيـــــلُ

فـــلاَ علـــمٌ يُنبيــكَ أيـــنَ مَحلـــهُ

وَلاَ جَــدَثٌ يُشــفَى عليـــهِ غلِيــلُ

خلاَ أعْظـــمٍ قدْ بـــدِّدَتْ وَمَفاصِـــلٍ

تمِيــلُ بها الأرْيـــاحُ حَيثُ تمِيــلُ

وممن ينسب – أيضا – إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بلغَ الوُشاةُ عَلَيَّ حَيثُ أرَادُوا
وَاللهُ يَسْألهمْ ومَا قدْ كادُوا
وَاللهُ يَعلمُ أننِي مَا قلتُ مَا
قالَ الوُشاةُ تأفكاً وَأعادُوا
فهبِ الوُشاةُ أتوْا بأمرٍ بَينٍ
أينَ الكِرَامُ أبدَّلوا أمْ بادُوا
عفوُ الملوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدَائحٌ
مَدَحوا نفوسَهمُ بها فأجادُوا

ولما وصل إليه خبر – غير مؤكد – بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فلوْ كَافتقادِ الناسِ قبلِي بَيْنهمْ
أتِيحَ لهُ مُوْتٌ وَأضمَرَهُ قبرُ

إِذَنْ لصَبَرْتُ النفسَ ثمَّ احتسبتهُ

لِيعظمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِهِ الأجرُ

وَلَكِنْ طوَتْ عنِّي المَقَادِيرُ أمرَهُ

فمالِي بهِ مِنذُ انتآى شخصُهُ خبرُ

فرَحْمتكَ اللهمَّ قدْ بلَغَ الأسَى

نِهاية مَجهودِي وَقدْ غلِبَ الصَّبرُ

كما كان جل أئمة الدولة – أنفسهم – من العلماء والأدباء. فمؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم؛ يعتبر من كبار علماء الإباضية، كما كان ولوعا بأشغال العمارة، ويباشرها بنفسه؛ وإن اعتبر ما ينجزه منها بسيط المظهر. أما ولده عبد الوهاب فقد عرف بتبحره في العلوم، وولعه الشديد بالكتب؛ إذ تقول المصادر أنه بعث إلى المشرق ألف دينار لشراء الكتب؛ فأرسلت إليه الكتب التي قدرت بأربعين حملا. ويقال أنه كان ضليعا في العلوم الشرعية وعلم الفرائض والتنجيم. أما ولده الإمام أبو سعيد أفلح فكان – بدوره – عالما جليلا في علوم وفنون شتى؛ ومن شعره قصيدة في مدح العلم تصل أبياتها إلى الأربعين؛ منها:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي وإن مات ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا
لله عصبة أهل العلم إن لهم
فضلا على الناس غيابا وحضارا

وتقول المصادر أنه كان بتيهرت الرستمية مكتبة أسمها المعصومة؛ تشتمل على أزيد من ثلاثمائة ألف مجلد؛ انتهى مصيرها إلى النار التي أشعلها في معظم مجلداتها عبد الله الشيعي؛ عندما افتتح تيهرت؛ ولم يأخذ منها سوى ما يناسب مذهبه؛ وما وجد بها من كتب الرياضة والصنائع والفنون.[1] ولو بقيت هذه المكتبة لقدمت للباحثين معلومات وافية عن هذه الدولة الإباضية.

---

[1] وعن الآثار العمرانية لدى الرستميين؛ يقول شارل أندريه جوليان: ((واقتصر الباحثون ـ زمنا طويلا عند تقييم فن بني رستم المعماري ـ على آثار سدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911م. وتدلنا هذه الآثار على أن فنها المعماري متصل بفن إفريقية، وأن زخرفها ينتسب إلى زخرف أديرة الأقباط، وان لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها؛

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ــ حسبما يبدو ــ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما:

ــ أولا: **إمارة بني دمر:** وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ــ في الحقيقة ــ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا

وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة **1941**م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: **1835** و **1841**م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ــ 44.

يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ــ مذهبياً ــ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بموروور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ــ كما يبدو ــ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة. أما الإمارة الإباضية الثانية:

ــ فهي **إمارة بني مسالة الهواريين:** وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ــ أيضا ــ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ــ بالقرب من بلدة **يلل ــ بقلعة هوارة**. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛

بينما ساعدتهم الظروف على إقامتها ببلاد الأندلس؛ خلال الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية.

****

4)ـ دولة بني برزال:

قامت هذه الدولة في بلاد الأندلس؛ وذلك بعد أن أعلن البرزاليون قيامها في بلدة **قرمونة**؛ التي اتخذوها عاصمة لهم. هذا وقد نشأت هذه الإمارة الأمازيغية ـ ذات المذهب الخارجي ـ بعد انهيار الدولة الأموية، وانقسام بلاد الأندلس بين شلة من الأمراء، وبعض القبائل العربية والأمازيغية، وجماعات مختلفة من المولي والمماليك؛ وذلك في الفترة المعروفة بعصر الطوائف. وكانت هذه الدولة إباضية المذهب؛ حسبما ذكر كل من: ابن حيان وابن الخطيب.

ويرجع وجود بني برزال في بلاد الأندلس إلى عهد المستنصر الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ تولى من عام 350هـ (961م) إلى عام 366هـ(976م) ـ . وحدث ذلك بسبب وساطة قام بها حليفهم؛ عامل الفاطميين على المسيلة جعفر ابن علي بن حمدون؛ بعد تمرده وهروبه إلى الأندلس؛ فاستأذن لهم من الخليفة الأموي في الانتقال إلى الأندلس؛ فأذن لهم مرحبا بمقدمهم؛

بغرض الاستعانة بهم في حروبه. ويبدو أن السبب الرئيس في ترحيب المستنصر بهم؛ هو ما عرف عنهم من عداوة وبغضاء يكنانهما للشيعة الفاطميين. وكما هو معروف؛ فهؤلاء الفاطميين هم أخطر المنافسين وأشدهم شراسة للدولة الأموية في تلك الأنحاء. ومنذ ذلك التاريخ أضحى البرزاليون جندا في خدمة الدولة الأموية. بل أصبحوا من أقرب المقربين إلى الخليفة؛ إذ كانت لهم حظوة خاصة، نظرا للثقة التي خصهم بها. ولما استبد المنصور ابن أبي عامر على الخليفة هشام؛ بالغ في تكريم البرزاليين مع الوافدين من أمراء القبائل الأمازيغية الأخرى؛ إذ قربهم إليه وخصهم بالإقطاعيات والقيادات.[1]

[1] يقول ابن خلدون: ((ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على الخليفة هشام؛ وتوقع النكير من رجالات الدولة، وموالي الحكم؛ استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض عليهم الإحسان؛ فاعتز أمره واشتد أزره؛ حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه... فأضحوا له عصبة؛ وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...؛ فولاه قرمونة وأعمالها؛ فلم يزل واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة؛ ووليها من بعده ابنه عبد الله)). العبر، مج: 7 ص: 112.

وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون – بعدئذ – محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة

---

[1] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان ابن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول آخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ـ منذ تلك الفترة ـ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

هذا حال بني برزال يوم ظهورهم بالأندلس. أما فيما يخص أصولهم؛ فالمصادر تتفق كلها على أنهم بطن من بطون بني دمر الزناتيين. وكانت مواطنهم الأولى في جبل سالات؛ بجهات المسيلة حاضرة الزاب آنئذ. وكانت أعدادهم وافرة، وسطوتهم قاطعة؛ ونفوذهم واسعا في تلك الجهات. كما كانوا ـ كما يقول ابن خلدون ـ نكارية من الخوارج. ومن أتباع أبي يزيد مخلد بن كيداد؛ حيث ناصروه وحموه حين ثار على الدولة الفاطمية. ولما ضاقت به الحال هرب إليهم في جبل سالات؛ فوفروا له المأوى والحماية بعض الوقت. ولكنهم عادوا إلى طاعة الدولة الفاطمية عندما فشلت مقاومتهم، ويئسوا من جدوى المدافعة؛ خاصة بعد موت أبي يزيد. ومنذ ذلك التاريخ أضحوا في خدمة جعفر بن علي والي المسيلة. ولما ساءت علاقة جعفر بالدولة الفاطمية سنة 360هـ(970م) انحاز بنو برزال إليه وحالفوه. لذلك تكلم في أمرهم إلى الحكم المستنصر؛ فوافق على استدعائهم إلى بلاد الأندلس؛ أين ألحقهم بجنده؛ مثلهم مثل بقية القبائل الأمازيغية التي التحقت بالدولة الأموية.

وقد اشتهر من أمراء دولة بني برزال بالأندلس محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي.[1] ثم خلفه ـ في بعض الأقوال ـ ابنه إسحاق؛ الذي يقال أنه كان عظيم الشأن، عزيز الجانب، شديد الدهاء، حاد الذكاء.[2] أما تاريخ نشأة هذه الإمارة واستبداد أمرائها ـ بصفة نهائية ـ فيعود حسب جل المصادر إلى سنة 404هـ(1013م)؛ إذ تم ذلك بفضل العزيمة التي كان يتحلى بها كل فرد من

---

[1] وفيه أقوال كما سبق ذكره. أما ابن الخطيب فيقول: ((وكان هذا الرئيس يلي باديس ـ من ملوك البرابرة ـ في جلالة الشأن، وقوة السلطان؛ بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشا على الخطوب المقلقة. وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال؛ لم يزل يجمعها؛ حائطا لها بالبخل الشديد، واستظهارا بها على الخطب العتيد... وتوفي رئيسهم [رئيس بني برزال] محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من الطعام؛ لم يجمعه أمير قبله في الفتنة. وصار أمره إلى ولده إسحاق)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 237.

[2] وهو كما يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان: ((ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه؛ وهو في حد الكهولة. كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية؛ يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئا من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة. وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهَبُ منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة؛ مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب النكاريين من فرق الإباضية الخوارج؛ يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسع أنظر أيضا البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 237 ـ 239. ودول الطوائف، ص ص: 146 ـ 149.

قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ــ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ــ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2]

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ــ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ــ 238.

وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[1] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ459 هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 113.**

عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق – هنا – إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة – في إيجاز – للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

****

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة – في هذا المجال؛ ولو باقتضاب – إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث – أيضا – عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرون. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية ـ بعض الوقت ـ بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها ـ كما يبدو ـ لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا ـ بالضرورة ـ من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد

سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ــ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: ((**من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد**))[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ــ يزيد بن عبد الملك ــ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3]

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.

[2] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ــ واليا عليها ــ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ــ أعني حرسه ــ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ــ لصلاة الصبح ــ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ــ 100.

[3] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ــ فيما ذكر ــ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم

ونتيجة لذلك استقام الحال – بعض الوقت – وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت – بعد ذاك – ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين – نهائيا – في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب – الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) – حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان

ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

المغـــرب مـــن شحنـــات مدمـــرة.[1] ويبـــدو أن الأوضـــاع العامـــة كانـــت جاهـــزة للانفجـــار؛ ولـــم يبـــق ســـوى الشـــرارة الـــتي ستشعـــل الفتيـــل.[2]

ونتيجـــة لهـــذا فقـــد دخلـــت بـــلاد المغـــرب عهـــدا جديـــدا قاتمـــا؛ ســـادت فيـــه الثـــورات، الـــتي تسببـــت في تقلـــص نفـــوذ الخلافـــة الأمويـــة، وتراجعـــه. وأصبحـــت البـــلاد ــ منـــذ ذلـــك التاريـــخ ــ مقسمـــة بيـــن القبائـــل الأمازيغيـــة المختلفـــة؛ الـــتي استطاعـــت ــ في ظـــل الوضـــع المتـــردي ــ الخـــروج عـــن نفـــوذ الدولـــة الأم؛

---

[1] وفيـــه يقـــول ابـــن عـــذاري: ((ثـــم إن عمـــر بـــن عبـــد اللـــه المـــرادي ــ عامـــل طنجـــة ومـــا والاهـــا ــ أســـاء السيـــرة، وتعـــدى في الصدقـــات والعشـــر؛ وأراد تخميـــس البربـــر. وزعـــم أنهـــم فيء المسلميـــن؛ وذلـــك مـــا لـــم يرتكبـــه عامـــل قبلـــه؛ وإنمـــا كـــان الـــولاة يخمســـون مـــن لـــم يجـــب للإســـلام. فكـــان فعلـــه الذميـــم هـــذا سببـــا لنقـــض البـــلاد، ووقـــوع الفتـــن العظيمـــة المؤديـــة إلى كثيـــر القتـــل في العبـــاد. نعـــوذ باللـــه مـــن الظلـــم؛ الـــذي هـــو وبـــال عـــلى أهلـــه)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 51 ــ 52. أنظـــر عـــن هـــذا ــ أيضـــا ـــ تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 100. والكامـــل لابـــن الأثيـــر، ج: 4، ص: 222. والعبـــر، مج: 4، ص: 405.

[2] وقـــد أشـــار ابـــن خلـــدون إلى بعـــض الأسبـــاب الـــتي شحنـــت النفـــوس، وأغضبـــت النـــاس مـــن ولاة الدولـــة الأمويـــة؛ إذ قـــال: ((ولمـــا ولي عبيـــد اللـــه بـــن الحبحـــاب عـــلى إفريقيـــة؛ مـــن قبـــل هشـــام بـــن عبـــد الملـــك... استعمـــل عمـــر بـــن عبـــد اللـــه المـــرادي عـــلى طنجـــة والمغـــرب الأقـــصى، وابنـــه إسماعيـــل عـــلى الســـوس ومـــا وراءه. واتصـــل أمـــر ولايتهـــم، وســـاءت سيرتهـــم في البربـــر، ونقمـــوا عليهـــم أحوالهـــم، ومـــا كانـــوا يطالبونهـــم بـــه مـــن الوصائـــف البربريـــات، والأفريـــة العسليـــة الألـــوان، وأنـــواع طُـــرف المغـــرب؛ فكانـــوا يتغالـــون في جمعهـــم ذلـــك وانتحالـــه. حـــتى كانـــت الصرمـــة مـــن الغنـــم تستهلـــك في الذبـــح؛ لاتخـــاذ الجلـــود العسليـــة مـــن سخالهـــا؛ ولا يوجـــد فيهـــا مـــع ذلـــك إلا الواحـــد ومـــا قـــرب منـــه. فكثـــر عيثهـــم بذلـــك في أمـــوال البربـــر وجورهـــم عليهـــم)). العبـــر، مج: 6، ص ص: 239 ــ 240.

وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ــ مجازا ــ إمارة مثل:

ــ **إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري:** يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر ابن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ــ بعد

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم ــ أو كلفوه ــ أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلك – إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية – دون تفسير أيضا – عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه – أيضا – جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

---

[1] ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل – وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم – ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم

ـ إمارة خالد بن حميد الهتوري الزناتي الصفري:

وبعد أن قتل ثوار الصفرية قائدهم ميسرة المطغري في سنة 122هـ(739م)؛ أسندوا قيادتهم إلى خالد بن حميد الزناتي؛ الذي ينتمي إلى بطن من زناتة يسمى هتورة. فتولى أمرهم بجدارة واقتدار؛ إذ قادهم في معارك ضد الأمويين؛ برهن فيها على قدرات عسكرية كبيرة. افتتح انتصاراته بالهزيمة التي ألحقها بجيش الأمويين في الموقعة المسماة غزوة الأشراف.[1] وكانت تلك الهزيمة ضربة شديدة المفعول؛ بحيث هزت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأغضبته إلى أبعد الحدود؛ فلم يتمالك نفسه حين قال بعصبية عربية واضحة: ((**والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا**

الرياسة لأهلها... ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ــ 599.

[1] قال ابن الأثير في ذلك: ((ثم التقى خالد بن حميد [الزناتي] ــ ومعه البربر ــ خالد بن حبيب [الفهري] ــ ومعه العرب وعسكر هشام ــ وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب؛ وظهر عليهم كمين من البربر؛ فانهزموا؛ وكره خالد بن حبيب [الفهري] أن ينهزم من البربر؛ فصبروا معه؛ فقتلوا جميعهم؛ وقتل في هذه الوقعة حماة العرب وفرسانها؛ فسميت وقعة الأشراف؛ فانتقضت البلاد، ومرج أمر الناس؛ وبلغ أهل الأندلس الخبر؛ فثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن؛ فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب للقيرواني، ص ص: 100 ـــ 101.

أولـــه عندهــم وآخــره عنــدي. ثــم لا تركــت حصــنَ بربــري إلا جعلــت إلى جانبــه خيمــة قيــسي أو تميــمي)).[1]
وهكــذا لا تخلــو قولتــه هــذه ــ طبعــا مــن عاطفــة ونزعــة مفعمــة برواســب العصبيــة العربيــة المعهــودة في بــني أميــة:

وكانــت معركــة الأشــراف إشــارة خطيــرة لبــني أميــة؛ كــان مــن المفــروض تداركهــا بعــلاج سليــم يسمــح بــلأم الجــراح وشفــاء النفــوس العليلــة؛ ولكــن غضــب الخليفــة لــم يتــرك لــه مجــالا لإصــلاح مــا فســد. وعليــه فيمكــن اعتبــار ردود أفعــال الخليفــة هشــام بمثابــة الخطــوة الخطيــرة؛ الــتي أدت إلى خــروج مناطــق كثيــرة مــن بــلاد المغــرب ــ الأقــصى والأوســط ــ عــن النفــوذ الأمــوي نهائيــا. هــذا بالإضافــة إلى مــا حــدث مــن عصيــان في بــلاد الأندلــس. تلــك الديــار الــتي ثــار بهــا ــ أيضــا ــ جمــع مــن الأمازيــغ ومــن العــرب كذلــك؛ أولئــك العــرب الذيــن كانــت تتقاذفهــم الصراعــات القبليــة؛ بيــن يمنيــة وقيسيــة. الأمــر الــذي حــال دون أن تتمكــن أي عصبيــة مــن التغلــب عــلى العصبيــات والقبائــل الأخــرى المنتشــرة في ربــوع الأندلــس الواسعــة.

---

[1] تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 111. والكامــل في التاريــخ، ج: 4، ص: 223. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 54.

وهـذا يؤكـد مـا فسـره ابـن خلـدون في الفقـرات السابقـة؛ الـتي تتكلـم عـن ضـرورة تغلـب أحـد العناصـر عـلى بقيـة العناصـر لـكي يتحقـق المـزاج في المتكـون.[1]

وحـتى الجيـش الـذي بعـث بـه الخليفـة الأمـوي هشـام بـن عبـد الملـك ــ بقيـادة كلثـوم بـن عيـاض القشيـري ــ سنـة 123هـ (740م)؛ بهـدف تأديـب الأمازيـغ؛ أضـحى ــ في حـد ذاتـه ــ عامـل فرقـة لصفـوف العـرب؛ أكثـر مـن أن يكـون عامـل وحـدة والتحـام. إذ بمجـرد وصـول طليعـة ذلـك الجيـش العـربي ــ الـتي كـان عـلى رأسهـا بلـج بـن بشـر القشيـري (ابـن عـم الوالي الجديـد كلثـوم بـن عيـاض القشيـري) ــ إلى القيـروان؛ حـتى انقسـم النـاس بيـن عـرب استوطنـوا القيـروان مـن قبـل؛ وعـرب وفـدوا إليهـا حديثـا. فهـا هـو بلـج بـن بشـر يستفـز النـاس بعنجهيتـه، وبعصبيتـه القيسيـة الحمقـاء؛ حيـن أراد ــ بكـل صفاقـة وغـرور ــ إنـزال عساكـره في منـازل أهـل المدينـة. حيـث تفـوه بكـلام أغضبهـم ــ كمـا جـاء في المصـادر ــ فبعثـوا شكواهـم إلى حبيـب بـن أبي عبيـدة بـن عقبـة بـن نافـع الفهـري؛ الـذي كـان مرابطـا في مواجهـة الأمازيـغ بتلمسـان. فكتـب إلى كلثـوم بـن عيـاض يقـول لـه: ((**إن ابـن عمـك السفيـه قـال كـذا وكـذا. فارحـل بعسكـرك عنهـم؛ وإلا حولنـا**

---

[1] أنظـر المقدمـة، ج: 2، ص ص: 598 ــ 599.

أعنـــة الخيـــل إليـــك)).[1] فســـارع كلثـــوم بـــن عيـــاض إلى الاعتـــذار لحبيـــب؛ وضـــرب لـــه موعـــدا في شلـــف. غيـــر أن كلثـــوم بـــن عيـــاض تمـــادى في سلوكـــه الخـــاطئ؛ إذ أن سكوتـــه عـــن حماقـــة بلـــج؛ شجعـــه عـــلى معـــاودة تهـــوره؛ حيـــن اشتبـــك ــ أيضـــا ــ مـــع حبيـــب عنـــد التقائهمـــا بشلـــف.[2] هـــذه هي العصبيـــة عندمـــا تصبـــح قاتلـــة ومدمـــرة. إذ انتـــهى الحـــال بالعـــرب إلى هزيمـــة أفظـــع مـــن الأولى؛ حيـــث كـــان الخـــلاف بينهـــم شديـــدا، والشنـــآن يقســـم صفوفهـــم؛ فـــلا يتفقـــون عـــل خطـــة، ولا يجتمعـــون عـــلى رأي سليـــم.[3]

---

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 54. أنظـــر أيضـــا الكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 123. والعبـــر، مج: 4، ص: 406.

[2] وقـــد أورد ابـــن عـــذاري نصـــا مهمـــا يشـــرح مـــا دار بيـــن الطرفيـــن. وهـــذا النـــص التاريـــخي يفســـر الحـــال المزريـــة؛ الـــتي أضـــحى عليهـــا العـــرب في ديـــار المغـــرب. فممـــا قالـــه: ((فاستخلـــف كلثـــوم عـــلى القيـــروان عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري؛ وســـار حـــتى وصـــل عسكـــر حبيـــب فرفضـــه، واستهـــان بـــه؛ وســـب بلـــج بـــن بشـــر لحبيـــب وتنقصـــه؛ وقـــال: "هـــذا الـــذي يحـــول أعنـــة الخيـــل إلينـــا"؛ فقـــام إليـــه عبـــد الرحمـــن بـــن حبيـــب؛ وقـــال: "يـــا بلـــج! هـــذا حبيـــب! فـــإذا شئـــت؛ فأعـــرض لـــه للمقابلـــة!" وصـــاح النـــاس: "الســـلاح! الســـلاح!" فمـــال أهـــل إفريقيـــة إلى ناحيـــة، ومعهـــم أهـــل مصـــر. ثـــم ســـعى بينهـــم في الصلـــح. فكـــان هـــذا الاختـــلاف سبـــب هلاكهـــم؛ مـــع ســـوء رأي كلثـــوم وبلـــج)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 54 ــ 55. أنظـــر أيضـــا تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 113.

[3] شـــرح ابـــن الأثيـــر مـــا جـــرى بقولـــه: ((وتقـــدم إليهـــم البربـــر مـــن طنجـــة؛ فقـــال لهـــم حبيـــب: "اجعلـــوا الرجالـــة للرجالـــة، والخيالـــة للخيالـــة؛ فلـــم يقبلـــوا منـــه؛ وتقـــدم كلثـــوم بالخيـــل؛ فقاتلـــه رجالـــة البربـــر فهزمـــوه؛ فعـــاد كلثـــوم منهزمـــا؛ ووهـــن النـــاس ذلـــك؛ ونشـــب القتـــال، وانكشفـــت خيالـــة البربـــر، وثبتـــت رجالتهـــا؛ واشتـــد القتـــال، وكثـــر البربـــر عليهـــم؛ فقتـــل كلثـــوم بـــن عيـــاض، وحبيـــب بـــن أبي عبيـــدة،

وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج ابن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ـ بعد ذاك ـ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ـ في الشام ثم بغداد بعدئذ ـ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ـ منذئذ ـ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ـ من صفرية وإباضية ـ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة

ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ــ فجأة ــ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

ــ إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري:

ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] ــ كما يظهر من اسمه ــ وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم ــ رفقة أخيه ــ إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة ــ في ظروف غامضة ــ قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ.

---

[1] أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه إلى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص: **114**.

وربما رجع السبب إلى ما تفرضه سنن العصبية؛ التي لا يستهويها سوى الانتساب المطلق إليها؛[1] ولما كان عكاشة من المنتسبين إلى العرب فقد قل أنصاره، وضعفت شوكته. غير أن عاملي: الدين والمذهب ساعداه ـ شيئا ما ـ في جمع بعض الفئات الزناتية الساخطة على الحكم الأموي. ومع ذلك لا يكفي العامل الديني والمذهبي وحده؛ إذ لا بد من توفر شرط العصبية؛ كما قال ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[2] المهم أنه انطلق بثورته في جهات قابس؛ منتهزا فرصة خروج كلثوم بن عياض بالجند إلى طنجة. وكان كلثوم قد استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعقد لمسلمة بن سوادة القرشي لواء الحرب فيها. فبدأ عكاشة حركته بإرسال أخيه إلى (صبرة) قصد تعبئة عشائر زناتة ـ في تلك الجهات ـ والعمل على التغلب عليها.

---

[1] يقول ابن خلدون ضمن: "فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم" ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب؛ إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبته)). المقدمة، ج: 2، ص: 599.

[2] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـ 642.

وبالفعـــل تمكـــن أخـــو عكاشـــة مـــن جمـــع أعـــداد كبيـــرة مـــن الزناتييـــن؛ الذيـــن حاصـــر (**صبـــرة**) بهـــم؛ إلا أن عامـــل طرابلـــس صفـــوان بـــن مالـــك تفطـــن للخطـــر المداهـــم؛ فســـارع إلى الخـــروج إليـــه؛ أيـــن تمكـــن مـــن التغلـــب عليـــه؛ وأجبـــره عـــلى الانهـــزام إلى حيـــث أخيـــه في جهـــات قابـــس. وكـــرد فعـــل غيـــر مـــدروس خـــرج مسلمـــة بـــن ســـوادة في جيـــش مـــن القيـــروان؛ قصـــد تأديـــب عكاشـــة الفـــزاري في قابـــس؛ ولمـــا التـــقى الجمعـــان حلـــت الهزيمـــة بمسلمـــة بـــن ســـوادة؛ حيـــث قتـــل مـــن أتباعـــه عـــدد كبيـــر؛ فعـــاد إلى القيـــروان منهزمـــا؛ وهنـــاك عزلـــه عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري، وكلـــف بـــدلا منـــه سعيـــد بـــن بجـــرة الغســـاني؛ فاختـــاروا التحصـــن خلـــف أســـوار القيـــروان خوفـــا مـــن عكاشـــة.[1]

وبقيـــت الحـــال ــ بيـــن عكاشـــة وعمـــال الدولـــة الأمويـــة في القيـــروان وطرابلـــس ــ متشنجـــة ومضطربـــة؛ اضطـــر فيهـــا عكاشـــة إلى شـــن حـــرب عصابـــات عليهـــم ــ انتصـــر فيهـــا حينـــا وانهـــزم حينـــا آخـــر ــ ومـــن نتائجهـــا قتـــل عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري؛ الـــذي وجهـــه لقتـــال عكاشـــة والي إفريقيـــة الجديـــد حنظلـــة بـــن صفـــوان الكلـــبي؛ الـــذي قـــدم إليهـــا في ســـنة 124هــ(741م).[2]

---

[1] **فتـــوح مصـــر والمغـــرب، ص ص: 294 ـــ 295.**

[2] **نفســـه، ص: 298.**

وكان حنظلة بن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر — في الأفق — قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد ابن يزيد الهواري — سيأتي الحديث عنه لاحقا — حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه.

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 — 299.

وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ــ حنظلة بن صفوان ــ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فرّ؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[1] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

---

[1] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.

ـ إمــارة عبــد الواحــد بــن يزيــد الهــواري الصفــري: كــان ظهــوره الأول في شــرق طرابلــس؛ حيــث استنجــد بــه عكاشــة؛ في قتالــه ضــد عبــد الرحمــن بــن عقبــة. ولمــا انتصــرا في الموقعــة الــتي قتــل فيهــا عبــد الرحمــن؛ اتفــق الاثنــان علــى الذهــاب إلى المغــرب الأوســط؛ لــكي يبحثــا عــن أنصــار جــدد، ويحرضــا الصفريــة فيــه علــى احتــلال مركــز الولايــة الأمويــة بالقيــروان. وبالفعــل تمكــن الاثنــان مــن جمــع أعــداد كبيــرة مــن المتحمسيــن للقضــاء علــى الحكــم الأمــوي وإزالتــه مــن ديــار المغــرب. وقبــل انطــلاق المتحالفيــن مــن منطلقهــم في ناحيــة مــن نــواحي الــزاب؛ وضعــوا خطــة محكمــة؛ ربمــا كانــت كفيلــة بنجــاح مسعاهــم ــ لــو طبقــت بدقــة ــ إذ تقتــضي الخطــة أن يزحــف جيشــان إلى القيــروان: الأول بقيــادة عكاشــة؛ مــن جهــة الجنــوب؛ والثــاني بقيــادة عبــد الواحــد؛ مــن الشمــال؛ علــى أن يلتقيــا في وقــت واحــد حــول القيــروان؛ وبذلــك يكونــان كماشــة تنقــض علــى عدوهمــا؛ فيعجــز عــن المقاومــة ويسقــط فريســة بيــن أيديهــم.

وبالفعــل انطلــق عكاشــة عبــر السهــول الممتــدة جنــوب الأوراس؛ في اتجــاه تبســة وباجــة ثــم القيــروان. أمــا عبــد الواحــد فقــد زحــف مــن الشمــال؛ عبــر المناطــق الجبليــة[1] الصعبــة؛ الــتي كانــت كفيلــة بتعطيــل حركتــه؛ كمــا أنــه ــ بسعيــه لجمــع متطوعيــن جــدد

---

[1] تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 116. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 58.

من القبائل الأمازيغية ــ زاد في ثقل حركته وبطء سيره. ولكنه استفاد إذ حقق نجاحات معتبرة؛ عندما التحق به عدد كبير من أبناء تلك القبائل. وقد ــ تمكن في خط سيره ــ من احتلال مدينة باجة؛ أين اشتبك ــ هناك ــ مع جيش القيروان مرات عديدة؛ حالف النصر فيها عبد الواحد. وبعدها انتقل عبد الواحد إلى تونس فدخلها منتصرا. وفي الأخير زحف إلى القيروان؛ حيث وصله خبر هزيمة حليفه عكاشة؛ بعد أن خالف الخطة المتفق عليها؛ إذ انتهز فرصة تعطل عبد الواحد؛ فسولت له نفسه الانفراد باحتلال القيروان؛ الأمر الذي سيساعده على التفوق عليه؛ وبذلك يمكنه تعديل الكفة؛ التي مالت إلى صالح حليفه ومنافسه عبد الواحد؛ بحكم امتلاكه لعامل العصبية الأمازيغية؛ تلك العصبية التي يفتقر إليها عكاشة.

وبعد سماع عبد الواحد بهزيمة عكاشة، والتأكد من مقتله؛ اضطر إلى خوض المعركة بجيشه منفردا. وبالفعل حدثت المعركة الكبرى الفاصلة؛ في موضع يبعد عن القيروان بثلاثة أميال تقريبا؛ يسمى (الأصنام). وكانت معركة مهولة؛ حالف النصر فيها حنظلة بن صفوان؛ حيث تمكن جيشه من قتل آلاف من الصفرية؛ بما فيهم عبد الواحد بن يزيد نفسه؛ وذلك في سنة 125هـ(742م).

هـذا وتجـدر الإشـارة أن أهـل القيـروان تمكنـوا مـن النصـر؛ بفضـل شعورهـم بوحـدة المصيـر، وبفضـل المجهـودات الـتي بذلهـا علمـاء المدينـة؛ حيـث كثفـوا نشاطهـم في الدعـوة إلى القتـال، وحـث النـاس عـلى المقاومـة، إذ حذروهـم مـن مغبـة الفرقـة أو التهـاون والخـذلان؛ كمـا ذكروهـم بمـا قـد يلحـق بهـم وبنسائهـم مـن طـرف الصفريـة؛ الذيـن يستحلـون سـبي المسلمـات، ويجيـزون استعبـاد الأبنـاء؛ كمـا يبيحـون سفـك دمـاء المسلميـن مـن أطفـال وشيـوخ. وبالفعـل حققـت دعوتهـم نجاحـات كبيـرة؛ إذ حميـت همـم النـاس؛ فكسـروا أجفـان سيوفهـم؛ وخرجـوا للقتـال ومعهـم نساؤهـم يحرضـنهـم ويشحـذن هممهـم. ونتيجـة لتلـك العوامـل النفسيـة؛ تمكنـوا[1] مـن التغلـب عـلى الصفريـة؛ وفتكـوا بهـم فتكـا عظيمـا؛ عـلى الرغـم مـن قلـة عددهـم؛ وكثـرة أعـداد أعدائهـم.

ـ إمـارة ثابـت بـن وازيـدون الصنهـاجي الصفـري: لا يعـرف عـن هـذا الرجـل مـا يمكـن بـه تكويـن فكـرة واضحـة عنـه؛ إذ يكتنـف أخبـاره غمـوض كثيـف؛ ويبـدو أنـه كـان مـن أتبـاع عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـواري الصفـري؛ ولـم تذكـر المصـادر التاريخيـة عنـه سـوى خبـر ثورتـه في باجـة، وتغلبـه عليهـا سنـة 130هـ(747م)؛ في أيـام عبـد الرحمـن بـن حبيـب

---

[1] تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 119 ـ 122.

الفهري ـ الذي عزل حنظلة وافتك منه القيروان ـ وبعدها صمتت المصادر ـ نهائيا ـ عن الحديث في شأن ثابت الصنهاجي هذا؛ ولم تشر إن كان قد فر حيا أم قتل.

ـ إمارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهاصي الصفري:
لقد ترك هذا الرجل ـ وأخوه المدعو مكرم ـ أثرا سيئا في تاريخ إفريقية والمغرب؛ نتيجة للفظائع وللوحشية التي ارتكبها هو وأتباعه من صفرية ورفجومة في القيروان سنة 138هـ(755م). ويقول فيه ابن الأثير: ((**وكان مقدم ورفجومة رجلا اسمه عاصم بن جميل؛ وكان قد ادعى النبوة والكهانة؛ فبدل الدين، وزاد الصلاة، وأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الأذان... ودخل عاصم ومن معه القيروان. فاستحلت ورفجومة المحرمات؛ وسبوا النساء والصبيان؛ وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه**)).[1] وذكر ابن خلدون؛ اسم رجل آخر كان بين المرافقين لعاصم بن جميل ـ في

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 280. أما القيرواني فيقول: ((ودخلت ورفجومة القيروان؛ فاستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم؛ نزل عاصم ـ بعسكره ـ في الموضع الذي يسمى (مصلى روح) واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النفزي... ولما حكمت ورفجومة على القيروان؛ قتلوا من كان بها من قريش، وساموهم العذاب؛ وربطوا دوابهم في المسجد الجامع)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 141.

زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

ـ أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي.
ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

ـ إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري:
قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

ـ إمـارة عبـد الملـك بن سكرديـد الصنهـاجي الصفـري: هكـذا سمـاه ابـن عـذاري؛ ولا يعـرف عـن هـذا القائـد الصفـري؛ سـوى أنـه كـان يقـود ألفيـن مـن الصفريـة؛ خـلال حصارهـم ـ ضمـن الحلـف الصفـري الإبـاضي ـ لعمـر بـن حفـص بـن قبيصـة والي إفريقيـة؛ بمدينـة طبنـة حاضـرة الـزاب في سنـة 153هـ(770م). غيـر أن ابـن خلـدون سمـاه عبـد اللـه بـن سكرديـد؛ وقـال أنـه أحـد أمـراء الصفريـة الصنهاجييـن؛ ومـن أتبـاع ثابـت ابـن وازيـدون الصنهـاجي المذكـور آنفـا.

ـ إمـارة أبي قـرة بـن دونـاس اليفـرني الصفـري: ينسبـه بعضهـم إلى مغيلـة؛ غيـر أن المحققيـن مـن المؤرخيـن ينسبونـه إلى بـني يفـرن.[1] وكـان أول ظهـور لهـذا الرجـل ـ في مسـرح الأحـداث بشكـل واضـح ـ أثنـاء زحـف عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـوري إلى القيـروان؛ حيـث ذكـرت الأخبـار أن عبـد الواحـد جعلـه عـلى رأس مقدمـة جيشـه.[2] وإن كـان ـ في الحقيقـة ـ مـن بيـن زعمـاء الصفريـة؛ المتحالفيـن في السابـق مـع ميسـرة المطغـري؛ إلا أنـه لـم يلفـت نظـر المؤرخيـن.

---

[1] العبـر، مج: 7، ص: 24.

[2] فتـوح مصـر والمغـرب، ص: 299. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 58.

ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري ــ مع عكاشة ــ إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب ــ مرة أخرى ــ دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد ــ عند ذلك ــ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ــ أو الخلافة ــ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ـ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ـ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص بن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ـ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ـ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ـ أبي قرة ـ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

[2] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ـ بالطبيعة الإنسانية ـ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة بشيء؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما

عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص 609.

[1] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"نصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.

[2] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوما. [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه])). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.

حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل في القيروان. لأن أبا قرة ـ كما يبدو ـ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ـ إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري:[1]
كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛ منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير ابن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

---

[1] سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر، مج: 6، ص: 226. وفي موضع آخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.

ـ إمارة أبو زرجونة الورفجومي الصفري:
ظهر في عهد والي إفريقية يزيد بن حاتم بن المهلب؛ حيث ثار مع عشيرته ورفجومة ضد السلطة المركزية؛ فأرسل إليهم يزيد بن حاتم ـ والي إفريقية ـ قوة بقيادة ابن مجزأ المهلبي؛ ففشل في مواجهتهم؛ وقتل في المعركة عدد من جند القيروان. فعاود يزيد بن المهلب ـ في سنة 156هـ(772م) ـ إرسال قوة أخرى؛ على رأسها ولده المهلب، ويزيد بن العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي؛ فتغلب على ورفجومة واجتثهم، وطارد مقاتليهم في كل جهة.[1] هذا ولم يعرف مصير أبي زرجونة الورفجومي بعد هذه الموقعة.

ـ إمارة عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري:
ظهر هذا الرجل في جبال ويلان بعمالة فاس؛ في العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة. وبذلك تكون الصفرية قد حولت ثوراتها وحروبها من إفريقية والقيروان؛ إلى ديار المغرب الأقصى؛ حيث توجد الدولة الإدريسية. ولم تأت المصادر بما يفيد عن هذا الثائر شيئا كافيا؛ أكثر من اسمه المقتضب، ومنطلق ثورته. حيث اكتفت معظم المصادر بالقول عنها: أنها انطلقت من جبل

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ــ 162.

مديونة.[1] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ـ ولو باحتشام ـ هو على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ـ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ـ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياثة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ـ بنواحي مديونة ـ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ـ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ـ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة

---

[1] أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ـ 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ـ 209. والعبر، مج: 4، ص: 30.

الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ – بعد ذلك – انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

استطاعوا ـ باعتدالهم وثباتهم ـ استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت ـ فيما بعد ـ لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

***

ـ إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي:

ظهر ـ لأول مرة ـ اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة

126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: 33.

الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

ـ إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[1]
أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[2] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[2] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ــ حين اجتمعت ــ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ــ القسم الأول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 411.

فيفهـم مـن رواياتهـم أن الحـارث وعبـد الجبـار كانـا يحكمـان النـاس حكمـا جماعيـا. ومـع هـذا فهـم يقدمـون اسـم الحـارث عـلى اسـم عبـد الجبـار؛ إذ يكتبـون في سيـاق الحديـث: ((**الحـارث وعبـد الجبـار**)).

أمـا نسبهمـا فيكتنفـه بعـض الغمـوض أيضـا؛ لأن كلمـتي: حضـرمي، ومـرادي؛ لا تعنيـان ـ بالضـرورة ـ الانتسـاب إلى حضرمـوت أو لقبيلـة مـراد اليمنيـة؛ إذ ربمـا كانـت الكلمتـان ترميـان إلى الانتمـاء بالـولاء لقبيلـة مـن قبائـل حضرمـوت أو لقبيلـة مـراد. المهـم أن القيـرواني يصـرح بأنهمـا مـن الأمازيـغ؛[1] ويسايـره في ذلـك ابـن خلـدون الـذي يقـول أنهمـا مـن هـوارة.[2] أمـا سليمـان البـاروني فيقـول: ((**والظاهـر أن عبـد الجبـار هـو الإمـام والحـارث وزيـره أو قاضيـه. وهمـا إخـوان لأم أو أبنـا خالـة؛ وقبيلتهمـا هـوارة**)).[3]

---

[1] يقـول القيـرواني: ((وخـرج بناحيـة طرابلـس رجـلان؛ يقـال لأحدهمـا عبـد الجبـار، والآخـر الحـارث؛ وهمـا مـن البربـر؛ يدينـان بديـن الخـوارج)). تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 128.

[2] يقـول: ((وثـار بطرابلـس عبـد الجبـار والحـرث؛ مـن هـوارة؛ وكانـا يدينـان بـرأي الإباضيـة... ثـم زحـف إليهـم عبـد الرحمـن بـن حبيـب سنـة إحـدى وثلاثيـن [ومائـة] فقتـل عبـد الجبـار والحـارث، وأوعـب في قتـل البربـر، وأثخـن فيهـم)). العبـر، مج: 6، ص: 223.

[3] مختصـر تاريـخ الإباضيـة، ص: 33.

ويتفق – أيضا – القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[1] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[2] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين غيلة.[3]ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب أرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 128 ـــ 129. والعبر، مج: 6، ص: 223.

[2] يقول ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما؛ فاقتتلا؛ فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. أنظر أيضا كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[3] إذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 413. وقد أورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2، القسم: 1). ص ص: 46 ـ 47.

ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ــ كما يقول ابن عبد الحكم ــ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر ابن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغُوغَا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ــ إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي:

ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ــ هي الأخرى ــ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ــ 302.

يكمن في قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: **302**.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالأسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم؛ أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: **129**. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: **1**، ص: **61**.

ـ إمــارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافــري الإبــاضي:
ينســب هــذا الرجــل إلى قبيلــة معافــر الكهلانيــة اليمنيــة. نشــأ في المشــرق وكــان مــن دعــاة الإباضيــة بالشــام قبــل مجيئــه إلى المغــرب.[1] وقــد كــان مــن بيــن طلبــة العلــم الخمســة؛ الذيــن بعثــوا في سنــة 132هــ(749م)؛ مــن طــرف الإباضييــن في بــلاد المغــرب؛ بغــرض تلــقي العلــم في البصــرة؛ عــلى يــد شيــخ الإباضيــة في المشــرق أبي عبيــدة مسلــم بــن أبي كريمــة.[2] ولمــا عــادوا في سنــة 139هــ(756م)؛ محمليــن بعلــوم المذهــب الإبــاضي؛ بــادروا بإنشــاء دولتهــم الإباضيــة؛ حيــث بايعــوا أبــا الخطــاب عبــد الأعــلى إمامــا عــلى الإباضييــن في ديــار المغــرب. وكــان الإعــلان عــن هــذه الدولــة في سنــة 140هــ(757م)؛ خــارج طرابلــس ــ في بدايــة الأمــر ــ[3] في موضــع غــربي طرابلــس يقــال لــه (صيــاد). وقــد أشاعــوا أنهــم ينظــرون في خــلاف بيــن جماعتيــن عــلى قطعــة أرض. ويبــدو ــ مــن كــلام الرقيــق القيــرواني وابــن الأثيــر ــ أن منشــأ هــذه الدولــة تــم أيــام احتــلال ورفجومــة للقيــروان.[4]

---

[1] سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. والفــرق الإسلاميــة لآلفــرد بــل، ص: 170.

[2] طلبــة العلــم الخمســة هــم: أبــو الخطــاب عبــد الأعــلى بــن السمــح المعافــري، وعبــد الرحمــن بــن رستــم الفــارسي، وعاصــم الســدراتي، وإسماعيــل بــن درار الغدامــسي، وأبــو داود القبــلي النفــزاوي.

[3] أنظــر كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. وكتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، ج:، 1، ص ص: 22 ـــ 23. ومختصــر تاريــخ الإباضيــة، ص: 33.

[4] وقــد كــان نــص ابــن الأثيــر أكثــر وضوحــا إذ قــال: ((فاتفــق أن رجــلا مــن الإباضيــة دخــل القيــروان؛ لحاجــة لــه؛ فــرأى ناســا مــن الورفجوميــن قــد أخــذوا

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

امرأة قهرا ـ والناس ينظرون ـ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ـ مقدم ورفجومة ـ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ـ بفضل خدعة بارعة ـ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت

---

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه ـ وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا ـ ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا

من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[1]

برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 33. أنظر – أيضا – كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 68.

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي – أمير مصر للمنصور – إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين؛ فعادوا إلى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين؛ فوصل إليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 71 – 73.

ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم ـ وهو بالقيروان ـ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ـ **إمارة عاصم السدراتي الإباضي:** وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما

---

[1] تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.

ذكرته تلك المصادر صحيحا؛ فكيف ـ إذن ـ يكون من بين قادة الإباضية الذين حاصروا عمر بن حفص سنة 153هـ(770م)؟[1]

ـ **إمارة أبي هريرة الزناتي الإباضي:** هكذا ورد اسمه دون تفصيل. ويبدو أنه كان زعيما لبطن من بطون زناتة في جهات طرابلس؛ ولما قتل أبي الخطاب؛ انتهز غفلة من ابن الأشعث؛ وهجم عليه؛ في ستة عشر ألفا؛ ولكن ابن الأشعث تدارك الأمر؛ وتمكن من صد هذه القوة، وقتل قائدها أبي هريرة الزناتي. وتم ذلك في السنة التي قتل فيها أبي الخطاب؛ وهي سنة 144هـ(761م). والذي يلفت النظر ـ هنا ـ أن المصادر الإباضية أغفلت ذكر أخبار أبي هريرة؛ ولم يشر إليه سوى محمد على دبوز في جملة مقتضبة.[2] وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخين السنيين؛ إذ تجاهل ذكره أكثرهم؛ ولم يتكلم عنه سوى: ابن الأثير، وابن عذاري؛

---

[1] قال أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: ((ثم إن عاصما السدراتي مرض مرضا شديدا؛ وكان من خيار العسكر؛ وهو أحد الخمسة الحملة للعلم؛ وأشد شوكة على أهل القيروان. فسمع أهل القيروان بمرضه؛ وأنه اشتهى قثاة؛ فبعث أهل القيروان رجلا بياعا يبيع القثاء؛ فسموا منها قثاة، وأمروه أن لا يبيعها إلا لعاصم السدراتي... واشترى لعاصم أصحابه القثاة المسمومة وأتوه بها فأكلها؛ فقطعه السم فمات،؛ وهرب البياع حين باعها لهم)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 62.

[2] تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 19.

في جملة قصيرة أيضا.[1] وقد يكون هذا القائد من بين الزناتيين الذين انسحبوا غاضبين على أبي الخطاب من قبل؛ ولما سمعوا بهجوم أبي الأشعث عادوا إلى المعركة؛ فوجدوا أن المبادرة خرجت من أيديهم.

ـ إمارة عبد الله بن حيان الزويلي الإباضي:
وهو ـ كما يبدو ـ هواري النسب. وكان في زمن أبي الخطاب رئيسا في زويلة؛ فبعث ابن الأشعث جيشا إلى تلك الجهات سنة 145هـ(762م)؛ حيث افتتح ودان وزويلة؛ أين قتل من بهما من الإباضيين؛ ومن جملتهم عبد الله بن حيان هذا.

ـ إمارة المسور بن هانئ الزناتي الإباضي[2]:
ذكره بعض المؤرخين ضمن جيوش الصفرية والإباضية؛ الذين كانوا محاصرين لعمر بن حفص بطبنة في سنة 153هـ(770م)؛ إذ قالوا أنه كان يقود عشرة آلاف مقاتل من زناتة؛ قدموا معه من شمال تيهرت. وما عدا هذا؛ لا يوجد ما يمكن إضافته من أخباره.

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 72.**

[2] **سماه ابن عذاري: المصور ـ بالصاد ـ الزناتي؛ دون الإشارة إلى مذهبه هل هو صفري أم إباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 75. أما ابن خلدون فقد سماه المسور ـ بالسين ـ الزناتي؛ ثم ذكر أنه إباضي المذهب. العبر، مج: 4، ص: 413. أما في مج: 4، ص: 226؛ فسماه المسور بن هانئ.**

ـ إمـــارة أبي حاتـــم يعقـــوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفـــت الملزوزي المغيـــلي المعروف بأبي قـــادم:[1]

هكـــذا سمـــاه ابـــن خلـــدون؛ إذ نسبـــه إلى قبيلـــة ملـــزوزة المنحـــدرة عـــن قبيلـــة مغيلـــة. أمـــا المصـــادر الأخـــرى فقـــد اكتفـــت بالقليـــل عنـــد ســـرد اسمـــه؛ عـــلى أن بعضهـــم ينسبـــه ـــ بالـــولاء ـــ إلى قبيلـــة كنـــدة العربيـــة.[2] ويقـــول محمـــد عـــلي دبـــوز أن أبـــاه ـــ أو أحـــد أجـــداده ـــ انتقـــل إلى طرابلـــس؛ فانتســـب إلى قبيلـــة هـــوارة بالالتحـــاق. المهـــم أن بعـــض الآراء تقـــول أن أبـــا حاتـــم هـــذا تـــولى أمـــر الإباضييـــن في سنـــة 145هـــ(762م).[3] أي بعـــد فتـــرة مـــن مقتـــل أبي الخطـــاب. إذ كـــان يجمـــع الصدقـــات، ويبعـــث بهـــا إلى عبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم؛ قبـــل أن يتـــولى ولايـــة الظهـــور؛ أي الولايـــة المعلنـــة للمـــلأ. وهـــذا يبعـــث عـــلى الاعتقـــاد أنـــه قـــد ولي أمـــر الإباضييـــن ســـرا في سنـــة 151هـــ(768م) أو قبلهـــا.

---

[1] سمـــاه أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن أبي بكـــر: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن لبيـــب الملـــزوزي. كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 73. أمـــا الدرجيـــني فسمـــاه: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن لبيـــب الملـــزوزي الهـــواري، ج: 1، ص: 36. أمـــا سليمـــان البـــاروني فسمـــاه: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن حبيـــب، مختصر تاريخ الإباضيـــة، ص: 34.

[2] الكامـــل في التاريـــخ، ج: 5، ص: 32. والعبـــر، مج: 4، ص: 412.

[3] كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 73. وفي كتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب: ولي سنـــة 154هـــ. وفي مختصـــر تاريـــخ الإباضيـــة في سنـــة 154هـــ.

هذا وقد سمى أبو زكرياء ولاية أبي حاتم بولاية الدفاع. وذكر أنه بويع خارج طرابلس؛ بالطريقة السرية ذاتها؛ التي تمت في بيعة أبي الخطاب من قبل. إذ تظاهروا أنهم مجتمعون من أجل إصلاح بين زوج وامرأته؛ بينما هم ـ في الحقيقة ـ يأتمرون فيما بينهم لإعلان الإمامة، والبيعة للإمام. ولكن عيون عامل طرابلس كشفت أمرهم؛ فحاول إفساد ما اجتمعوا عليه؛ عندها لم يجدوا أمامهم بدا من إعلان العصيان؛ وانطلقوا إلى طرابلس فاحتلوها وقتلوا من بها من الجند. ثم أمر أبو حاتم أتباعه بالزحف نحو إفريقية؛ وفي الطريق التقوا بجيش القيروان؛ زاحفا في اتجاههم؛ فاشتبكوا معه وهزموه.

وحسب ما يبدو فهذا الأمر يكون قد تم بعد سنوات من التاريخ الذي اتفق فيه الإباضيون على إمامة أبي حاتم. لأن ظهوره بشكل علني ربما حدث في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي تحرك فيها لحصار القيروان؛ منتهزا فرصة غياب الجند عنها؛ أي عندما لاحظ أنهم خرجوا مع والي إفريقية عمر بن حفص؛ بهدف بناء وتحصين عاصمة الزاب طبنة.

ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ (761م) إلى 154هـ (770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ـ حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ـ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ (762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م).

---

[1] إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فأجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ـ أيضا ـ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ـ عن ذلك ـ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ـ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ـ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ـ 413. ومج: 6، ص: 226.

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ـ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ـ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ـ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ـ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛

عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد ابن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ (770م).

ـ إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي: ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في

فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فاتوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.

مصيـــر هـــذا الثائـــر الإبـــاضي؛ ولـــم يذكـــر إن كـــان قتـــل أم لا. وحـــتى ابـــن الأثيـــر لـــم يشـــر إلى مصيـــره النهـــائي.

ـ إمـــارة صالـــح بـــن نصيـــر النفـــزي الإبـــاضي:[1]
وكـــان مـــن رؤســـاء نفـــزاوة الإباضييـــن؛ إذ ثـــار مـــع قبيلتـــه سنـــة 161هــ (777م) عـــلى والي إفريقيـــة بالقيـــروان؛ داود بـــن يزيـــد بـــن حاتـــم ــ في حيـــاة والـــده يزيـــد الـــذي أقعـــده المـــرض ــ فأرســـل داود إليهـــم قـــوة لتأديبهـــم؛ بقيـــادة سليمـــان بـــن الصمـــة بـــن يزيـــد بـــن حبيـــب بـــن المهلـــب؛ في عشـــرة آلاف مـــن الجنـــد؛ ففتـــك بهـــم، وفـــرق جمعهـــم؛ غيـــر أن صالـــح بـــن نصيـــر ــ كمـــا يبـــدو ــ استطـــاع الإفـــلات؛[2] ولـــم يعـــرف مصيـــره بعدئـــذ.

ـ إمـــارة أيـــوب الهـــواري: أورد خبـــره ــ باقتضـــاب شديـــد ــ ابـــن الأثيـــر؛ إذ قـــال أنـــه ثـــار مـــع قبيلـــة ورفجومـــة في الـــزاب سنـــة 164هــ(780م)؛ خـــلال عهـــد يزيـــد بـــن حاتـــم؛ الـــذي سيـــر إليهـــم عسكـــرا كثيـــرا؛ بقيـــادة يزيـــد بـــن مجـــزأ المهلـــبي؛ حيـــث قتـــل في تلـــك الأحـــداث، وانهـــزم جيشـــه؛ كمـــا قتـــل فيهـــا أيضـــا المخـــارق عامـــل الـــزاب. فاسنـــد يزيـــد بـــن المهلـــب القيـــادة إلى العـــلا بـــن سعيـــد المهلـــبي؛ فتمكـــن مـــن دحـــر

---

[1] سمـــاه ابـــن عـــذاري: نصيـــر بـــن صالـــح الإبـــاضي. البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 83.

[2] أنظـــر تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 169. والعبـــر مج: 6، ص: 228.

ورفجومـــة واستلحمهـــم؛ حيـــث تتبعهـــم في كـــل مكـــان؛ حـــتى قـــضى عليهـــم[1]. ولـــم يذكـــر ابـــن الأثيـــر مذهـــب هـــذا الرجـــل؛ هـــل هـــو صفـــري أم إبـــاضي.؟ وكالعـــادة بـــقي مصيـــر هـــذا القائـــد الثائـــر غيـــر معـــروف.

وخلاصـــة القـــول ــ هنـــا ــ أنـــه حصـــل ــ كمـــا يبـــدو ــ بعـــض الالتبـــاس؛ إذ أورد هـــذه الروايـــة ــ الرقيـــق القيـــروان ــ الـــذي نســـب أفعالهـــا إلى ثائـــر صفـــري يســـمى أبـــا زرجونـــة الورفجـــومي؛ عـــلى أن الأحـــداث وقعـــت في سنـــة 156هـــ(772م).[2] ولا يعـــرف إن كانـــت ثـــورة أبـــي أيـــوب ــ هـــذه ــ هـــي ثـــورة أبـــي زرجونـــة نفســـه؛ أم يتعلـــق الأمـــر بثورتيـــن مختلفتيـــن؛ قادهمـــا شخصـــان متباينـــان.

وبحلـــول الربـــع الأخيـــر مـــن القـــرن الثـــاني للهجـــرة؛ أصبـــح الوضـــع السيـــاسي في بـــلاد المغـــرب غيـــر مـــا كـــان عليـــه في السابـــق. حيـــث شهـــدت هـــذه الربـــوع بعـــض التحـــولات الجوهريـــة؛ صبغـــت ثـــورات الخـــوارج ضـــد حكـــم العباسييـــن بالمغـــرب؛ بمفاهيـــم جديـــدة أعطـــت شرعيـــة لشكـــل مـــن أشكـــال الاستقـــلال للخـــوارج؛ حيـــث قامـــت دولـــة للصفريـــة في أقـــصي المغـــرب، ودولـــة للإباضيـــة في المغـــرب الأوســـط. (بالإضافـــة إلى دولـــة برغواطـــة المنحرفـــة).

---

[1] **الكامـــل في التاريـــخ، ج: 5، ص: 33.**

[2] **تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص ص: 161 ـــ 162.**

وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ــ من جديد ــ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

***

ـ إمارة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار: ظهر هذا الرجل في بلاد قسطيلية بالنواحي الجنوبية من إفريقية؛ بعد سقوط الدولة الرستمية الإباضية؛ وبعد أن التهمها الفاطميون. وتتلمذ هذا الثائر الخارجي ـ في صغره ببلاد قسطيلية ـ على بعض النكارية؛ منهم عبد الحميد بن عبد الله الحميدي الحجري؛ الملقب بأبي عمار الأعمى؛ الذي قال عنه محمد الصنهاجي أنه كان مقدما في الإباضية، وقال فيه ابن خلدون أنه رأس النكارية.[1] كما تذكر مصادر الإباضيين أنه درس على بعض العلماء في سجلماسة. ونظرا لفقر أبي يزيد، وشدة حاجته؛ فقد عمل في تعليم القرآن للصبيان؛ فكانت فرصة له؛ كي يبث فيهم مذهب النكارية.

وتقول المصادر التاريخية أنه ذهب إلى الحج، وعاد في سنة 325هـ(926م)؛ حيث أخذ ـ بعد عودته ـ في التشويش والمشاغبة وتأليب العامة على الحكام. فقبض عليه ابن فركان ـ مقدم توزر ـ وأودعه السجن؛ بتهمة ما كان يدعو إليه من تكفير المسلمين، وسبٍّ على كرم الله وجهه؛ وما كان يصرح به من وجوب الخروج عن السلطان. على أن أبا يزيد استطاع التخلص من سجنه؛ إما بتقديم بعض الأعذار؛ كما جاء في قول؛ وإما

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30. والعبر، مج: 7، ص: 27.

بالقوة والتمرد؛ حين تمكن من الهرب من سجنه؛ بمساعدة شيخه أبي عمار؛ وجماعة من قبيلة زناتة؛ في قول آخر ذكره ابن خلدون.[1] عندها اتجه أبو يزيد ـ أولا ـ إلى وركلا، ثم التجأ ـ بعد ذلك ـ إلى جبل أوراس عند عشيرة بني كملان وهم من هوارة؛ وكانوا على مذهبه.[2] ومنها أخذ يتردد مرة على بني برزال جنوب المسيلة، ومرة أخرى على بني زنداك المغراويين. وفي تلك الأثناء أخذ له أبو عمار البيعة من القبائل المنضوية تحت طاعته؛ فتلقب بشيخ المؤمنين.[3]

ولما أحس بقوة أنصاره وصدق طاعتهم وانصياعهم لأوامره؛ أعلن الثورة على الفاطميين؛ في عهد ثاني ملوكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله. وتمكن ـ في البداية ـ من جمع كتلة قبلية هامة حوله؛ وقد تمكن من تحقيق ذلك نظرا لما كان يظهره ـ في البداية ـ من تدين وورع وانسجام مع المذاهب الأخرى ـ سنية أم خارجية ـ تلك المذاهب المعادية للمذهب الفاطمي.[4] ومن جهة

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 217. والعبر، مج: 7، ص: 28.

[4] قال ابن عذاري: ((قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنده؛ وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه"؛ وسماهم ابن سعدون في كتابه رَجُلاً رَجُلاً. "فركبوا معه؛ ونهضوا إلى القيروان؛ فدخلوها في صفر العام، [يقصد عام 332هـ] وأظهر لأهلها خيرا؛ وترحم على أبي بكر وعمر ـ رضي الله

أخـرى فقـد استغـل كراهيـة فئـة عريضـة مـن القبائـل والعشائـر في بـلاد المغـرب لحكـام الدولـة الفاطميـة. أضـف إلى ذلـك كلـه؛ أن علمـاء المذاهـب السنيـة في هـذه الديـار أشاعـوا عـلى الفاطميين صفـات كريهـة؛ وضعتهـم في مصـاف المخالفيـن لشـرع اللـه، واتهمتهـم بانتحـال البـدع والأكاذيـب؛ بـل اتهمتهـم بالكفـر أحيانـا؛ كمـا كذبـوا روايـة انتسابهـم إلى فاطمـة البتـول رضي اللـه عنهـا.[1]

عنهمـا ــ ودعـا النـاس إلى جهـاد الشيعـة؛ وأمرهـم بقـراءة مذهـب مالـك. فخـرج الفقهـاء والصلحـاء في الأسـواق بالصـلاة عـلى النـبي صـلى اللـه عليـه وسلـم وعـلى أصحابـه وأزواجـه؛ حـتى ركـزوا بنودهـم عنـد الجامـع؛ فلمـا كـان يـوم الجمعـة؛ اجتمعـوا بالمسجـد الجامـع، وركبـوا مـع أبي يزيـد بالسـلاح؛ ومعهـم البنـود والطبـول... فلمـا اجتمـع النـاس، وحضـر الإمـام، وطلـع إلى المنبـر؛ خطـب خطبـة أبلـغ فيهـا، وحـرض النـاس عـلى جهـاد الشيعـة، وأعلمهـم بمـا لهـم فيـه مـن الثـواب؛ ثـم لعـن عبيـد اللـه الشيـعي وابنـه؛ ثـم نـزل فخـرج، وخـرج النـاس معـه لقتـال الشيعـة الفجـار؛ فلـم يـزل قاهـرا لهـم، غالبـا عليهـم، قاتـلا لجنودهـم؛ حـتى لـم يبـق لهـم مـن بـلاد إفريقيـة إلا اليسيـر)). البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 217 ــ 218.

[1] أورد ابـن عـذاري بعـض التهـم الـتي وجهـت إلى الفاطمييـن؛ منهـا نحلـة التشريـق الإلحاديـة؛ الـتي زعـم أعداؤهـم أنهـا صـدرت عنهـم وعـن أنصارهـم. وأورد أيضـا موجـزا لمـا خطـه محمـد بـن سعـدون بـن عـلي في كتابـه "تعزيـة أهـل القيـروان بمـا جـرى عـلى البلـدان؛ مـن هيجـان الفتـن، وتقلـب الأزمـان" وكـان هـذا الكتـاب مشحونـا بالتهـم والأوصـاف الكريهـة للفاطمييـن؛ الذيـن يسميهـم العبيدييـن؛ وينكـر نسبهـم للرسـول محمـد صـلى اللـه عليـه وسلـم. أنظـر البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ــ 287.

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ـ بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه ـ بالإضافة إلى هوارة ـ وهي قبيلة أمه ـ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ـ بعد فترة ـ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 195.

الملـــة، ويستبيـــح الغنائـــم والســـبي فيهـــم.[1] وعليـــه فقـــد أعتبـــره الإباضيـــون الوهبيـــون نكاريـــا ومخالفـــا لمذهبهـــم.[2] وصنفـــوه ضمـــن فئـــات الخـــوارج المتطرفيـــن. ومـــع هـــذا فقـــد كـــان يـــرى في نفســـه الـــوارث الشـــرعي للـــدعـــوة الإباضيـــة؛ بعـــد سقـــوط الدولـــة الرستميـــة. لـــذا فقـــد حـــاول استعـــادة مجـــد الإباضييـــن، والنهـــوض بدولتهـــم مـــن جديـــد؛ ولكنـــه فشـــل في الأخيـــر.[3] وانتهـــت حركتـــه

---

[1] أجمعـت المصـادر التاريخيـة كلهـا عـلى سمـاح أبي يزيـد بسفـك دمـاء المسلميـن المنتميـن لغيـر مذهبـه؛ كمـا أجمعـت عـلى استباحتـه للمحرمـات، وتحريضـه عـلى سلـب أمـوال المسلميـن، وسـبي نسائهـم واستعبـاد أطفالهـم. وهـذا نـص ـــ كعينـة ـ كتبـه أبـو زكريـاء ــ وهـو أحـد العلمـاء الإباضييـن ــ يصـف فيـه أبا يزيـد بصفـات تضعـه في مصـاف الكفـرة؛ إذ قـال: ((ثـم إن عـدو اللـه [يقصـد أبـا يزيـد] سـار يريـد القاسـم بالقيـروان؛ وكـل قريـة ومدينـة مـر بهـا ـ في طريقـه ـ خربهـا، وسبـا ذريتهـا، وغنـم أموالهـا؛ كفعـل نافـع بـن الأزرق وغـيـره مـن الخـوارج؛ بـل قـد زاد عليهـم وأربى... وذكـروا أنـه بـلـغ عـدة مـا خـرب عـلى يـده ـ في إفريقيـة ـ ثلاثـون ألـف قريـة؛ لـم تعمـر إلى يومنـا هـذا. وفعـل في إفريقيـة مـن الفسـوق والمعـاصي والفجـور مـا لـم يبلغنـا مثلـه عـن الفراعنـة والأكاسـرة والقياصـرة والجبابـرة... وبلغنـا أنـه نـزل بالساحـل؛ فاخـذ أهـل عسكـره صبيتيـن؛ فجاءتـه أمهمـا تشـكو إليـه؛ فقالـت لـه: "يـا شيـخ؛ إن العزابـة سبـوا لي ابنتيـن؛ وهمـا حرتـان؛ وغصبوهمـا"؛ فلـم يجبهـا عـدو اللـه بجـواب؛ غيـر أنـه قـال: "هـل في إفريقيـة حـرة". فخافـت المـرأة عـلى نفسهـا؛ فهربـت ونجـت بنفسهـا)). كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص ص: 180 ــ 182.

[2] أنظـر كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص ص: 175 ــ 187. وكتـاب طبقـات المشائـخ بالمغـرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. فكلهـا تتبـرأ منـه، وتخرجـه مـن المذهـب الإباضـي الوهـبي.

[3] وهـذا مـا جعـل أبـا القاسـم بـن عبيـد اللـه يقـول: ((لقـد فتـح فيهـم [أي في الإباضييـن] بابـا؛ إلا أنه لم يحسـن السيـرة)). كتاب سير الأئمـة وأخبارهـم؛ ص: 181.

بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ــ بعض الوقت ــ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[1] وقد استند أبو يزيد ــ في بدية أمره ــ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ــ بواسطة الدعوة الدينية ــ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[2]

---

[1] أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ــ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ــ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ــ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ــ 125.

[2] يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتُفرِّد الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ــ وإن كانوا أضعافهم ــ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.

غير أنه عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ بسبب ما كان يصدر عنه من نزوات؛ لم يتمكن من كبتها.[1] حيث أدى الشك في صدق دعوته إلى نكسة؛ أثرت على حركته؛ فأخذ العامل الديني يتلاشى؛ بفعل الشكوك التي غزت بعض أنصاره؛ فضعف تماسكهم، وانحلت وحدتهم؛ بفساد العصبية المناصرة له وتفككها[2]، وافتراق القبائل المتحالفة

---

[1] فمما قاله محمد الصنهاجي: ((وكان أبو يزيد في أول أمره يلبس خشن الثياب، ويمسك العصا، ويسمى شيخ المسلمين؛ ثم انتقل عن ذلك، وركب عتاق الخيل، ولبس الديباج؛ وكان يرى الجمع بين الأختين بملك اليمين، ويستبيح نساء المسلمين ممن خالفه، ويسفك الدماء. وكان أصحابه البربر يقتلون كل من ظفروا به من الناس؛ كائنا من كان؛ عيثا وعبثا؛ خاصة من خرج من المهدية عند حصارهم إياها؛ فرارا من الجوع والحصار؛ ويشقون بطونهم أحيانا فتشا عن المال؛ توهما منهم أنهم ابتلعوه)). أخبار ملوك بني عبيد، ص: 31. وقال أيضا ابن خلدون: ((واستخف أبو يزيد بالناس؛ بعد قتل ميسور؛ فلبس الحرير، وركب الفاره؛ ونكر عليه أصحابه ذلك، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد... وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا؛ فتاب وأقلع؛ وعاود لبس الصوف والتقشف)). العبر، مج: 7، ص ص: 30 ـ 31.

[2] ويشرح ابن خلدون الكيفية التي تنكسر فيها العصبية؛ تبعا لضعف الصبغة الدينية؛ يقوله: ((واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها؛ دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها؛ ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة)). المقدمة، ج: 2، ص: 638.

معـــه؛ حيـــث عـــادت إلى سابـــق عهدهـــا؛ عصبيات عديـــدة؛ تفرقهـــا الأهـــواء والأطمـــاع.[1]

وهنـــا تظهـــر الحاجـــة إلى العصبيـــة، والدعـــوة الدينيـــة معـــا. فغيـــاب إحداهمـــا؛ يخـــل باستقـــرار الأخـــرى. وهكـــذا أخمـــدت ثـــورة أبي يزيـــد؛ بواسطـــة عصبيـــة أقـــوى مـــن عصبيتـــه؛ كانـــت هي الأخـــرى معـــززة بدعـــوة دينيـــة تتمتـــع بفعاليـــة وقـــدرة عـــلى تحقيـــق أهدافهـــا. وربمـــا عـــاد سبـــب فشلـــه ــ في تحقيـــق هدفـــه ــ إلى مـــا لاقـــاه مـــن خـــذلان، وتنكـــر مـــن قبـــل حلفائـــه قبائـــل زناتـــة؛ وذلـــك بعـــد تخليهـــم عـــن مناصرتـــه ومساندتـــه؛ في أشـــد الظـــروف الـــتي مـــرت بـــه؛ حيـــث تركـــوه فريســـة سهلـــة؛ بيـــن براثـــن أعدائـــه. هـــذه هي العصبيـــة القبليـــة؛ حيـــن تظهـــر في زيهـــا السلـــبي البشـــع.

فثـــورة أبي يزيـــد كانـــت ــ فـــي الظاهـــرــ ثـــورة خارجيـــة المذهـــب؛ نشبـــت ــ بضـــراوة ــ ضـــد دولـــة شيعيـــة المذهـــب؛ ومـــع هـــذا فتلـــك الثـــورة لا تخلـــو مـــن نفحـــات العصبيـــة القبليـــة ونزواتهـــا؛ حيـــث كانـــت تلـــك الثورة تتغـــذى بشحنـــات مـــن العصبيـــة الأمازيغيـــة الزناتيـــة والهواريـــة؛ تلـــك العصبيـــة المناهضـــة لتسلـــط قبائـــل كتامـــة، وقبائـــل صنهاجـــة؛ الـــتي تستتـــر تحـــت ستـــار المذهـــب الشيـــعي. لأن الفكـــرة المذهبيـــة ــ في الحقيقـــة ــ

---

[1] أنظـــر أخبـــار بـــني عبيـــد وسيرتهـــم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ــ 41. والكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص ص: 309 ــ 310. واتعـــاظ الحنفـــا، ص ص: 115. 116. والعبـــر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ــــ 33

أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ـ كقبيلة هوارة ـ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ (953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ـ في الظاهر ـ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ـ أيضا ـ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ـ بالمقابل ـ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية.

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 ـ 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.

وهكـذا تبـددت أحـلام زناتـة؛ في إنشـاء دولـة قويـة وموحـدة بالمغـرب الإسـلامي؛ بزعامـة أبي يزيـد. وبهـذا بـقي الحديـث عـن ثـورة أبي يزيـد في حـدود الكيـان الثائـر، المتمـرد؛ الـذي لـم يصـل إلى مرتبـة الدولـة؛ لأنـه ـ حتى وإن كـاد أبـو يزيـد أن يقـضي عـلى الدولـة الفاطميـة ـ لا يمكـن وضـع كيانـه في مصـاف الـدول؛ إذ لـم يكـن سـوى ثائـر؛ حالفـه الحـظ أحيانـا، وخانـه أحيانـا أخـرى.

ـ إمـارة أبي خزر يغـلي بن زلتـاف الوسيـاني الإبـاضي: وهـو مـن علمـاء الإباضيـة الوهبيـن المعتدليـن. وقـد قـام هـذا الرجـل ـ مـع رفيقـه وصنـوه في العلـم ـ **أبـي نـوح سعيـد بـن زنغيـل الوسيـاني** ـ بثـورة مضـادة للـدولـة الفاطميـة؛ وذلـك في بـلاد قسطيليـة أيضـا سنـة 358هـ(968م). أي بعـد ثـلاث وعشريـن سنـة ـ تقريبـا ـ مـن مقتـل أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد. وتقـول المصـادر أن السبـب في تلـك الثـورة كـان بدافـع الثـأر؛ وليـس بحافـز عقائـدي أو سيـاسي. وحـدث ذلـك بعـد إعـدام أحـد علمـاء الإباضيـة الأعيـان ـ ظلمـا كمـا يقـال ـ مـن طـرف سلطـان الدولـة الفاطميـة ـ آنـذاك ـ المعـز لديـن اللـه تميـم ابـن إسماعيـل.

وهذه الحركة الإباضية ـ في الحقيقة ـ لم تصل إلى درجة الثورة العارمة؛ إذ كانت عبارة عن عصيان وسخط على سلطان الدولة الفاطمية؛ الذي قتل ـ كما يعتقدون ـ ظلما أحد علمائهم؛ وهو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني.[1]

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن جل المصادر التاريخية السنية صمتت عن هذه الحركة، ولم تشر إليها؛ وقد يكون ذلك بسبب عدم أهميتها، ونظرا لقلة تأثيرها على الدولة الفاطمية. ولم تتكلم عنها سوى المصادر الإباضية؛ التي أضفت عليها ـ بدورها ـ صفة العصيان القبلي؛ احتجاجا على قتل أحد الأعيان المبجلين في: قسطيلية، وبلاد ريغ، ومنطقة الزاب. لذا فقد نهض الساخطون في تلك الجهات؛ وطالبوا بالثأر لأبي القاسم. ويقال أن الذين اجتمعوا للقتال؛ من مزاتة وحدها اثنا عشر ألف فارس؛ باستثناء الراجلين؛ الذين كان عددهم أكثر

---

[1] يقول أبو زكرياء في هذا الموضوع: ((ذكر أبو الربيع سليمان بن يخلف رضي الله عنه ؛ أن أبا القاسم رضي الله عنه تحدث مع يهودي؛ فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم [المعز لدين الله] فقال له أبو القاسم رضي الله عنه ليس بيننا وبينه إلا يسيرا؛ فنقوم عليه؛ ونخرجه من تلك المدينة ـ إن شاء الله ـ يعني مدينة القيروان. فلما افترقا قام اليهودي مبادرا؛ فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي؛ فأتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه. وقالوا له: "لو كنت على ذلك؛ فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره؛ أحسن الله عزاءنا فيك")). سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 210 ـ 211. وذكر الدرجيني الرواية نفسها في طبقات المشائخ بالمغرب؛ ج: 1، ص: 124.

من ذلك.[1] ويقول أبو زكرياء أن جموع الثائرين عقدوا لأبي خزر ولاية الدفاع؛ بهدف المطالبة بدم أبي القاسم. على أن يعقدوا له ــ بعد تحقيق هدفهم الأول ــ ولاية الظهور؛[2] أي الولاية المعلنة صراحة.

ويبدو أن أبا خزر لم يكن على درجة من الحنكة العسكرية. ذلك لأنه تسرع في زحفه نحو باغاي. ويقول أبو زكرياء أنه لم ينتظر إمدادات أصحابه كلهم؛ الممثلين في جموع أهل الزاب وورجلان.[3] وعليه فلم يكن في وسعه الصمود أمام قوة الأعداء؛ إذ أنه بعد أن حاصر باغاي ــ بعض الوقت ــ بقوة من قبيلة مزاتة؛ تلك القوة التي كانت في معظمها تتشكل من طلبة العلم؛ انتهى الأمر بهم جميعا إلى الهزيمة والهرب.

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216. وطبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 124.**

[2] **قال أبو زكرياء: ((ثم إن الشيخ أبا خزر (رضي الله عنه) عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ رضي الله عنه فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216.**

[3] **يقول أبو زكرياء: ((لما استنفر أهل الزاب وأريغ وورجلان؛ خرجوا في جموع عظيمة؛ فخرج خزرون بن فلفول؛ فلما وصل خزرون ــ ومن معه ــ إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا (أو أفوداد لكلا)؛ كان بينه وبين باغاي مسافة قصيرة ــ فيما قيل والله أعلم ــ سمع بخبر الهزيمة فرجع)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 218.**

على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة ـ التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان ـ أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار.

وبذلك انبثقت في وسطهم ـ فجأة ـ علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت ـ بفعل عواملها السلبية ـ في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[1] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

---

[1] قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة ـ فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات ـ فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 ـ 130.

وبهـذا القـدر مـن المعلومـات ــ حـول دور العصبيـة القبليـة في تشييـد دول الخـوارج، وتحريـك كياناتهـم الثائـرة ببـلاد المغـرب والأندلـس ــ يمكـن إنهـاء هـذا الفصـل؛ عـلى أن يتبعـه ــ لاحقـا ــ فصـل آخـر، يعالـج موضـوع نشـأة الدول العلويـة بتأثيـر العصبيـة القبليـة بهـذه الديـار أيضـا.

****

الـدول العلـويـة

المقصود بالدول العلوية هي تلك الدول التي أنشأها أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أو المنتسبون إليه من أهل الشيعة. وقد يحدث أن تكون الدولة علوية النسب؛ ولكنها سنية المذهب. وهذا هو الخط الفاصل بينها وبين الدولة الشيعية؛ ذات المذهب المخالف للمذاهب السنية؛ في الجوانب الكلامية والفقهية. أما الجانب السياسي؛ الذي ينص على وجوب إسناد الإمامة إلى عائلة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ فهو متفق عليه؛ بين أنصار النموذجين من هذه الدول. ولا يدخل في هذا المجال الدول الشيعية التي يحكمها أمراء من غير العلويين؛ مثل: بني زيري أمراء إفريقية والمغرب، وبني أبي الحسين أمراء صقلية.

بدأت الخلافات السياسية تظهر، وتنمو بين المسلمين؛ منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان منطلقها؛ اختلافهم في اختيار خليفة له. فأهل يثرب قالوا بأنهم أجدر الناس بمنصب الخلافة؛ لكونهم أنصار محمد عليه الصلاة والسلام. ولكن المهاجرين تصدوا لهم؛ وأعطوا لأنفسهم الحق في الخلافة؛ كونهم أهل رسول الله، وأسبق الخلق إسلاما.

ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء علي بن أبي طالب. وعليه فقد ثار ـ نتيجة لذلك ـ العلويون وشيعتهم ـ مرات عديدة ـ بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

---

[1] وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني أمية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعِنّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب ــ من شتات وتشرد في الآفاق ــ أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت ــ بإصرار أصحابها، وبصبرهم ــ مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

****

أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعاناً للعصبية التي لهم، وأمناً أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: 865.

1)ـ الدولة الإدريسية:

نشأت الدولة الإدريسية بواسطة إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي كرم الله وجهه.[1] وذلك سنة 172هـ (788م) ببلدة وليلي في المغرب الأقصى؛ حيث تم ذلك في حماية قبيلة أوربة البرنسية. ولما كان إدريس من أهل النصاب الملكي؛ فقد انقادت إليه هذه القبيلة الأمازيغية بسهولة ويسر؛ وذلك حينما قبل أعضاؤها بتوليه الحكم فيهم؛ ملكا وإماما. وقد تعزز انقيادهم وتحقق قبولهم به نظرا لأنه حفيد لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا تحقق ـ أيضا ـ ما قرره ابن خلدون؛ من أنه يحدث لأهل النصاب الملكي؛ أن يقيم أحدهم دولة؛ بفضل عصبية أخرى؛ غريبة عنه؛ فتغنيه عن الحاجة إلى عصبيته الخاصة.[2] وهكذا.. فقيام الدولة الإدريسية ببلاد المغرب جاء ـ إذن ـ كنتيجة طبيعية لما وصلت إليه عصبية بني هاشم

---

[1] أنظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص: 49.

[2] وذلك بقوله: ((لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة، وسَمَوْا إلى طلبها من أيدي بني العباس؛ بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف. لبني أمية أولا، ثم لبني هاشم؛ من بعدهم. فخرجوا بقاصية المغرب، ودَعَوْا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة؛ مرة بعد أخرى؛ فأوربة، ومغيلة؛ للأدارسة. وكتامة، وصنهاجة، وهوارة؛ للعبيديين. فشيدوا دولهم، ومهدوا بعصائبهم أمرهم. واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله، ثم إفريقية)). المقدمة، ج: 2، ص: 635.

المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهنِ والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ـ هنا ـ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ـ في تلك الجهات ـ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ـ بالفعل ـ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضهم ـ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ـ في خلافة الرشيد ـ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ـ في أيامه ـ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة 170هـ؛ واستوطن وليلي ـ وكانت أزلية ـ

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[1] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[2] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود،

وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[1] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

[2] المغرب، ص: 118.

وبايعته طوعا؛ على السمع والطاعة؛ اعترافا منها بفضله ونبله، وتبركا بنسبه الشريف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنها وجدت فيه عاملا هاما؛ يساعدها في كبح أطماع ولاة القيروان.

هذا ولم يبق إدريس في موقف المنتظر بعد إعلان البيعة له؛ بل نهض إلى الغزو والجهاد بمجرد إحساسه باكتمال قوته. فزحف على بقايا اليهود والنصارى والوثنيين؛ في: قندلاوة وبهلوانة وفازاز وتامسنا وشالة وتادلة. ولما أخضع تلك الديار بقبائلها؛ اتجه شرقا؛ حيث فتح تلمسان صلحا؛ بعد أن خرج إليه محمد بن خزر بن صولات المغراوي؛ طالبا الأمان، ومقدما بيعته، وبيعة أعيان قبيله، ووجوه تلمسان.[1]

وهكذا أصبحت الدولة الإدريسية قوة يحسب حسابها. فأحس الخليفة العباسي ــ هارون الرشيد ــ بالخطر الذي يمثله إدريس؛ بوجوده على رأس تلك الدولة النائية؛ والتي تزداد قوة وثراء كلما مر الزمن. كما تشتد صلابة وحصانة مع مرور الأيام؛ بفضل تلك القبائل الأمازيغية الملتفة حولها، والحارسة على أمنها وأمن عدوه. ولما شعر بهول الموقف؛ قرر من فوره اللجوء إلى الأسلوب المتاح لديه؛ والأكثر أمانا له ولجيوشه. ويتمثل ذلك الأسلوب في الخديعة والاغتيال.

---

[1] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 7 ــ 8. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ــ 192. والعبر، مج: 4، ص: 24.

لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ـ منذ أيام الدولة الأموية ـ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ـ بمعاونة مساعديه ـ قصد وضع خطة لقتل إدريس ابن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان بن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ـ عن نفسه وعن الخليفة ـ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت

وتم ـ بالفعل ـ ما خطط له يحيى بن خالد؛ إذ قام حريز الجزري هذا ـ بفضل ما كان يتمتع به من دهاء ومكر ـ بتنفيذ الخطة بدقة

نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ـ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ـ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ـ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ـ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ـ في جماعة من أصحابه ـ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ـ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ـ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ـ 194.

ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام إديس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس ـ كما تقول بعض المصادر ـ يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

---

[1] في هذا يقول ابن زرع: ((لم يكن لإدريس ـ حين وفاته ـ ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. ـ قال عبد الملك بن محمود الوراق ـ في كتاب المقباس ـ والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله ـــ لما توفي ـ لم يترك ولدا مولودا؛ إلا أنه ترك جارية له ـ مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة ـ حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس ـ بعد فراغه

ـ حكومة إدريس الثاني:

هذا ولم يحقق هارون الرشيد هدفه الأساسي؛ على الرغم من كل ما حشده؛ من تحرشات ومؤامرات؛ بغرض القضاء على الدولة الإدريسية، والإطاحة بها؛ خاصة بعد مقتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله. إذ أنها تمكنت من البقاء والاستمرار في الوجود؛ خاصة بعد ميلاد ولي العهد الذي سمي ـ أيضا ـ إدريسا؛ تيمنا بأبيه وإحياء لذكراه. بل ظهر ـ كذلك ـ أن هذه الدولة تعزز شأنها، وشاع ذكرها، وقوي ملكها، واستفحل أمرها في عهد إدريس بن إدريس؛ خاصة عندما أضحى عاهل الدولة ـ هذه المرة ـ يجمع بين عصبيتين: الهاشمية والأمازيغية. إذ أصبح له فضل أبيه؛ بنسبه الشريف، إلى جانب ما له من لحمة وانتساب للأمازيغ؛ بحكم نسب أمه؛ التي ينسبها بعضهم إلى قبيلة نفزة البترية؛ أو قبيلة أوربة البرنسية كما يرى آخرون. هذا وقد سهر الوصي على إدريس

من دفن إدريس ـ فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدا؛ إلا حملا بجاريته كنزة؛ وهي في الشهر السابع من حملها؛ فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها؛ فإن كان ذكرا ربيناه؛ فإذا بلغ مبلغ الرجال؛ بايعناه تبركا بأهل البيت، وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن كانت جارية؛ نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلا لذلك. فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك؛ مالنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس... حتى تضع هذه الجارية)). الأنيس المطرب، ص: 10. أنظر أيضا: المغرب، ص: 122. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 195.

وعلى ملكه ــ مولاه راشد ــ في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها ــ ولاة القيروان ــ والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً – بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد – شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي – أيضا – إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا – مرة أخرى – يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم.

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أرْدَيْتُ رَاشِداً
وَإنِّي بِأخْرَى لابْنِ إدْرِيسَ رَاصِدُ
تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ
بِمَحْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأتْهَا المَكَايِدُ
وتَاهَ أخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدِ
وَقَدْ كُنْت فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

وعليه فقد توصل ابن الأغلب ـ والي العباسيين على القيروان ـ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ـ بعد فترة سيأتي ذكرها ـ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ـ مع مرور الوقت ـ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ـ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ـ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2]

---

[1] كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: **29**.

[2] فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ـ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ـ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه

غير أن هذا السلوك أغضب شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ فطفح كيله في هذه المرة؛ وتململت عصبيته؛ خاصة أنه سبق أن استاء من تصرف إدريس الثاني؛ بعد أن رأى قبيلته وأهل عصبيته يفقدون ـ يوما بعد يوم ـ مواقعهم المتميزة؛ وأخذت حظوتهم السابقة في البلاط تتلاشى.

وذلك أنه بعد اتساع نفوذ الدولة، وانضمام قبائل أمازيغية عديدة (بترية وبرنسية) إليها؛ نال بعضهم حظوة عظيمة، وقربا ملحوظا في بلاط الإمام إدريس. فلم يستسغ شيخ أوربة هذا الأمر؛ ولكنه سكت على مضض. غير أنه رأى ـ مرة أخرى ـ تماديا؛ في ذلك السلوك الذي اعتبره مجحفا ومثيرا. فلم يتقبل ما شاهده من حظوة وعناية تلاقيهما وفود العرب؛ تلك الحظوة التي كانت في السابق موقوفة عليه، وعلى قومه لا غير. نظرا لكونهم أصحاب الفضل الأول في قيام الدولة.

كان فريدا بين البربر؛ ليس معه عربي؛ فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي؛ وكان من فرسان العرب وساداتهم؛ ولأبيه مصعب مأثرة عظيمة بإفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة. واستقضا منهم عامر بن محمد ابن سعيد القيسي ـ من قيس غيلان ـ وكان رجلا صالحا ورعا فقيها؛ سمع مالكا وسفيان الثوري، وروى عنهم[ا] كثيرا؛ ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد؛ ثم جاز إلى العدوة؛ فوفد بها على إدريس؛ فيمن وفد عليه من العرب)). الأنيس المطرب، ص: 13.

وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان – الثاني في الدولة – لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد – بنفسه – الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: **"فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار".**[2]

---

[1] المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.

[2] حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية

وبعــد هــذا تفاقمــت عزلــة أوربــة، وازداد نفوذهــا ضعفــا وفتــورا. حــدث ذلــك ـــ عــلى الخصــوص ـــ بعــد انتقــال عاصمــة الدولــة مــن وليــلي إلى مدينــة فــاس ـــ الحاضــرة الجديــدة للدولــة ـــ وهي الــتي أنشأهــا إدريــس الثــاني لهــذا الغــرض؛ حــتى تستوعــب القبائــل التابعــة للدولــة جميعهــا؛ خاصــة وأن مــن القبائــل ـــ الــتي التحقــت بخدمــة الدولــة الإدريسيــة ـــ مــا يفــوق قبيلــة أوربــة عــددا وعــدة. فتعــزز بهــم مركــز مدينــة فــاس، وازدهــر العمــران بهــا، وأينعــت حضارتهــا، فغــدت مصــدر إشعــاع حضــاري وثقــافي عظيــم بالمغــرب. وقــد ساعدهــا مركزهــا المتميــز، وموقعهــا الجيــد، وثرواتهــا: المائيــة والفلاحيــة والمعدنيــة؛ عــلى مضاهــاة كبريــات الحواضــر الإسلاميــة آنئــذ.[1]

بأجمعهــم؛ وهــذا يدافــع الأقــارب؛ لا يظاهــره عــلى مدافعتهــم إلا الأقــل مــن الأباعــد؛ فيركــب صعبــا مــن الأمــر)). المقدمــة، ج: 2، ص: 664.

[1] أنظــر الأنيــس المطــرب؛ ففيــه عــرض وافي لمدينــة فــاس.

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[1]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[2] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود،

---

[1] **ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:**

قُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَة عِشْ بهَا
لاَ يَحْسدَنَّكَ فِي بِلاَدِكَ حَاسِدُ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفَةَ
هَيْهَاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِكَ بَارِدُ
لَمَّا رَأيْتُكَ لِلِّئَامِ مُصَافِياً
أيْقَنْتُ حَقّاً أنْ جَدَّكَ رَاشِدُ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير؛ بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس؛ بما هو أوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[2] **المغرب، ص: 123.**

ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[1]

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[2] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان بن

---

[1] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فأسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر. المغرب، ص ص: 123 ـ 124. الأنيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 202.

[2] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ـ 205.

والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ـ 28.

عبد الله.[1] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي ابن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[2] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

[1] العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه أخطأ. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 205.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟

- حكومة ابني محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا - بعد وفاته - ابنه عليٌّ؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا - على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنة عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر - النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[1] ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى - بعد موته سنة 234هـ (848م) - أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[2] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة

[1] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا - في مرضه - وهو ابن تسع سنين؛ فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

[2] هنا يختلف المؤرخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي ابن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى ابن إدريس بن عمر بن إدريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبر، 29.

الإدريسية في عهده كما قيل.[1] حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحيى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحيى هذا سنة....**)).[2]

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ـــ 30.

[2] العبر، مج: 4، ص: 30.

كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة – حسب قولهم – من عهد الدولة الإدريسية.

– حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى ابن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم – بعد ذلك – والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومـة عـلي بـن عمـر بـن إدريـس:

كـان هـذا الأميـر يحكـم بـلاد الريـف؛ ولمـا ثـار سكـان فـاس عـلى أميرهـم يحـيى؛ استـدعى أعيـان الدولـة عليـا هـذا ليتـولى الحكـم بفـاس؛ فقـدم إليهـا في ظـروف غامضـة؛ حيـث بويـع مـن طـرف أهـل الحـل والعقـد. ولـم تشـر المصـادر المتوفـرة إلى تاريـخ ولايتـه، ولا تاريـخ سقـوط حكمـه. وكـل مـا ذكـر هـو أن الدولـة في عهـده مـرت بمراحـل حرجـة ـ نتيجـة لظـروف خارجيـة وداخليـة ـ سـادت فيهـا الاضطرابـات والفتـن بيـن الأميـر عـلي وبعـض الثـوار مـن الصفريـة؛ بقيـادة عبـد الـرزاق الفهـري الخـارجي؛[1] الـذي كـان متمركـزا بجبـال ويـلان بمديونـة؛ جنـوب فـاس. فتغلـب هـذا الثائـر الصفـري عـلى عـلي بـن عمـر، وأخرجـه مـن فـاس؛ ثـم اضطـره للفـرار إلى بـلاد أوربـة. هـذا ولـم يتمكـن عبـد الـرزاق الصفـري مـن الاستيـلاء عـلى عـدوة القيروانييـن؛ فاكتـفى بعـدوة الأندلسييـن؛[2] حيـث بـقي فيهـا إلى أن ظهـر الأميـر يحـيى بـن القاسـم. وهـو كمـا يظهـر مـن اسمـه يتبـع الفـرع الثـالـث مـن أبنـاء إدريـس؛ أي فـرع القاسـم ابـن إدريـس.

---

[1] سبـق الحديـث عنـه عنـد التطـرق للأمـراء الثائريـن مـن الخـوارج؛ في الفصـل السابـق.

[2] تبـقى الفتـرة الزمنيـة الفاصلـة مـا بيـن مـوت عـلي بـن محمـد؛ وتـولي يحـيى ابـن إدريـس بـن عمـر غامضـة وغيـر واضحـة المعالـم. والمصـادر التاريخيـة كلهـا تتخلـص مـن الموضـوع بجمـل خاطفـة لا تفيـد.

ـ حكومــة يحــيى بــن القاســم بــن إدريــس:

ولمـا انهـزم علي بـن عمـر أمـام عبـد الـرزاق الصفـري؛ ودخـول هـذا الأخيـر عـدوة الأندلسيين؛ أرسـل أهـل العـدوة الأخـرى في طلـب يحـيى بـن القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس الملقـب بالمقـدام أو العـدام؛[1] وقـد تمكـن هـذا الأميـر الحـازم مـن استرجـاع عـدوة الأندلسيين؛ بعـد أن طـرد منهـا الخـوارج. وشـدد ـ مـن هنـاك ـ الضغـط علـى أولئـك الثـوار الصفرية، ولاحقهـم في معاقلهـم، وكانـت لـه معهـم وقائـع هامـة؛ ولكنـه لـم يهنـأ طويـلا؛ إذ اغتالـه شخـص سمتـه المصـادر ـ دون توضيـح يذكـر ـ بالربيـع بـن سليمـان سنـة 292هـ (904م). وبموتـه عـاد عـرش الدولـة إلى أسـرة عمـر بـن إدريـس مـرة أخـرى؛ مـن خـلال الأميـر يحـيى بـن إدريـس بـن عمـر. وعلـى الرغـم مـن الأحـداث الكبـرى الـتي عرفتهـا هـذه الفتـرة ـ ولـو كانـت قصيـرة ـ فـإن المصـادر التاريخيـة وقفـت عاجـزة عـن تقديـم شـيء مهـم للقـارئ.

[1] يقـول البكـري وابـن الخطيـب: أنـه عـرف باسـم العـدام، أمـا ابـن أبي زرع وابـن عـذاري فيسميانـه العـوام، أمـا ابـن خلـدون فيسميـه الصـرام. ويبـدو أن الاسـم تعـرض للتحريـف.

ـ حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس ـ من جديد ـ إلى أسرة عمر بن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها. وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[2] ومع هذا لم يسعفه الحظ

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية ـ كما نذكره في دولة كتامة ـ ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

[2] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين، وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة ابن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثرَتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسى بن أبي العافية ـ صاحب تسول وبلاد تازا ـ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة ـ كما سبق ذكره ـ حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ والسلطان ـ في تلك الديار ـ بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر ـ من فوره ـ إلى منح شيخ مكناسة ـ موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي ـ

الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه ـ في قوم من وجوه عسكره ـ فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: 48 ـ 49.

ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء – المتخذ من طرف مصالة – يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى بن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان – في الحقيقة – يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

---

[1] حيث يقول: ((ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هَرَمِهَا ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجْمَعُ لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل

وهكذا استمر موسى بن العافية في إلحاحه على ابن عمه مصالة؛ حتى حقق له مآربه كلها. حدث ذلك عندما قدم في المرة الثانية إلى غرب البلاد؛ أين قبض على أمير الدولة الإدريسية يحيى بن إدريس؛ في سنة 309هـ (921م)؛ بخديعة دبرها وأحكمها؛ ثم سلط عليه صنوفا من العذاب والإهانة. كما سلبه ذخائره وممتلكاته؛ وبعدها نفاه إلى أصيلا؛ حيث ساءت حاله؛ واشتدت عزلته؛ وتعاظمت حاجته، وازداد فقره؛ فخرج منها إلى الريف في رعاية بني عمه الأدارسة هناك؛ ولكنه قرر بعد ذلك التوجه إلى إفريقية؛ طمعا في استعطاف السلطان الفاطمي؛ فاعترض طريقه موسى ابن العافية؛ وسجنه عنده زهاء عشر سنين، ثم أطلق سراحه؛ فسار إلى المهدية ــ التي كانت آنئذ محاصرة من قبل أبي يزيد صاحب الحمار ــ فمات بها جوعا وكمدا سنة 332هـ (943م).[1] أما فاس فقد ولى مصالة عليها ريحان بن علي الكتامي؛ إلى أن قام عليه أمير آخر من أسرة الأدارسة.

العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها؛ تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها)). المقدمة، ج: 2، ص: 610.

[1] المغرب، ص: 126. والأنيس المطرب، ص: 49. والعبر، مج: 4، ص: 32.

ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاَّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلَسْتُ بحَاجِمٍ

وَلَكنْ لِضَرْبِي فِي مكانِ المَحَاجِمِ

---

[1] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[2] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد ابن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام.

[1] الأنيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.

ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فرّ منه.[1]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[2] وذكر ابن حزم من ذرية

---

[1] المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.

[2] رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم ـ أخي الحسن ـ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر

الحسن الحجام: **((القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري)).**[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: **((وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض)).**[2]

ابن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ــ 33.

[1] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ــ وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ــ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ــ كما سبق ذكره ــ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: **"فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"**.[1] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ــ أيضا ــ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ــ في الغالب ــ لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو ــ في الغالب ــ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ــ بالملك والترفه ــ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون

وجزر؛ خلص الأمر إلى سقوط ما بقي من قلاع للصمود في الدولة الإدريسية؛ تحت ثقل الدولة الأموية بالأندلس سنة 365هـ (975م). ولكن كيف حدث كل ذلك..؟

****

ـ عصر التفكك والشتات:

أخذت الدولة الإدريسية في التفكك إلى أجزاء صغيرة، وأطراف منفصلة؛ اعتبارا من تاريخ سقوط حكومة الحسن الحجام؛ أي في بداية العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ـ حيث غدت تشبه قطرة من زئبق سقطت على مسطح؛ فتفتتت إلى جزيئات؛ تناثرت في كل الجهات. ومع هذا فقد بقيت خلايا تلك الدولة تنبض بالحياة؛ وإن تفككت

على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول؛ أو على ظن من وجودها فيهم. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية؛ بما هم فيه من ملكة القهر؛ ويبلغ فيهم الترف غايته؛ بما تفنقوه [أي تنعموا] من النعيم، وغضارة [أي النعمة والسعة] العيش؛ فيصيرون عيالا على الدولة؛ ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم؛ وتسقط العصبية بالجملة... وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة سنة على ما مر. ولا تعدو الدول ـ في الغالب ـ هذا العمر؛ بتقريب قبله أو بعده؛ إلا إذا عرض لها عارض آخر؛ من فقدان المطالب؛ فيكون الهرم حاصلا مستوليا؛ والطالب لم يحضرها؛ ولو قد جاء الطالب؛ لما وجد مدافعا. "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" [من الآية 61 من سورة النحل]]). المقدمة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

لحمتها، وانشطرت كتلتها، وتناثرت أجزاء وأطرافا. وأضحت عبارة عن مجموعة من الكيانات التي تحكم المدن.. وإمارات مجهرية ذات طابع قبلي؛ موزعة عبر التراب المغربي كله؛ وكانت كلها تحظى بحماية ورعاية عجيبة من طرف القبائل المغربية المختلفة. وحدث ذلك خاصة في مناطق الساحل الشمالي للمغرب، وبلاد الريف، وجبال غمارة.

غير أنه برز من بين تلك الإمارات إمارتان إدريسيتان منفصلتان ومتنافستان: الأولى إمارة بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛[1] وكانت تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. وهو الذي بنى قلعة منيعة ليتحصن فيها مع أسرته وبني عمومته؛ وتسمى حجر النسر؛ وذلك في سنة 317هـ (929م)؛[2] وكانت هذه القلعة تربض على ذروة جبل شاهق صعب

---

[1] ذكر البكري أنهم: ((حسن وجنون [واسمه الحقيقي أحمد. ومعنى جنون بالأمازيغية القمر] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم. وكان محمد متخلفا في إخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه. وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون وحنون ابنا إبراهيم. واسم جنون [قنون] القاسم [وهو غير جنون الأول ابن محمد بن القاسم بن إدريس؛ الذي يسمى أحمد])). المغرب، ص ص: 128 ـ 129. أنظر أيضا الجمهرة، ص: 49.

[2] المغرب، ص: 127. واضطرب ابن خلدون في هذا الخبر؛ حيث ذكر ـ مرة ـ أن باني القلعة هو إبراهيم بن محمد؛ ـ ومرة أخرى ـ قال أن الذي بناها هو محمد بن إبراهيم بن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

المنـــال؛ في نـــواحي الريـــف بجبـــال غمـــارة. أمـــا الإمـــارة الثانيـــة فـــهي لبـــني عمـــر بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس؛ بقيـــادة أبي العيـــش[1] بـــن إدريـــس بـــن عمـــر بـــن إدريـــس؛[2] وقامـــت في جهـــات تيقيســـاس (تيكيســـاز) وسبتـــة وطنجـــة مـــن بـــلاد غمـــارة. وعـــلى هـــذا تكـــون قبيلـــة غمـــارة قـــد برهنـــت عـــلى أنهـــا مـــن أخلـــص قبائـــل المغـــرب لبـــني إدريـــس؛ حيـــث احتضنوهـــم، وآووهـــم في بلادهـــم، وأخلصـــوا الطاعـــة لهـــم جميعـــا؛ ســـواء كانـــوا مـــن بـــنى إبراهيـــم بـــن محمـــد بـــن القاســـم، أو مـــن بـــني عمـــر بـــن إدريـــس.[3]

---

[1] منعـــا لكـــل التبـــاس؛ مـــن الواجـــب التنبيـــه إلى أن اسـم أبي العيـــش مستعمـــل في عائلـــتي الأدارســـة وبـــني سليمـــان. وثمـــة عـــدد مـــن الأشخـــاص يسمـــون بهـــذا الاســـم.

[2] يقـــول البكـــرى: ((وأمـــا إدريـــس بـــن عمـــر بـــن إدريـــس فهـــو لبـــاب ولـــد عمـــر ابـــن إدريـــس؛ وبولـــده تكـــرر الأمـــر؛ إلى أن أكثرهـــم بنـــو محمـــد بـــن القاســـم. ومحمـــد بـــن إدريـــس بـــن عمـــر هـــو المعـــروف بابـــن ميالـــة؛ يكـــنى أبـــا العيـــش؛ ولـــم يـــزل مواليـــا للناصـــر عبـــد الرحمـــن رحمـــه اللـــه... وكـــان لإدريـــس بـــن عمـــر خمســـة مـــن الولـــد الذكـــور غيـــر هذيـــن [يقصـــد أبـــا العيـــش محمـــدا ويحـــيى الـــذي تـــولى الملـــك بفـــاس]؛ ولهـــم عقـــب كثيـــر)). ثـــم يضيـــف: ((وأمـــا أبـــو العيـــش بـــن عبيـــد اللـــه فولـــد حمـــودا ويحـــيى. فأمـــا يحـــيى فلـــه بنـــون بتازغـــدرا. وأمـــا حمـــود فولـــد القاســـم وعليـــا وفاطمـــة. فأمـــا عـــلي فـــولي الخلافـــة بالأندلـــس سنـــة سبـــع وأربعمائـــة)). المغـــرب، ص ص: 132 ــ 133.

[3] يقـــول ابـــن خلـــدون في هـــذا: ((واستـــولى ابـــن أبي العافيـــة عـــلى فـــاس، وأعمـــال المغـــرب؛ وأجـــلى الأدارســـة وأحجرهـــم بحصنهـــم حجـــر النســـر؛ وتحيـــزوا إلى جبـــال غمـــارة وبـــلاد الريـــف. وكـــان لغمـــارة في التمســـك بدعوتهـــم آثـــار ومقامـــات؛ واستجدوا بتلـــك الناحيـــة ملكـــا؛ توزعـــوه قطعـــا. كـــان أعظمهـــا لبـــني محمـــد هـــؤلاء، ولبـــني عمـــر بتيفيســـاس ونكـــور وبـــلاد الريـــف)). العبـــر، مج: 6، ص: 448.

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[1] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[2]

[1] وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ــ دماء الأدارسة خصوصا ــ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة، ص: **154**.

[2] قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والأشياخ؛ فأجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة أصيلا، ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين، مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم،

وذلك أنه لما حاصرهم في قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء ـ نهائيا ـ على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[1] وقد كان هذا الأمير ـ في تلك

وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛ يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. أنظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى أبناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول لكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة؛ وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب، ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها إلى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق: ((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس

الأثنـــاء ـــ داخـــلا في طاعـــة الفاطمييـــن؛ فحاصـــره ابـــن أبي العافيـــة، وأخرجـــه مـــن تلمســـان، ومـــن جـــراوة في سنـــة 319هـــ (931م)؛ واضطـــره للالتحـــاق بمدينـــة مليلـــة؛ حيـــث تحصـــن بهـــا؛ إلى أن تحيـــن الفرصـــة المواتيـــة. وبعـــد ذلـــك توجـــه ابـــن أبي العافيـــة إلى مدينـــة نكـــور؛ فاحتلهـــا هي الأخـــرى سنـــة 320هـــ (932م). وكـــان في هـــذه الأثنـــاء؛ قـــد نقـــل بيعتـــه مـــن الفاطمييـــن بإفريقيـــة، إلى عبـــد الرحمـــن الناصـــر لديـــن اللـــه الأمـــوي بالأندلـــس.

وتعتبـــر هـــذه الخطـــوة الـــتي قـــام بهـــا ابـــن أبي العافيـــة هي بدايـــة نهايتـــه؛ إذ أرســـل عبيـــد اللـــه الشيـــعي جيشـــا فاطميـــا ـــ في البدايـــة ـــ بقيـــادة حميـــد بـــن يصليتـــن أو يصـــلي (عمـــه هـــو مصالـــة). فتمكـــن مـــن طـــرد مـــوسى مـــن فـــاس، وإجبـــاره عـــلى التحصـــن في نـــواحي تســـول. ولمـــا لـــم تكـــن حملـــة يصـــلي حاسمـــة فقـــد جـــرد عبيـــد اللـــه الشيـــعي جيشـــا آخـــر بقيـــادة

العلـــوي. ودارت بينهمـــا محاربـــات ومواقعـــات. وبـــنى الحســـن بـــن أبي العيـــش حصنـــا منيعـــا؛ بجبـــل بينـــه وبيـــن جـــراوة أربعـــة أميـــال؛ وحولـــه قـــرى لمدغـــرة وبـــني يفـــرن وغيرهـــم مـــن القبائـــل. وكـــان لأبي العيـــش أيضـــا وبنيـــه مدينـــة تلمســـان ومـــا والاهـــا؛ يسكنهـــا مثـــل زواغـــة ونفـــزة وغيـــر ذلـــك. وفي ذلـــك يقـــول بكـــر بـــن حمـــاد [كامـــل]:

سَائِـــلْ زُواغَـــة عن طعان سُيوفِـــه ... ورماحـــه في العَـــارِضِ المُتَهَلِـــل
وديـــار نَفـــزة كَيـــفَ دَاسَ حَرِيمَهـــا ... والخيـــلُ تمـــرغ في الوشيج الذُبَّـــل
وغـــشَّى مَغيلـــة بالسيـــوف مُذِلـــةً ... وسقىَ جَـــراوة من نَقِيـــع الحنظـــل)).

وجـــراوة في البيـــت الأخيـــر؛ تعـــني القبيلـــة؛ وليســـت المدينـــة. أنظـــر البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 ـــ 200.

ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك – على الأخص – انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس – بفرعيهم – حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس.

---

[1] **اختلفت الأقوال – أيضا – حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.**

فكانوا بذلك يترصدون الأحداث، ويتربصون حلول الفرص المناسبة – من تلك المواقع المنيعة – للانقضاض على أعدائهم. وقد اضطروا أحيانا؛ إلى عقد أحلاف، وعهود مع خصومهم السابقين؛ من أجل تحقيق أهدافهم الأساسية؛ التي تتمثل: في القضاء على عدوهم الرئيسي موسى بن أبي العافية؛ ثم العودة إلى فاس؛ الأمر الذي يحقق لهم تطهير أراضيهم بعد ذلك نهائيا من الدخلاء والمحتلين؛ سواء كانوا من الفاطميين الشيعة، أم من الأمويين.[1]

وبالفعل فقد سارعوا إلى عقد حلف مع الفاطميين – وإن كان ذلك لبعض الوقت – حينما كانت جيوش الشيعة تطارد موسى بن أبي العافية؛ الأمر الذي مكنهم من استرجاع معظم أملاكهم بالمغرب.[2] كما سعوا إلى مصانعة، الأمويين

---

[1] كانوا يناورون بين الأمويين والفاطميين. أنظر: المغرب، ص ص: 128 – 134. وروض القرطاس، ص ص: 53 – 59. والعبر، مج: 6، ص ص: 448 – 454.

[2] ومما قاله عنهم البكري: ((ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب في سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة... حاصر موسى بن أبي العافية؛ وتولى معاظم تلك الحروب بنو إدريس؛ حتى جلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء؛ وصار ما كان بيده إلى آل إدريس؛ والرياسة منهم في بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهم: حسن وجنون [كنون] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم؛ وكان محمد متخلفا في اخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه؛ وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون [كنون] وحنون ابنا إبراهيم؛ واسم جنون [كنون] القاسم... وكان أعلى بني محمد كلهم أيدا أبو العيش بن جنون [كنون] بن محمد؛ وكان له من البلد ما بين أجاجن؛ وهو بقبلي حجر

بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ــ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ــ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولمّ شملهم. غير أن ذلك ــ كما يبدو ــ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرًّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128ــ 130.

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ــ بني محمد ــ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعته، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل

وهكـذا فما أن خلصـوا مـن أطمـاع مـوسى بـن أبي العافيـة والشيعـة؛ حـتى تورطـوا في أطمـاع أخـرى أشـد وأكثـر شراهـة ونفـاذا؛ تلـك هـي أطمـاع عبـد الرحمـن الناصـر حاكـم الأندلـس؛ الـذي وضـع كـل مـا في حوزتـه مـن قـوة ودهـاء؛ لـكي يمنـع وصـول الفاطميـين إلى حـدود مملكتـه. إذ أن خوفـه مـن امتـداد نفـوذ الفاطميـين الأقويـاء إلى حـدود دولتـه الجنوبيـة؛ في الطـرف المقابـل مـن العـدوة؛ ألزمـه وحتـم عليـه العمـل الجـاد؛ لـكي يحـول بيـن الفاطميـين وبيـن تحقيـق أهدافهـم البعيـدة المـدى. تلـك الأهـداف الـتي تـرمي إلى الانفـراد بالخلافـة الإسلاميـة غربـا وشرقـا؛ بحكـم أنهـم يـرون في أنفسهـم أحـق النـاس بهـا؛ لأنهـم مـن أبنـاء فاطمـة الزهـراء؛ الـتي تجعلهـم خيـر مـن يمثـل أهـل البيـت.

إليـه، والاعتـراف بحقـه)). دولـة الأدارسـة، ص: 158. هـذه حـال بـني إدريـس؛ بعـد أن غـزت الشيخوخـة دولتهـم، وبعـد فسـاد عصبيتهـم. وعليـه فقـد وجـد الخليفـة الأمـوي الأرضيـة صالحـة لاكتسـاح بلادهـم وضـم أراضيهـم وأملاكهـم إليـه.

وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ـ بعد ذلك ـ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ـ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ـ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ـ بسهولة ـ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ـ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ـ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ــ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ــ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ــ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ــ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ــ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ــ في الأيام الأخيرة ــ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم

ــ حكومــة أبي العيــش أحمــد بــن القاســم (قنــون):

وبهــذا العــرض يتضــح أن الدولــة الإدريسيــة الأولى بفــاس؛ قــد انقطعــت في حــدود سنــة 311هــ (923م) تقريبــا. وإذا أخذنــا بعيــن الاعتبــار الفتــرة الزمنيــة الــتي كــان فيهــا الأدارســة يناضلــون مــن أجــل استعــادة دولتهــم؛ وذلــك انطلاقــا مــن مواقعهــم المنيعــة في بــلاد الريــف وغمــارة؛ تكــون دولــة الأدارســة الثانيــة قــد أخــذت شكــلا مغايــرا لمــا كانــت عليــه مــن قبــل؛ حيــث تقلــص نفــوذ أصحابهــا؛ بــل أضحــوا تابعيــن لغيرهــم. كمــا اتخــذت الدولــة الإدريسيــة الجديــدة عاصمــة أخــرى لهــا غيــر مدينــة فــاس. وقــد تــم ذلــك ــ في البدايــة ــ بقلعــة صخــرة النســر؛ وأخيــرا بمدينــة البصــرة.[1] إذ بــدأت ــ في تلــك النــواحي ــ تتبلــور صــورة دولتهــم الجديــدة؛ تلــك الدولــة الــتي بــرز فيهــا

تغلــب عليهــم المروانيــون، وأثخنوهــم إلى الأندلــس ثــم أجازوهــم إلى الإسكندريــة. وبعــث العزيــز العبيــدي ابــن كنــون منهــم لطلــب ملكهــم بالمغــرب؛ فغلبــه عليــه المنصــور بــن أبي عامــر، وقتلــه. وعليــه كــان انقــراض أمرهــم، وانقــراض سلطــان أوربــة مــن المغــرب. وكــان مــن أعقــاب الأدارســة الذيــن أووا إلى غمــارة؛ فكانــوا الدائليــن مــن ملــوك الأمويــة بالأندلــس. وذلــك أن الأدارســة لمــا انقــرض سلطانهــم؛ صــاروا إلى بــلاد غمــارة، واستجــدوا بهــا رياســة، واستمــرت في بــني محمــد، وبــني عمــر مــن ولــد إدريــس بــن إدريــس؛ وكانــت للبربــر إليهــم ــ بسبــب ذلــك ــ طاعــة، وخاصــة. وكــان بنــو حمــود هــؤلاء مــن غمــارة؛ فأجــازوا مــع البربــر؛ حيــن أجــازوا في مظاهــرة المستعيــن. ثــم غلبــوه ــ بعــد ذلــك ــ علــى الأمــر، وصــار لهــم ملــك الأندلــس)).العبــر، مج: 4، ص ص: 33 ــ 34.

[1] هــذا طبعــا بالنسبــة إلى فــرع القاســم بــن إدريــس؛ لأنهــم هــم الذيــن يمثلــون صمــود الأســرة الإدريسيــة.

الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ـ بعد أن خلف والده ـ إلى قطع الدعوة عن

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] أنظر المغرب، ص ص: 127 ـ 128.

الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش – في الوهلة الأولى – بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع – في الأخير – نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه – في حقيقة الأمر – لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع – بعد مدة – أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد

المغرب؛ وانقياد القبائل الأمازيغية إليه؛ بعث إليه يستأذنه في الانتقال إلى الأندلس بهدف الجهاد في الثغور. فلبى عبد الرحمن طلبه؛ مبديا فرحه وسروره.[1] وتقول المصادر أن حياة أبي العيش انتهت باستشهاده في ميدان الجهاد بالأندلس سنة 347هـ (958م).[2] وكان أبو العيش قد استخلف في أعماله ــ عند مسيره للأندلس ــ أخاه الحسن بن قنون (كنون). وهذا الأخير هو صاحب الدولة الإدريسية الثانية بالبصرة وفاس. كما يعتبر آخر ملوك هذه الدولة في المغرب الأقصى. وهنا لا بد من عرض الكيفية التي وقعت بها تلك الأحداث.

[1] يقول في هذا ابن أبي زرع: ((فلما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة؛ كتب إليه ــ إلى قرطبة ــ يستأذنه في الجهاد؛ فأذن له؛ وأمر أن يبنى له في كل منزل ينزله قصرا؛ من الجزيرة الخضراء إلى الثغر؛ وأن يجرى له فيه ألف دينار في كل يوم ضيافة؛ ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر. فلم يزل في ذلك حتى وصل إلى الثغر. فكانت منازله في رحلته من الجزيرة ثلاثين منزلا)). الأنيس المطرب، ص: **54**. أنظر أيضا المغرب، ص: **120**. وأعمال الأعلام، ق: **3**، ص ص: **218 ــ 219**.

[2] اختلفت الأقوال حول تاريخ وفاته؛ فابن أبي زرع وابن خلدون يقولان أنها حدثت في سنة **343**هـ؛ بينما يرى ابن الخطيب أنها وقعت في سنة **346**هـ؛ بينما يخطئ البكري حين يقول أنها حصلت في سنة **332**هـ. أما إسماعيل العربي فيجزم بأنها حدثت في سنة**347**هـ. الأنيس المطرب، ص: **54**. وأعمال الأعلام؛ ق: **3**، ص: **219**. والعبر، مج: **6**، ص: **450**. ودولة الأدارسة، ص: **179**.

ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه ــ من مخرج ــ سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم ــ طبعا ــ بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري ابن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة ــ على جميع بلاد المغرب ــ لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م).

صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ـ بعد ذلك ـ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ـ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ـ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ـ آنئذ ـ إذ لا تسند إليه ـ في العادة ـ إلا المهمات الصعبة

---

[1] المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.

والخطيرة. ووصفه ابن خلدون بقوله: ((**البعيد الصيت، المعروف بالشهامة**)).[1]

ـ ثانيا: إعداد خطة محكمة لقتال الحسن بن قنون. لأنه من خلال تجربة الوقائع الأولى؛ ثبت عدم صلاحية الخطط المتبعة فيها؛ بسبب ما شابها من ارتجال واستخفاف بالعدو. لذلك فقد أخذ الخليفة الحكم بعض الوقت لنفسه؛ بهدف التفكير والتشاور وضبط الخطة القتالية التي ستتبع؛ قبل أن يغامر مرة أخرى. وحتى قواته التي مازالت متمركزة في بلاد العدوة؛ فقد أرسل لهم أمرا باجتناب الاشتباك مع قوات حسن بن قنون؛ وأن ينتظروا الأوامر الجديدة.[2] ولما كان الحسن بن قنون قد اعتمد حرب الكر والفر؛ التي تعرف الآن بحرب العصابات؛ فقد كان على المستنصر ومعاونيه أن يبلوروا خطة عسكرية فعالة؛ حتى يتمكنوا من كسر عنفوان وشدة الهجمات؛ التي اعتاد الحسن بن قنون شنها على حين غرة.

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 451. أما ابن أبي زرع فيقول: ((فبعث إليهم قائد عسكره وصاحب حروبه غالبا مولاه. وكان غالب على غاية من الحزم والنجدة والدهاء والإقدام)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] في هذا يقول ابن حيان: ((فتضمن الجواب إليهم [أي جواب الخليفة المستنصر إلى قواده في بر العدوة] أن الرأي؛ ترك الحركة إليه [أي إلى الحسن] والتعرض لحربه؛ حتى يلحق بهم الوزير القائد الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص: 103.

ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ـ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ـ هذه المرة ـ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ـ لهذه الحملة ـ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

غالب بن عبد الرحمن الأسطول ـ بجيشه ـ متجها إلى طنجة.[1] ومع ذلك لم يتوقف مدد المستنصر لجيش غالب بالعساكر والمال والعتاد الحربي؛ بل استمر ذلك الخليفة الحازم في إرسال التعزيزات وراء التعزيزات؛ دون تحفظ أو تردد.[2]

---

[1] **قال ابن حيان: ((وفي جمادى الآخرة احتل الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بمحلة فحص السرادق ـ شرقي قرطبة ـ مستدعىً من مولاه الخليفة الحكم؛ مهيبا به لحرب الغوي حسن بن قنون؛ المنازع له عمله بأرض العدوة؛ عندما تفاقم أمره، وأعيا مراسه، وأثخن في قتل الجند، وانتحل ولاية الدعي الشيعي معد. فاضطرب غالب بمحلته تلك ـ يومئذ ـ في يومين في الدَّهم [أي العدد الكثير] الذين أمر باستنفارهم؛ من حشد الثغر الأعلى إلى من استنهضهم من جيش السلطان لديه؛ ثم تقدم بهم في اليوم الثالث إلى الزهراء وطن الخليفة مولاه؛ مشتقا قرطبة؛ واجتهر أهلها من احتفال جيشه، واكتمال عدده واطراد ترتيبه ما امتلأت به قلوبهم فرحا،= =وشمخت له أنوفهم عزا. وأقام بقرطبة أياما؛ اتصل فيها عمل السلطان ورجاله في تجهيزه، وإزاحة علله، وتقوية أيده؛ إلى أن بلغ منه ما ارتضاه؛ ففصل عند ذلك في جموعه يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب منها)). ((وفي هذا الوقت [أي شهر رمضان] ورد الخبر بركوب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن البحر في الأسطول؛ من مدينة الجزيرة؛ فرضة المجاز إلى بلد الأندلس؛ بعد طول مقامه فيها؛ بعد أن استكمل أهبته فيها؛ وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب؛ فتوافت إلى هناك كاملة؛ وإن ركوبه من الجزيرة كان في يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها؛ وأقلع رافعا إلى جهة طنجة من أرض العدوة)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ص: 102. 115.**

[2] **وهاتان عينتان لذلك: ((وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس؛ يذكر حركته بالأسطول إلى أصيلا؛ لما في القرب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطولين من صواب التدبير، والأخذ بالحزم... وأرسلت إليه [إلى غالب] كسي فخمة، وسرج وألجم محلاة؛ ففضها فيمن**

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن بن قنون.[1]

جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهر شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستأمن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

[1] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

ــ خامسا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[1]

ــ سادسا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[2]

---

[1] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ــ أهلكه الله ــ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 97. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزَّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ــ من فارس وراجل ــ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: 140.

[2] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى،

أما الجانب الإعلامي فقد تولاه ــ في غالب الأحيان ــ الشعراء، وأئمة المساجد. ويتجلى ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي قيلت في المناسبات كلها، وكانت مليئة بالهجاء والسخرية من الحسن ابن قنون.[1] كما أن إضافة كلمة (ملحد) إلى اسم الحسن ــ كلما ذكر ــ يدل على ما كان يستهدفه أعداءه من بث الكراهية له بين عامة الناس.

وهكذا فقد حظيت هذه الحملة الحربية المنظمة بنجاح كبير؛ إذ حققت أهدافها المسطرة لها. وتمكن غالب بن عبد الرحمن من عزل الحسن بن قنون، وشل حركته نهائيا؛ مما اضطره إلى الإذعان والاستسلام والقبول بشروط الأمويين. وعليه فقد سلم نفسه في سنة 363هـ (973م).[2] حيث تم نقله ــ

البديعة الصنعة؛ التي أمر باتخاذها له على حدّه، ووصفه كيما يرفعه وسط محلته، ويكون نزوله وقعوده فيها؛ إسماء لقدره، ورغما لقلب عدوه؛ وكانت غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر رائق، ومرأى فائق؛ جرى في اتخاذها كلام كثير)). المقتبس ص: **116.**

[1] يدخل في هذا السياق ما ذكره ابن حيان عن طلب غالب بن عبد الرحمن من الخليفة المستنصر إمداده بالشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني؛ لكي يستعين به في حربه الإعلامية ضد عدوه. وبالفعل لم يتردد الخليفة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: **108 ــ 109.**

[2] قال ابن أبي زرع: ((وأخرج غالب الأموال؛ فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون؛ ووعدهم، وأمنهم؛ ففروا عن الحسن وأسلموه؛ حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله؛ فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر؛ فتحصن فيه؛ وأتبعه غالب فحاصره به، ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد؛ وأمده الحكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس كافة، ورجال الثغور؛ فوصل المدد إلى غالب غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛

مع أهله وحاشيته ــ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ــ مع أهله أيضا ــ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن بن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1]

فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله، وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ــ على ملك الأندلس ــ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعفتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.

ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون.

ولـــم يقــف الحاجــب المنصـــور عنـــد هـــذا الحـــد؛ بـــل أرســـل أيضـــا ولـــده عبـــد الملـــك في جيـــش كثيـــف أيضـــا؛ بهـــدف دعـــم المجهـــود الحـــربي، وتعزيـــز صفـــوف الوزيـــر عمـــر. ولمـــا تكاثـــرت الجيـــوش عـــلى الحســـن بـــن قنـــون؛ وضاقـــت بـــه السبـــل؛ طلـــب مـــن الوزيـــر عمـــر الأمـــان؛ عـــلى أن يذهـــب إلى الأندلـــس؛ ولمـــا أعلـــم المنصـــور بذلـــك؛ تظاهـــر بالمصادقـــة عـــلى الأمـــان الـــذي أعطـــاه الوزيـــر عمـــر؛ وطلـــب منـــه الإســـراع بإرســـال الحســـن إلى قرطبـــة. وفي طريقـــه إليهـــا بعـــث مـــن اغتالـــه؛ في جمـــادى الأولى مـــن سنـــة 375هــ(985م). وبذلـــك طويـــت صفحـــة الدولـــة الإدريسيـــة المستقلـــة نهائيـــا ببـــلاد المغـــرب؛ عـــلى أنهـــا ظهـــرت في ثـــوب جديـــد ببـــلاد الأندلـــس؛ بعـــد سقـــوط الدولـــة الأمويـــة.

وفي حـــال مقابلـــة الدولـــة الإدريسيـــة بالدولـــة الفاطميـــة؛ سيتجـــلى ضعـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وقصورهـــا، وانكمـــاش نفوذهـــا. ويرجـــع ذلـــك إلى عجزهـــا عـــن تحقيـــق بعـــض الشـــروط؛ الـــتي تمكنـــت الدولـــة الفاطميـــة مـــن تحقيقهـــا. أهمهـــا: قـــوة العصبيـــة، وكثـــرة الأتبـــاع، وفعاليـــة الدعـــوة الدينيـــة. فعصبيـــة الأدارســـة كانـــت ضعيفـــة أمـــام عصبيـــة الفاطميـــين. وأتبـــاع الأدارســـة أيضـــا قليلـــون. كمـــا أنهـــم يفتقـــرون إلى دعـــاة أكفـــاء، وتعاليـــم مذهبيـــة تشكـــل قاعـــدة فكريـــة، ذات شحنـــات نفسيـــة؛ تنـــمي الحمـــاس وتشحـــذ الهمـــم؛ في سبيـــل تحقيـــق أهـــداف الدولـــة. فالدولـــة تحتـــاج ــ لتعزيـــز

قوتها ـ إلى قدرة نافذة، وتحكم دقيق في سير سياسة الدعوة والدعاة. فبفضل ذلك توفر الدولة الأنصار الأوفياء، وتحقق التزامهم المستميت بأهدافها، وتفانيهم في خدمتها وحماية مؤسساتها. وهذه العوامل كلها توفرت للفاطميين؛ وافتقر إليها الأدارسة؛ وبذلك عظمت دولة الأوليين؛ بل امتد نفوذها حتى شمل الأدارسة أنفسهم.

****

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

أما إنجازات الدولة الإدريسية: العمرانية منها والثقافية؛ فيبدو أنها كانت بالمغرب ـ هي الأخرى ـ قاصرة ومحدودة أمام إنجازات الدولة الفاطمية. إذ أن أبرز أعمال الأدارسة تتجلى في مدينة فاس؛ تلك المدينة التي أضحت ـ في عهدهم ـ مركزا هاما؛ يستقطب نشاطات عديدة منها: ما هو عمراني، وما هو ثقافي؛ بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الهام؛ الذي أضحت تتميز به مدينة فاس في تلك الربوع.[1] وقد تضمنت الكتب التالية: ـ المغرب

---

[1] **يقول ابن خلدون واصفا عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس في فاس: ((وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الحمامات، والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية. واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين؛ بنت محمد الفهري ـ وقال ابن أبي زرع اسمها فاطمة، وأنها من**

للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ــ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ــ الدينية منها والثقافية ــ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد؛ قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون

هوارة ــ وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته، وجوار بيته)). العبر، مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)). ((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)). ((فأقامت مدينتيْ فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها، وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق، والحمامات، والأرحا، والمساجد والأسواق؛ من باب إفريقية إلى عين إيصيلن)). الأنيس المطرب، ص ص: 15 ــ 16. 23. 25.

في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا ـ آنئذ ـ بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أيِ في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ ـ أيضا ـ أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما ـ قبل ذلك العهد ـ إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين ـ الذي بنته فاطمة الفهرية ـ أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول ـ مع الأيام ـ إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛ من حيث الكيف والكم. من ذلك ـ مثلا ـ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ـ على سبيل المثال ـ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: ((**بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا**)).[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ـ ولو متواضعة ـ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى.

[1] العبر، مج: 4، ص: 24.

ومـــن الشعــر المنســوب إلى إدريــس الثـــاني هــذه المقاطـــع:[1]

لَوْ مَـــالَ صَبَري بصَبَرِ الناسِ كُلِّهــمُ
لَضَلَّ في رَوْعَتِي أوْ ضَلَّ في جَزَعِي
وَمَـــا أريـــعُ إلـــَى يَـــأسٍ لِيسْلِيـــنِي
ألا [..........] يَـــأس إلى طمـــــعِ
وكَيفَ يَصبْـــرُ مَطـــوِيٌّ هَضَائِمــهُ
علَى وَسْــوَاسِ هَــمٍّ غَيــر مُنقطِــعِ
إذا الهُمُـــومُ توَافـــتْ بَعْـــدَ هَجْعَتِـــهِ
كــرَّتْ علَيهِ بِكأسٍ مُـــرَّة الجُـــرَعِ
بَـــانَ الأحِبـــة واستَبْدَلـــت بُعْدَهــمُ
هَماً مُقِيمـــاً وَشَمْـــلاً غَـــيْرَ مُجْتَمِــعِ
كَأنِّي حِيـــنَ يُجـــرِي الهَـــمُّ ذِكرَهــمُ
علَى ضَمِيرِي مَخْبُـــولٌ مِنَ الفـــزَعِ

[1] قــد يشــك بعضهــم في صحـــة إسنـــاد هــذه النصــوص إلى إدريـــس؛ غيـــر أن المهــم هنـــا هـــو تقديـــم عينـــة مـــن النصـــوص الأدبيـــة الـــتي قيلـــت في ذلـــك الوقـــت؛ ولا يهــم ــ في هـــذه الحـــال ــ إن كـــان قائلهـــا هـــو إدريـــس نفســـه، أو قيلـــت نيابـــة عنـــه؛ مـــن طـــرف أدبـــاء كانـــوا في بـــلاط دولتـــه.

تأوِي هُمُــومِي إذْ حَرَّكَــت ذِكرَاهُــمُ
إلَى جَوَانِــحِ جِسْــمٍ دَائِــمِ الوَلَــعِ

كمــا بعــث بأبيــات ـ نسبتهــا المصــادر إليــه ـ محــذرا شيــخ قبيلــة مطغــرة بهلــول بــن عبــد الواحــد مــن مغبــة انسياقــه في المؤامــرة الــتي يحــوك خيوطهــا إبراهيــم بــن الأغلــب؛ فقــال:

أَبَهْلُــولُ قدْ شَمَّمْتَ نفسَــكَ خُطَــةً
تبَدَّلْــتَ مِنهَــا ضَلَــــةً برَشَـــــادِ
أضَلَــكَ إبرَاهِيــمُ مِــنْ بعْــدِ دَارِهِ
فأصْبَحْــتَ مُنقَــاداً بغيــرِ قِيَــادِ
كَأنكَ لمْ تَسْمَــعْ بِمَكــرِ ابْنِ أغلَــبٍ
وَقدْمــاً رَمَى بِالكيــدِ كــلَّ بــلاَدِ
وَمِنْ دُونِ مَا مَنتــكَ نفسُــكَ خَالِيــاً
وَمَنَــاكَ إبرَاهِيــمُ شــوْكَ قتــــادِ

وثمــة أبيــات أخــرى نسبــت إليــه أيضــا؛ وهي موجهــة إلى ابــن الأغلــب؛ يقــول فيهــا:

أذَكِّــرُ إبْرَاهِيــمَ حــقَّ مُحَمَّــدٍ
وَعِترَتِــهِ وَالحَــقُّ خيْــرَ مَقــولِ

وَأَدْعوهُ لِلأَمْــرِ الذِي فِيهِ رُشْــدُهُ
وَمَــا هوَ لــوْلاَ رَأيــهُ بِجهــولِ
فــإنْ آثــرَ الدُّنيــا فــإِنَّ أمامَــهُ
زَلاَزِلُ يــوْمٍ لِلعقــابِ طوِيــلِ

ومممـا نسـب إليـه مـن نثـر؛ هـذه الخطبـة الـتي ألقاهـا يـوم بيعتـه في سنـة 188هـ (803هـ)؛ وجـاء فيهـا: ((**الحمـد اللـه، أحمـده وأستغفـره، وأستعيـن بـه، وأتوكـل عليـه، وأعـوذ بـه مـن شـرّ نفـسي، ومـن شـر كـل ذي شـر، وأشهـد أن لا إلـه إلا اللـه، وأنّ محمـداً عبـده ورسولـه المبعـوث إلى الثقليـن بشيـراً ونذيـراً، وداعيـا إلى اللـه بإذنـه، وسراجـا منيـرا، صـلى اللـه عليـه وعـلى آل بيتـه الطاهريـن الذيـن أذهـب اللـه عنهـم الرجـس، وطهرهـم تطهيـراً. أيهـا النـاس: إنـا قـد ولِّينـا هـذا الأمـر الـذي يضاعـف فيـه للمحسـن الأجـر، وعـلى المسيء الـوزر، ونحـن والحمـد للـه عـلى قصـد جميـل، فـلا تمـدوا الأعنـاق إلى غيرنـا، فـإن الـذي تطلبونـه مـن إقامـة الحـق إنمـا تجدونـه عندنـا**)).[1]

[1] الأدب المغـربي، ص ص: 121 ــ 122. وكمـا يظهـر فقـد اقتبـس هـذه العبـارة الأخيـرة مـن خطبـة أبيـه. راجـع مـا سبـق.

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأترُكُ لِلرَاغِبِ الغرْبَ نَهباً
وَإنْ كنتُ فِي الغَرْبِ قيلاً وَندْبا
وَأسْمو إلَى الشرقِ فِي هِمةٍ
يعِزُّ بها رُتباً مَنْ أحَبَّا
وَأترُكُ عِيسَى عَلَى رَأيهِ
يُعَالجُ فِي الغرْبِ هَمًّا وَكرْبا
ولَوْ كانَ قلبِي عَن قلبهِ
لكنتُ لهُ فِي القرَابةِ قلبَا
وَإنْ أحدَثَ الدَّهرُ مِنْ رَيبهِ
شِقاقاً عَليْنا وَأحدَثَ حَرْبا
فإنِّي أرَى البُعْدَ سِتراً لنا
يُجَدِّدُ شَوقاً لدَينا وَحبا
ولَمْ نَجْنِ قطعاً لأرْحامنا
نلاَقِي بهِ آخِرَ الدَّهرِ عَتبَا

وَتبْــقَى العَــدَاوَةَ فِي عَقبنــــا
وَأكـــرِمْ بــهِ حِينَ نعْقِـبُ عَقبَــا
وَأوفــقُ مِنْ ذَاكَ جَــوْبُ الفــلاَةِ
وَقطــعِ المَخارِمِ نقبــاَ فنقبَـــا

هـذا عـن ملـوك وأمـراء الدولـة الإدريسيـة؛ أمـا الأدبـاء والشعـراء مـن عامـة النـاس؛ فالمعلومـات عنهـم ــ هي الأخـرى ــ شحيحـة للغايـة؛ ومـع هـذا يمكـن الاستشهـاد ببعـض العينـات المتناثـرة في عـدد مـن المصـادر والمراجـع. وكمثـال عـلى ذلـك يـأتي: أحمـد ابـن القاسـم بـن إدريـس وأبـو العيـش عيـسى بـن إبراهيـم بـن القاسـم بـن إدريـس أميـرا البَصْـرة (أو كـرت كمـا تسـمى أيضـا) في مقدمـة الذيـن يهتمـون بـالأدب والشعـر؛ إذ كانـا يستقبـلان في مجالسهمـا الشعـراء مـن كـل الأقطـار؛ ويقصدهمـا الشعـراء والأدبـاء مـن ربـوع المغـرب والأندلـس كلهـا؛ حيـث كانـوا يتوافـدون إلى مجالسهمـا الثريـة الزاهيـة. ويفهـم مـن بعـض المصـادر أن بكـر بـن حمـاد الزنـاتي التاهـرتي كـان يراسـل أحمـد بـن القاسـم ــ إن لـم يكـن قـد زاره في بلاطـه ببصـرة ــ ويمدحـه بقصائـد كثيـرة؛ لـم يصلنـا منهـا إلا هـذه القطعـة الـتي يقـول فيهـا:

إنَّ السَّمَاحــة وَالمُــرُوءَة وَالنــدَى

جُمِعــوا لأحْمَــدَ مِنْ بَنِي القاسِــمِ

وَإذَا تفاخــرَتِ القبَائِــلُ وَانتمَــت

فَافخــرْ بِفضــلِ مُحمَّــدٍ وَبِفَاطِــمِ

وَبِجَعْفــرِ الطيــارِ فِي دُرَجِ العُــلَى

وَعَلِيٍّ العَضبِ الحُسَــامِ الصــارِمِ

إنِّي لمشتـــاقٌ إليـــكَ وَإنمَـــا

يَسموا العقــابُ إذَا سَمَــا بِقــوَادِمِ

فابعــثْ إلَيَّ بِمركــبٍ أسْمــو بــهِ

عَــلي أكــونُ عليــكَ أوَّلَ قــادِمِ

وَاعْلَــمْ بِأنــكَ لــنْ تنــالَ مَحبــة

إلاَّ ببعــضِ ملاَبــسٍ وَدَرَاهـــمِ

وقــال ابــن عــذاري هنــا: ((**فبعــث إليــه ببغلــة سنيــة، وصلــة جزلــة. وكــان لــه فيــه أمــداح كثيــرة**)).[1] ويفهــم مــن البيتيــن الأخيريــن أنــه ربمــا يكــون زار بــلاط أحمــد بــن القاســم. ومــن بيــن الشعــراء الذيــن وفــدوا عــلى أبي العيــش عيــسى الشاعــر التاهــرتي أحمــد بــن الفتــح؛ حيــث مدحــه بقصيــدة استهلهــا

---

[1] **البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 236**

ـ كعادة العرب ـ بالنسيب ووصف جمال نساء البصرة؛ فقال:

قبَّحَ الإلهُ اللهْوَ إلاَّ قيْنةٌ
بصْرِيّة فِي حمْرَةٍ وَبياضِ[1]
الخمْرُ فِي لَحَظاتِهَا وَالورْدُ فِي
وَجَنَاتِهَا، وَالكشْحُ غيْرُ مُفاضِ
فِي شَكلِ مَرْجِى، وَنسْكِ مُهَاجِر
وَعفافُ سُنِيّ وَسَمْتِ إِباضِ
تاهرْتُ أنتِ خليَّة وَبريِة
عَوَضْتُ مِنكِ ببَصْرَة فاعْتاضِ
لاَ عُذرَ لِلحَمَرَاءِ فِي كلفِي بِهَا[2]
أوْ تَسْتفِيضَ بِأبحُرٍ وَحياضِ
مَا عُذرُها وَالبَحْرُ عيسَى ربهَا
مَلِكُ المُلوكِ وَرَايضُ الرُّوَاضِ

---

[1] جاء هذا البيت في الأدب المغربي هكذا:
مَا حَازَ كُلُّ الحُسْنِ إلاَّ قَيْنَةَ بِصْرِيَّة في حُمْرَةٍ وَبيَاضِ، ص: **109**.

[2] الحمراء هنا هي بصرة؛ إتسمى بهذا الاسم أيضا، كما تسمى بصرة الكتاب، وبصرة الذبان. المغرب، ص: **110**.

وهــذا مقطــع قالــه شاعــر آخــر عــاش في القــرن الرابــع الهجــري اسمــه إبراهيــم بــن محمــد الأصيــلي؛ وهــو في مــدح حيّ مــن هــوارة يعــرف ببــني زيــاد؛ كانــوا ساكنيــن حــول مدينــة أصيــلا:

سَقَى غــرْبِيَّ أرْضِ بَــنِي زِيَــادٍ
سَحَائِــبُ مَا يَجِــفُّ لهَــا غــرُوبُ
وَلاَ زَالَ النعِيــمُ يَعُــــمُّ قوْمــاً
إزَاؤُهــمْ مِــنَ الشــرقِ الكثِيــبُ

ومــن شعــراء ذلــك الزمــن الشاعــر محمــد بــن إسحــاق المعــروف بالبجيــلي أو النحيــلي؛ وهــو القائــل في عــدوة القروييــن بفــاس:

يا عــدْوَة القرَوِييــنَ التِي كرِّمــتْ
لاَزَالَ جانِبُكِ المَحْبُــورِ مَسْطــورَا
وَلاَ سَرَى اللــهُ عنكِ ثوْبَ نِعْمَتِــهِ
أرْضٌ تَجنبَــتِ الآثــامَ وَالــزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون ابن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أتَرَى سِلاَحك إذْ كدَدْتَ قَصِيدَتِي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قدْ طمَا مِنْ سَفسَدِ

إلى قوله:

أبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنيمِ لأنتمُ
شَرٌّ الوَرَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيغتدِ
إنْ كانَ جَنونُ مِنْ آلِ محَمدٍ
فأنا كفورٌ بِالنبِيِّ محَمدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاساً وَلِي شَوقٌ إلَى فاسِ
وَالجُبْنُ يَأخذُ بِالعَيْنينِ وَالرَّأسِ
فلَسْتُ أدْخلُ فاساً لوْ حييتُ وَلوْ
أعطِيتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ الناسِ

وممـن هجـا فاسـا ـ في ذلـك الزمـن أيضـا ـ قـاضي تاهـرت أحمـد بـن فتـح بقولـه:

أسْلـحْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَـرَرْتَ بـهِ
فِي العُدْوَتيْـنِ مَعاً لاَ تبقِيـنَ أحَـدَا

قومٌ غـذُّوُا اللـؤْمَ حَتَّى قالَ قائلِهـمْ
مَنْ لاَ يَكونُ لئِيمـاً لمْ يَعِـشْ رَغـدَا

ومـن الشعـراء الذيـن عاشـوا في تلـك الفتـرة أيضـا محمـد بـن السمهـري الـذي هجـا القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس صاحـب طنجـة بقولـه:

قـُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَة عِشْ بهَـا
لاَ يَحْسدَنـكَ فِي بـلاَدِكَ حَاسِـدُ

مَنتـكَ نَفْسـُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفـَة
هَيْهـاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِـكَ بَـارِدُ

لَمـا رَأَيْتـكَ لِلئـامِ مُصَافِيـاً
أيْقَنـتُ حَقـا أنْ جَـدَّكَ رَاشِـدُ

****

2)ـ دولـــة بـــني حمـــود بقرطبـــة:

تعتبـــر هـــذه الدولـــة بمثابـــة امتـــداد وتواصـــل للدولـــة الإدريسيـــة في بـــلاد المغـــرب. وقيامهـــا في بـــلاد الأندلـــس حـــدث نتيجـــة لتحـــول ساحـــة الصـــراع بيـــن الأدارســـة والأموييـــن إلى أرض الأندلـــس؛ بسبـــب مـــا حصـــل مـــن نقـــل أفـــراد الأســـرة الإدريسيـــة بكاملهـــم إلى تلـــك الديـــار؛ مـــن طـــرف الخليفـــة الأمـــوي المستنصـــر باللـــه؛ خاصـــة في سنـــتي: 365هـــ (975م) و375هــ(985م). هـــذا وينتـــمي الملـــوك الأول مـــن الأدارســـة ـــ في الأندلـــس ـــ إلى فـــرع عمـــر بـــن إدريـــس. وقـــد كانـــوا منافسيـــن لبـــني عمومتهـــم: أبنـــاء القاســـم بـــن إدريـــس؛ الذيـــن يعتبـــرون آخـــر مـــن تـــولى ملـــك الأدارســـة في المغـــرب. ويبـــدو أن تلـــك المنافســـة كانـــت سببـــا في تغـــاضي الخليفـــة الأمـــوي المستنصـــر عـــن محاولـــة نفيهـــم ـــ هـــم الآخريـــن ـــ مـــع الحســـن بـــن قنـــون إلى مصـــر.

هـــذا ولـــم تشـــر جـــل المصـــادر ـــ بوضـــوح ـــ إلى مكـــان إقامـــة بـــني حمـــود في الأندلـــس؛ حينمـــا بـــدأت الفتنـــة. وقـــد انفـــرد ابـــن الخطيـــب ـــ تقريبـــا ـــ بالحديـــث عـــن ذلـــك؛ ولكـــن باقتضـــاب شديـــد؛ حيـــث ذكـــر أنهـــم كانـــوا ((**مـــن جملـــة أمـــراء المغاربـــة المترسميـــن في ديـــوان بـــني أميـــة بقرطبـــة**)).[1] دون تحديـــد الفتـــرة الزمنيـــة؛ هـــل تـــم ذلـــك قبـــل نـــفي الحســـن بـــن قنـــون إلى مصـــر، أو بعـــد نفيـــه؟.

---

[1] **أعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 128.**

وعليه فالسؤال يبقى قائما حول المكان الدائم الذي كانوا يعيشون فيه؛ بعد نفي الأدارسة إلى الأندلس؛ وإخلاء بلاد المغرب منهم. ومن ثمة؛ بعد نفي ابن قنون وأهله إلى مصر. ومن هنا يمكن التساؤل: هل كانوا مستقرين في بلاد غمارة؛ مختفين عن الأنظار بتلك الديار؟ أم كانوا قاطنين ببلاد الأندلس؛ في الظل؛ وبعيدا عن الأضواء؟ وبهذا يمكن الاعتماد على ما ذكره ابن حزم بإيجاز؛ حين ذكر أن بني حمود كانوا بتازغدرا من عمل غمارة.[1] كما يشير البكري إلى بعض فروعهم الموزعين في بقاع شتى بالمغرب كـ: بلاد أوربة، وفاس، وكتامة، وبلاد بني عسوجة وبلاد زناتة، وبلاد برغواطة، وتازغدرا بغمارة.[2] ومن جهة أخرى يجيب ابن الخطيب بإيجاز أيضا ـ في سياق آخر ـ على ذلك؛ إذ يرى أن علي بن حمود انتهز موجة الاضطرابات؛ التي حدثت بين أبناء البيت المالك من: الأمويين وأنصارهم المشكلين من: الأمازيغ وأهل قرطبة؛ فقطع البحر؛ قاصدا سبتة؛ حيث تغلب عليها.

---

[1] قال ابن حزم: ((وكان بدء أمرهم [أي بني حمود] في شول سنة **400**؛ إذ ولي القاسم بن حمود سبتة إلى التاريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من افخاذهم خاملا؛ وكانوا صاروا بتازغدرة من عمل غمارة)). الجمهرة، ص: **51**.

[2] المغرب، ص ص: **131 ـ 133**.

ولكنه عاد إلى الأندلس عند سماعه باستفحال أمر سليمان بن الحكم؛ مع من كان معه من الأمازيغ؛ وبعد ظهور بوادر تفيد بقرب انتصارهم على أعدائهم.[1] وقد وردت إشارة خاطفة وباهتة في الذخيرة لابن بسام ـ حين ذكر موضوع وصية هشام المؤيد بالعهد من بعده إلى علي بن حمود؛ نكاية في بني عمه من آل الناصر الثائرين عليه ـ قال فيها أن عليا كان يتردد على سبتة؛ بغرض حث طوائف الأمازيغ، وتحريضهم على الجهاد في صف سليمان؛ وضد المهدي وأنصاره من أهل قرطبة.[2]

---

[1] وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((ولما التفت البرابرة بسليمان؛ استيجاشا من العصائب الأندلسية، وتشميرا لمقارعتها؛ وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين؛ لحق [أي علي بن حمود] بالعدوة الغربية؛ وتغلب على سبتة محتالا. ثم عاد إلى الأندلس؛ لما استوسق الأمر لسليمان. واختص من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابر واقتطعوها بسبتة، وأخوه القاسم بالجزيرة)). أعمال الأعلام، ق: 2؛ ص: 128.

[2] قال ابن بسام: ((وكان هشام ـ عند ما رآه من اضطراب أمره؛ وتيقنه من انصرام دولته؛ بما مني به قديما وحديثا؛ من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه؛ وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه ـ صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله بذلك إلى سبتة؛ أيام تردده عليها؛ بمعنى الاستمداد، وجمعه طوائف البرابرة للجهاد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 ـ 38.

وهنا يتبادر إلى الذهن احتمال عودة السبب في انتقال علي بن حمود إلى الأندلس من جديد – بعد أن تغلب على سبتة؛ خلال موجة الاضطرابات – إلى الخطاب الذي ورد إليه من هشام المؤيد؛ كما جاء في الذخيرة ومصادر أخرى. ذلك الخطاب الذي يسند فيه هشام ولاية العهد إليه. ومن هنا يبدو أنه لم يعبر المضيق نحو الأندلس لمجرد التضامن مع سليمان بن الحكم، أو بدافع الغيرة عليه بحكم العصبية، أو حبا في الوقوف معه ضد أعدائه من أهل قرطبة. بل حدث ذلك بدافع المصلحة؛ التي أملت عليه العمل بجد في سبيل تحقيقها.

على كل حال؛ فانزواء بني حمود هذا، واختفائهم عن الأضواء – سواء في بلاد الأندلس أو في المغرب – مكنهم من اصطياد الفرصة المواتية للانقضاض على عرش الخلافة بالأندلس. وقد تحقق لهم ذلك؛ حينما ترنحت دولة الأمويين؛ ومالت نحو الانهيار؛ بعد سقوط مؤسساتها الفاعلة، وتفكك قواعدها الأساسية. وجملة القول هي أن جل المصادر التاريخية بدأت – لأول مرة – تتحدث عن علي بن حمود وأخيه القاسم في بلاد الأندلس؛ اعتبارا من سنة 403هـ (1012م). حين تناقلت – ما ذكره ابن حيان – عنهما وعن الموضع الذي عسكرا فيه مع جيشهما المشكل من المغاربة؛ وكان ذلك بالقرب من الزهراء وقرطبة؛ وبالتحديد في شَقُنْدة. حيث كانا ضمن جيش سليمان بن

الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِل ــ مع من نقِل من بني عمه الأدارسة ــ إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

---

[1] إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا ـ كما هو ـ ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 ــ 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.

[2] دولة الأدارسة، ص: 226.

ولابد ـ هنا ـ من الإشارة؛ إلى أن ابن خلدون كتب فقرة غامضة؛ تبعث على الاعتقاد بأن بني حمود كانوا مقيمين في تازغدرا ببلاد المغرب؛ في حماية قبيلة غمارة الأمازيغية.[1] وربما يكون ابن خلدون قد اقتبس هذا الخبر عن ابن حزم أو البكري؛ إذ قالا القول نفسه؛ كما سبقت الإشارة إليه. ولما اشتدت الأزمة في الأندلس؛ عَبَرَ أمير بني حمود علي بن حمود إلى الضفة الأخرى مع جملة من أنصاره الأمازيغ؛ حيث انضم إلى صفوف سليمان بن الحكم؛ مسايرة منه للحلف الذي عقده ـ هذا الأخير ـ مع جل القبائل الأمازيغية هناك؛ خاصة وأن علي بن حمود وأعضاء أسرته كانوا يرون في أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمازيغي. وبالفعل فقد عامله سليمان بن الحكم كما عامل أمراء القبائل الأمازيغية. حيث أقطعه ـ بعد أن تحقق له النصر ـ مدينة سبتة؛ كما أقطع أخاه القاسم الجزيرة الخضراء.

---

[1] وفي ذلك يقول: ((وبقي الفخر منهم بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ وصاروا في جملة المستعين؛ مع أمراء العدوة، من البربر. فعقد لهما [أي لعلي والقاسم] المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعلي منهما على طنجة، وللقاسم ـ وكان الأسن ـ على الجزيرة الخضراء)). العبر، مج: 4، ص: 330.

ويرى بعضهم أن سليمان ارتكب خطأ كبيرا بتقديم تلك المقاطعتين لعلي وأخيه القاسم.[1] والغريب أن بعض الأمازيغ أنفسهم استنكروا ما قام به سليمان؛ على الرغم من الاندماج الحاصل بين بني حمود والأمازيغ.[2] وربما يكون ما أبداه أمير بني برزال من اعتراض؛ لا يعدو أنه أتى من

---

[1] فهذا ابن بسام يقول: ((ومن الاتفاق الغريب على سليمان أنه لما استوسق له الأمر؛ بعد فراغه من خبر هشام المؤيد؛ أنفذ عزمه ــ من بين قواد جيوشه ــ في اختيار علي بن حمود المذكور؛ فقدمه على مدينة سبتة؛ رأيا ذَهَلَ عنه؛ ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة. فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين؛ ودَبَّ لمغبونه سليمان من قِبَلِها الضَّراء دبيب الحَنَق الموتور؛ حتى هجم عليه وسلبه ملكه، وحول دولته، ومزق عِتْرته. وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده؛ وإذا أراد الله شيئا أمضاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة: ((وكانوا ستة قبائل. فأعطى صنهاجة إلبيرة؛ فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة. وأعطى مغراوة الجوف. وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة. [لم يكن منذر بن يحيى بربريا؛ بل كان من قبيلة تجيب العربية] وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتها. وأعطى بني دمر وأزداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. وذِكر أنه ولى القاسم بن حمود طنجة وآصيلا، أما علي بن حمود فولاه سبتة كما ذكرناه. [يرى المراكشي وابن الخطيب وابن خلدون أن ما أعطاه سليمان للقاسم هي الجزيرة الخضراء] فلما بلغ عبد الله البرزالي تقديم ابني حمود؛ دخل على سليمان؛ فقال: "يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب." قال: "نعم". قال له: "أليس العلويون طالبيين؟" قال: "نعم". قال: "تأتي إلى خشاش؛ تردهم ثعابين؟" قال: "نُفِذ الأمر في ذلك")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. أنظر في هذا أيضا المعجب، ص: 43. وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ق: 2، ص: 119.

باب الغيرة والحسد لعلي بن حمود وأخيه؛ أو ربما يكون ذلك بتأثير من معتقده الخارجي.

المهم أن ذلك حدث بموافقة سليمان وبقرار منه. ولعله لم يكن في يده القدرة على الرفض أو المعارضة؛ نظرا لكون علي قد سيطر بالفعل ـ من قبل ـ على سبتة؛ كما جاء في نصي: ابن بسام وابن الخطيب. خاصة وأن ابن حزم قال أن سبتة كانت ولاية القاسم بن حمود منذ شوال سنة 400هـ(1009م).[1] وبهذا فما صدر ـ بعدئذ ـ عن سليمان لم يكن سوى مصادقة وموافقة على أمر واقع بالفعل. وهكذا فمن ذلك التاريخ برز الدور الخطير والفعال للأدارسة في بلاد الأندلس؛ ممثلين بعلي بن حمود بن ميمون بن حمود ـ وحمود اسمه الحقيقي أحمد ـ بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله.[2] وكما سبق ذكره فهذا الأمير يعتبر من بقايا الأدارسة؛ الذين أجبرتهم الظروف على العيش في ظل الدولة الأموية؛ بعد أن تغلبت على ملكهم ببلاد المغرب.

---

[1] الجمهرة، ص: 51.

[2] نفسه، ص: 50.

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ــ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي ابن حمود ــ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (حيون) بن إدريس، ومحمد بن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس ابن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ــ منذ قيام دولتهم الأولى ــ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

---

[1] **فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ــ كان الأسنّ ــ على الجزيرة الخضراء.**

وتشير بعض المصادر ــ أيضا ــ إلى أن لهجتهم كانت أمازيغية؛ ومع ذلك فهم لا يجهلون العربية بالتمام. وقد أورد ابن الخطيب مثالا على لهجة علي بن حمود؛ تلك اللهجة المتأثرة بالعجمة كما وصفها؛ حين قال: ((**وقبض** [أي علي بن حمود] **على سليمان وأخيه وأبيه الحكم؛ فقتلهم بيده؛ وقال بلسانه الزناتي: " لا يقتل الزلطان إلا الزلطان"**)). ويقصد ابن الخطيب من هذا أن علي ابن حمود لم يقل السلطان بالسين؛ إذ نطق السين زايا.[1] غير أن الذي قاله ابن الخطيب لا يمنع كون علي وأخيه القاسم ومن تبعهما من ذرية ابني حمود كانوا يعرفون العربية ويتذوقون آدابها؛ خاصة وأن مصادر كثيرة أتت بشواهد تفيد بذلك.[2]

****

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس؛ متوارث من دولتهم بالعدوة)). العبر، مج: 4، ص: 330. أما ابن بسام فيستشهد بمقالة ابن قتيبة؛ حين قال: ((ثم رفضتهم آفاقها [يقصد رفضت آفاق بلاد إفريقية بني أبي طالب] إلى طرف بلاد البربر؛ فنكحوا إليهم، وتبربروا معهم)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

[2] فمما قاله المقري ــ على سبيل المثال ــ في علي بن حمود: ((وكان الناصر علي بن حمود ــ على عجمته، وبعده من الفضائل ــ يصغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحنّاط القرطبي [وهو محمد بن سليمان ابن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى]... وعبادة بن ماء السماء؛ وكان معروفا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 ــ 484.

ـ حكومـة الناصـر لديـن الله علي بن حمـود بقرطبـة:

وخلاصة القول فقد ظل علي بن حمود يترقب الفرصة المواتية للانقضاض على كرسي الخلافة بقرطبة. إذ كان يتابع ـ من قرب وبعناية ـ كل ما يجري في ديار الأندلس. حيث يراقب الأحداث التي تمت بعد نشوب الاضطرابات ـ في بدايتها ـ داخل البيت الأموي، وبعد زوال حكم العامريين؛ نتيجة للانقسامات التي حدثت بين أنصار الدولة الأموية؛ عندما انحازت كل فئة من المصطنعين، والقبائل إلى أمير من الأمويين. فانضم جمع كبير من الأمازيغ ـ وبنو حمود معهم طبعا ـ إلى سليمان بن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين بالله؛ الذي قام ضد خصمه محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي. وذلك لأن الأمازيغ كرهوا ابن عبد الجبار (المهدي)؛ بسبب ما أعلنه من عداء لهم؛ وما أبداه من تعصب شديد ضدهم ـ في بداية عهده ـ إذ كان يَكِنُّ لهم كراهية ملحوظة؛ الأمر الذي أجج حقدهم عليه، وعلى أتباعه من العامة والدهماء؛ الذين ارتكبوا مجازر رهيبة في حق الأمازيغ بقرطبة. لذا كان رد الفعل عندهم ـ على اختلاف قبائلهم ـ هو العمل باستماتة على نصرة خصمه اللدود ومنافسه العنيد سليمان بن الحكم (المستعين بالله).

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ـ طبعا ـ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ـ بدعمهم للمنصور ابن أبي عامر وأبنائه ـ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور بن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة]

---

[1] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ـــ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ـــ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ـــ 279. 281. 287. 293 ـــ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ـــ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ـــ 326. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 397 ـــ 398. 405. 417. 427 ـــ 430.

[2] نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.

بكراهيتهم. وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا؛ وَرُدَّ بعض رؤوسهم في بعض الأيام من باب القصر؛ فانتهبت العامة دورهم؛ وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم؛ فاعتذر إليهم، وقتل من اتهم من العامة في أمرهم؛ وهو مع ذلك مظهر لبغضهم؛ مجاهر بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه يريد الفتك بهم...)).[1]

ويقتضي الحال هنا وقفة قصيرة؛ لمحاولة فهم ما جرى بقرطبة في تلك الأثناء. فمن الواضح أن الوضع تطور خلال درجات ومراحل متتابعة. ففي البدء اقتصر الصراع على أهل البلاط بقرطبة؛ وبالتحديد داخل الأسرة المالكة؛ أو بالأحرى بين العصبية الأموية العربية وبعض الموالي والمصطنعين؛ ممن أراد الخليفة إعدادهم وتجهيزهم ضد من تسول له نفسه ــ من عصبيته ــ أن يخرج عليه، أو يتطلع لمشاركته في مجد الملك والسلطان.[2] وفي المرحلة الموالية بدأ نجم المنصور بن أبي عامر يبرز ويسطع على الأندلس كلها. ولما أراد هذا الوزير الحاجب الحازم ــ الذي كان وصيا على العرش ــ أن يستبد بالأمر؛ لم يكتف

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 427.

[2] وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون ضمن: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.

باصطناع الموالي والمصطنعين ـ كالفتيان العامريين ـ بل مد نظره بعيدا؛ إلى الطرف الآخر من العدوة؛ حيث الأرض التي تفيض بالقبائل، وأبطال الحرب والنزال؛ تلك الأرض المغربية الخصبة بالرجال البواسل، والزاخرة بالقبائل التي لا تحصى؛ تلك القبائل التي ما زالت تعيش في محيط بدوي متقشف؛ محيط بعيد عن ليونة الحضارة وطراوتها، والنائية عن تياراتها المفسدة لشروط الصلابة والبسالة.[1]

وقد يكون من الحوافز التي جعلت المنصور يتحمس إلى جلب فرسان الأمازيغ إلى الأندلس؛ تلك النتائج المشجعة التي انبثقت عنها تجربة سيده المستنصر؛ حين استخدم بني برزال. فاتضح له أنهم كانوا أهلا للمهمة التي أنيطت بهم؛ حيث أضحوا للخليفة الأموي حراسا أوفياء، وللبلاد فرسانا مغاوير. ونتيجة لذلك فقد عمل المنصور على جلب عدد كبير من القبائل الأمازيغية وفرسانهم الأبطال إلى بلاد الأندلس؛ بحجة الجهاد، والدفاع عن أمن الدولة الإسلامية من تحرشات النصارى. فأجزل لهم العطاء، وخصهم بكل غال وثمين من أموال وإقطاع. وبذلك أصبحت في يده

---

[1] أنظر إلى ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـــ 589. و((وفصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم)). نفسه، ص ص: 589 ـــ 591.

قوة لا تقهر في الأندلس؛ مكنته من الاستبداد والتصرف في شئون الدولة كما يحلو له.[1] ثم أتت الفترة الموالية؛ التي شهدت الصراع الخطير والانقسام المذهل الذي فتت الدولة إلى طوائف وإمارات صغيرة هنا وهناك؛ حيث هيمنت خلالها فئات عديدة ومتفرقة في المجتمع: قبائل عربية، وقبائل أمازيغية، وموالي من أجناس شتى، ومماليك صقالبة وسودان.. ألخ. وضمن هذا البحر المتماوج من العصبيات المختلفة ــ قبلية وفئوية وعرقية ومذهبية ــ كان بعض الفئات المنعزل، والبقايا الضائعة من بني أمية تظهر فوق السطح أحيانا، وتختفي تحت الأمواج أحيانا أخرى. وفي هذه الأثناء ظهرت العصبية الهاشمية؛ ممثلة بالأدارسة من بني أبي طالب. غير أن عصبيتهم الفاعلة والموجودة في الميدان كانت هي العصبية الأمازيغية؛ نظرا لما حصل من اندماج قديم بين الأدارسة والأمازيغ. ومن هنا يتضح التداخل بين العصبيتين؛ كما يتضح سبب الجفاء الذي لاقاه الأدارسة من قبل الأندلسيين؛ ذلك الجفاء العائد ــ في الحقيقة ــ إلى عدم التمييز والفصل بينهم وبين الأمازيغ.

---

[1] أنظر أيضا: ((فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 680 ــ 681. و((فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)). نفسه، ص ص: 682 ــ 683.

ونظرا لما واجه الأمازيغ من شدة في العداء أبداه سكان المدن؛ وخاصة أهل قرطبة وإشبيلية؛ فما كان منهم سوى الحرص على حماية أنفسهم، والسهر على أمنهم، والذود عن مصالحهم. ومن هنا عملوا على تقديم ولائهم للأمير الذي يفيدهم ويحقق مآربهم. فالتفوا في البداية حول الأمير هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر؛ ولما قتل انضموا إلى ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولما تحقق لسليمان المذكور النصر، وتربع على عرش الخلافة بقرطبة؛ لم يجد متسعا من الوقت لكي يؤجل تسديد الدين الذي عليه للأمازيغ ومن ناصره في حرب عدوه. لذا فقد سارع إلى مكافأتهم جميعا؛ حيث أسند إلى بعضهم مناصب سامية في الدولة؛ كما خص أمراءهم بالقيادات والمقاطعات الهامة. فكان حظ بني حمود ـ كما سبق ذكره ـ مثل حظ بقية الأمازيغ؛ لصلتهم بهم وانتمائهم إليهم. وهكذا فقد أقطع سبتة لعلي بن حمود، والجزيرة الخضراء لأخيه القاسم.

وبذلك كان هذا الإقطاع بداية الخطوات الممهدة لدروب الملك؛ إذ وصل بنو حمود بذلك إلى المنفذ؛ الذي ساعدهم على التسرب نحو حكم قرطبة نفسها. فبهاتين الولايتن الهامتين الممثلتين في سبتة والجزيرة الخضراء؛ يمكن لهم أن يحشدوا الحشود، ويسهل عليهم الحصول على الأموال

اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي ــ كما قيل ــ خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3]

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 ــ 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سراً؛ وولاه

وعليه فما أن تحقق لعلي بن حمود أمر تعيينه على سبتة؛ وما أن تمكن من تعزيز قوته فيها ـ بعد استقراره وضبط أموره ـ حتى شرع في خطواته الأولى نحو تحقيق أهدافه.

وبالفعل كان أول ما بادر إليه علي بن حمود سنة 404هـ(1013م) هو إحكام قبضته على سبتة؛ والقضاء على المعارضين. وذلك أنه سارع إلى قتل قاضي البلدة محمد بن عيسى مع الفقيه ابن يربوع. متهما القاضي المذكور بالتجسس عليه، والسعي إلى كشف أعماله وخططه. إذ اتهمه بأنه كاتب سرا سليمان المستعين، وأخطره بالتحضيرات التي قام بها لغزو قرطبة.[1] إلى جانب ذلك أرسل إلى أخيه القاسم؛ الذي كان في تلك الأثناء بقرطبة؛ فطلب منه الالتحاق بولايته في الجزيرة الخضراء.

طلب دمه؛ واستكتمه السر فيه؛ إلى أوانه وبلوغ زمانه)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 114. 120. أما المقري فيقول: ((فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة، ومحو كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها؛ كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود؛ وبلغ هشاما المؤيد ـ وهو محبوس ـ خبره، واسمه ونسبه؛ فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: "إن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني" ـ يعني سليمان ـ "فإن فعل فخذ بثأري". وكان هذا الأمر هو الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة؛ وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 115. أنظر أيضا أعمال الأعلام لابن الخطيب، ق: 2، ص: 121.

كما بعث في سنة 405هـ(1014م) إلى حبوس أمير بني زيري والفتى خيران العامري يعلمهما بخطاب العهد الذي وصله من هشام المؤيد؛ ويطلب منهما مساعدته للإطاحة بسليمان.[1] ثم تحرك نحو مدينة مالقة التي استولى عليها، وربما قتل قائدها حسب قول ابن عذاري.[2] ومن ثمة اجتمع مع خيران في المرية؛ وانضم إليه أيضا زاوي بن زيري وحبوس بن ماكسن بن زيري في قبيلة صنهاجة.[3] فانطلقوا جميعا نحو قرطبة؛ ضمن قوة كبيرة من الأمازيغ والعامريين.

---

[1] قال ابن عذاري نقلا عن المظفري؛ وهو كتاب محمد بن عبد الله بن الأفطس: ((لما خرج علي عن طاعة المستعين؛ أخرج كتابا نسبه إلى= =هشام بن الحكم؛ يقول فيه:"أنقذني من أسر البرابر والمستعين؛ وأنت ولي عهدي". ووجه به إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري؛ فقال له انهض إلى مالقة؛ وبها يتم أمرنا؛ فأقبل إليها بالقطائع والعساكر فقتل قائدها واستولى عليها)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. وقد اشار إلى هذا أيضا المراكشي في المعجب، ص: 44.

[2] انفرد ابن عذاري بخبر قتل والي مالقة. البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. أما المراكشي فقال أنه عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر؛ وذكر أنه أخرجه من مالقة؛ ولم يشر إلى قتله. المعجب: ص: 44. أما ابن الأثير فيقول أنه اتفق مع علي على الثورة؛ وخرج من مالقة بإرادته وسلمها لعلي بن حمود. الكامل، ج: 7، ص: 284.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

ولما وصلت أخبار علي بن حمود وحلفائه إلى سليمان خرج إليهم بجيشه المكون من الأندلسيين، وقلة من الأمازيغ سنة 407هـ(1016م). ولكنه لم يصمد أمامهم، ومني بهزيمة نكراء؛ حيث انكشفت المعركة عن سقوطه ــ مع أخيه وأبيه ــ في الأسر. ولما دخل علي بن حمود إلى قصر قرطبة واستولى على عرشها؛ بادر فورا بقتل سليمان وأخيه وأبيه ــ ذلك الشيخ الذي ناهز عمره 72 سنة ــ ويقال أنه قتلهم بيده. أخذا بثأر هشام المؤيد كما زعم.[1] هذا هو منطق الملك في أبشع صوره.

وهكذا تم ما أراده الله. ففي لحظات أصبح الحلفاء أعداء؛ يقتل بعضهم بعضا. فما هو السبب؛ وكيف حدث هذا..؟ وما الحافز والمحرك

---

[1] قال ابن بسام: ((فانهزم سليمان؛ وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه؛ وسيقوا أُسَارَى إلى علي بن حمود. ودخل القصر وخيران يطمع أن يجد هشاما المؤيد حيا. فلم يوجد؛ وذكر أنه قتل؛ وعرض عليه قبره. فأمر علي بنبشه. فأخرج الشخص؛ وشهد أنه هشام؛ وسليمان يتبرأ من دمه؛ وما كان في جسده شيء من أثر السلاح؛ فتوهم فيه الخَنْق. وأمر علي بتجهيزه إلى أهله؛ وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه؛ فدفن لزيق أبيه الحكم. ثم دعا علي بسليمان وذويه؛ فضرب عنقه بيده؛ وظهر منه جزع شديد عند ملاحظته السيف؛ خارت منه قواه. فجثا على ركبتيه؛ ثم ضربت عنق الشيخ أبيه وعنق عبد الرحمن ابنه. وجعلت الرؤوس الثلاثة في طست؛ وأخرجت من القصر إلى المحلة؛ ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 ــ 42. ورد هذا الخبر أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

لما جرى كله..؟ هل هي نشوة الملك..؟ أم هي العداوة المزمنة الكامنة في نفوس أجيال وأجيال من بني أمية وبني أبي طالب..؟ يبدو أن تلك العوامل كلها كانت وراء ما حدث. فالأطماع – طبعا – لعبت دورا مهما؛ كما أن العصبية الهاشمية كانت محركا فعالا نشطت حماس علي بن حمود. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تجاذبته عصبيتان رئيستان هي: العصبية الهاشمية والعصبية الأمازيغية. وعليه فما يمس الأمازيغ يمسه أيضا في الصميم؛ خاصة وأنه كان دوما محسوبا عليهم؛ ولا يعامله الآخرون إلا كما يعاملون الأمازيغ. ومن هنا اتضح بأن عليّ بن حمود وسليمان بن الحكم كانا يكنان لبعضهما كراهية وحقدا دفينين؛ لم يعلنا عنهما إلا في حالات خاصة. وقد جاء في بعض المصادر لمحات من هذا؛ إذ تقول بعض الروايات أن سليمان كان يكن كراهية لعليّ بن حمود والأمازيغ أيضا – مثله في ذلك مثل أعضاء الأسرة الأموية – وما الحلف الذي جمعهم سوى فترة زمنية عابرة غير دائمة. إذ كان سليمان في أمس الحاجة إليهم وإلى سيوفهم.

لـــذا فإنـــه كـــان يحـــرص عـــلى مداراتهـــم؛ وتقديمهـــم عـــلى غيرهـــم؛ خوفـــا مـــن بطشهـــم؛ لأنـــه يـــدرك ضعـــف موقفـــه أمامهـــم. ومـــن الشواهـــد الـــتي أوردهـــا بعـــض الكتـــاب والمؤرخيـــن: أنـــه قـــال ــ في أوساطـــه الخاصـــة ــ أبياتـــا شعريـــة مـــن نظمـــه في حـــق الأمازيـــغ ومـــن حالفهـــم:[1]

حَلَفــتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَــامَ وَكَبَّــرَا
لأغْمِدَهَــا فِيمَــنْ طَــغَى وَتَجَبَّــرَا

وَأبْصَرَ دِينَ اللــهِ تحْيَــا رُسُومُــهُ
فبَــدلَ مَا قــدْ لاَحَ مِنهَــا وَغيَّــرَا

فوَاعَجَبــاً مِــنْ عَبْشَــمِيٍّ مُمَلــكٍ
بِرَغــمِ العَــوَالِي وَالمَعَالِي تَبَرْبــرَا

فلـــوْ أنَّ أمْــرِي بِالخِيَــارِ نَبذتهــمْ
وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْــفِ حُكْماً مُحَــرَّرَا

فَإمَّــا حَيَــاة تسْتَلــذ بِفقدِهِـــمْ
وَإمَّا حِمَــامٌ لاَ نرَى فِيــهِ مَا زَرَى

---

[1] قــال المقــري في هــذه الأبيــات: ((وكــان مــن أعظــم الأسبــاب في فســاد دولــة المستعيــن؛ أنــه قــال هــذه الأبيــات؛ مستريحــا بهــا إلى خواصــه)). نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 429.

فهــذه الأبيــات تــدل ــ بــدون شــك ــ عــلى مــا ينطــوي عليــه صــدر سليمــان؛ مــن كراهيــة للأمازيــغ؛ حيــث لــم يستطــع التخلــص مــن رواســب العصبيــة الأمويــة العربيــة؛ عــلى الرغــم مــن الحلــف الــذي يربطــه بالأمازيــع، وعــلى الرغــم مــن استماتتهــم في الدفــاع عنــه، والتضحيــة بأرواحهــم مــن أجلــه. وبذلــك فقــد برهــن عــلى أنــه لا يختلــف كثيــرا عــن ابــن عبــد الجبــار (المهــدي)؛ ســوى في التقيــة الــتي لجــأ إليهــا. ويبــدو أن هــذه الأبيــات كشفــت نوايــاه الحقيقيــة؛ ممــا جعــل الأمازيــع يختــارون صــف عــلي بــن حمــود؛ عندمــا قــرر الأخــذ بثــأر أجــداده الأدارســة مــن أحفــاد الناصــر لديــن اللــه الأمــوي؛ الــذي سبــق لــه أن أزال الدولــة الإدريسيــة مــن الوجــود. إذ كــان هــذا هــو حافــزه الأســاسي لإسقــاط الدولــة الأمويــة؛ وإرجــاع الحــق لبــني هاشــم. هــذا وقــد مــدح شاعــر الأندلــس وفحلهــا دون منــازع؛ أبــو عمــر أحمــد بــن دراج القسطــلي عــلي بــن حمــود بقصيــدة رائعــة؛ نذكــر مطلعهــا هنــا؛ عــلى أن نسجــل أغلبهــا في الفصــل المخصــص للحضــارة والثقافــة. ومطلعهــا:

لَعَلَــك ياشَمــسُ عِنــدَ الأصيــلِ

شَجِيــتِ لِشَجْوِ الغَريــبِ الذَّليــلِ

فَكــوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيــع

وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّســولِ

ولما تم لعلي أمر إسقاط دولة سليمان؛ سارع إلى طلب البيعة من أهل الحل والعقد في قرطبة. فبويع بالفعل في سنة 407هـ(1016م) وتسمى بلقب الناصر لدين الله. وكانت بيعة شاملة؛ لم يتخلف عنها أحد كما قال ابن حيان.[1] وأظهر ـ من اليوم الأول لحكمه ـ سلوكا فيه حزم وجد وعدل؛ أثلج قلوب الرعية، وملأ نفوس الناس بالبشر والرضى. إذ شرع في اجتثاث الفساد، وكبح الظالمين، وتسليط سيف العدل على رقاب الناهبين والمتجبرين من بعض أتباعه الأمازيغ.[2]

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((بويع علي بن حمود في باب السُدَّة من قصر قرطبة يوم الإثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة؛ ثاني اليوم الذي أدرك فيه بثأر هشام المؤيد. ولم يتخلف أحد عن بيعته؛ ووصلوا إليه على طبقاتهم؛ فكرم منازلهم، وأجمل خطابهم. وتسمى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله. لقب قد سبقه إليه أبو أحمد المتوكل العباسي بالمشرق؛ وتبعه فيه أيضا عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 97.

[2] قال ابن بسام: ((وجلس على بنفسه لمظالم الناس؛ وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب؛ للوارد والصادر؛ يقيم الحدود مباشرا بنفسه؛ لا يحاشي أحدا من أكابر قومه. فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض؛ وسلكت السبل، ورخا السعر، وأرقُّوا الأغذية، وشاموا النساء وطلبوا النسل... واستمر على أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر في أحسن عشرة. ثم آنس منهم الكراهية لدولته. وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس. فعزم على إبادة أهل قرطبة وإخلائها؛ فلا يعود لأئمتهم المروانيية سلطان آخر

غيـر أنـه شعـر ــ بعدئـذ ــ مـن أهـل قرطبـة ميـلا إلى أميـر أمـوي ظهـر في شـرق الأندلـس؛ اسمـه عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن عبـد الملـك بـن عبـد الرحمـن الناصـر؛ وقـد تلقـب بالمرتـضى؛ وذلـك في سنـة 407هـ(1016م). عندهـا تحـول عـن أسلوبـه الأول الـذي اتبعـه في حكـم قرطبـة.[1] فأطلـق أيـدي أتباعـه الأمازيـغ عـلى أهـل المدينـة ــ كـرد فعـل منـه ضـد أولئـك السكـان؛ الذيـن قابلـوا إحسانـه بالإسـاءة، وجميـل فعلـه معهـم بالنكـران ــ فانتشـر النهـب فيهـم مـن جديـد؛ وكثـر العيـث والفسـاد في البلـدة؛ دون أن يجـد سكانهـا حمايـة أو أذنـا صاغيـة لنجـدة أو إغاثـة.[2]

الدهـر؛ ثـم يعـود إلى ساحلـه، ويجمـع شمـل برابرتـه؛ فيضـرب بهـم جميـع الأنـدلـس. فانقلـب سريعـا ظـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لهـم، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ــ 99.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وانقلـب سريعـا عـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لأهـل قرطبـة، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره عليهـم لمـا أحـس منهـم الميـل إلى الخليفـة المرتـضى)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكـر ابـن بسـام أنـه: ((وبلغـه أيضـا قيـام المرتـضى بشـرقي الأندلـس؛ فعـزم عـلى إبـادة أهـل قرطبـة، وإخلائهـا؛ فـلا يعـودون إلى أئمتهـم المروانيـة سلطـان إلى آخـر الدهـر؛ ثـم يعـود إلى ساحلـه، ويجمـع شمـل برابرتـه؛ فيضـرب بهـم جميـع الأندلـس. فانقلـب سريعـا ظـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لهـم، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره، وأغـضى عـلى سـوء مـا كانـوا عليـه مـن الظلـم والحيـف؛ فوقـع أهـل قرطبـة في وغيرهـم في حالتهـم مـدة سليمـان مـن استيطالتهـم عليهـم. وصـب عـلى أهـل قرطبـة ضروبـا مـن التنكيـل والمغـارم؛ وانتـزع السـلاح

ولا بد – هنا – أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم – بحكم طبعهم البدوي – لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من

منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

[1] ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الأنقيا لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.

نعومة أهل المدن، ورقة عاداتهم، وهشاشة عظامهم، وسوء أخلاقهم.[1]

ومع هذا لم يهنأ علي بن حمود مدة طويلة بخلافة المسلمين في قرطبة؛ إذ تعرض لمؤامرة اغتيال؛ بعد واحد وعشرين شهرا وسبعة أيام[2] من يوم بيعته؛ وبالتحديد في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م). ونسبت المصادر اغتياله إلى بعض صبيانه الصقالبة؛ وتم ذلك داخل حمام قصره.[3]

---

[1] تكلم ابن خلدون في هذا حين قال: ((وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعاكفون على شهواتهم منها؛ قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم.... وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها؛ وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة قبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 584 ـــ 585.

[2] الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددها المراكشي بـ((عامين غير شهرين)). المعجب، ص: 50. بينما يقول ابن عذاري أنه حكم سنة وتسعة اشهر وتسعة أيام. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120. أما المقري فذكر أن بعضهم حققوها بإحدى وعشرين شهرا وستة أيام. نفح الطيب، ج: 1، ص: 483.

[3] راجع ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 684 ـ 686.

ولما اكتشفت الجريمة سارع أنصاره ـ من القادة والأعيان الأمازيغ ـ إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى ـ في البداية ـ بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي ابن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[1]

ـ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[2] ويقال أنه تشَيَّعَ سراً ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[3] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث

---

[1] الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286

[2] يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[3] العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.

حكم قرطبة فترتين؛[1] تخللهما انقطاع لمدة عام ونصف تقريبا؛ تغلب خلالها عليه ابن أخيه يحيى ابن علي بن حمود؛ الذي كان واليا على سبتة.[2] وهكذا تحقق ما لم يكن ينتظره القاسم؛ لأنه ــ كما يبدو ــ يكون قد اقتنع ــ منذ الوهلة الأولى ــ ورضي بما تحصل عليه من ولاية ممثلة في حكم إشبيلية. ولكن شاءت الأقدار أن يصبح فجأة وبدون تخطيط خليفة للمسلمين. وعليه فقد استهل الفترة الأولى من حكمه ــ التي بدأت في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م) ــ بمظهر الحاكم الجاد والحازم والعادل؛ إذ أظهر ميلا إلى إصلاح الحال، ورعاية شئون العباد، وتنمية أسباب المعاش والعمران، وكان يتصف بالرفق، وحسن السياسة للرعية.

غير أنه ــ مع مرور الأيام ــ ظهر عليه شيء من الضعف والخذلان؛ أمام قوة العصبية التي اعتمد عليها في بداية أمره؛ وتتمثل تلك العصبية في قبائل الأمازيغ. ويبدو أنه كان أسير فضلهم عليه؛ ولكنه عندما استثقل هيمنتهم، وتضايق من شدة تغلبهم عليه وعلى شئون الدولة ــ باحتكار المناصب الحساسة فيها لصالحهم ــ جعله يسعى جاهدا لكي يتخلص ــ نوعا ما ــ من ثقل وطأتهم.

---

[1] دامت الفترة الأولى من ذي القعدة سنة 408هـ إلى ربيع الآخر سنة 412هـ. أما الفترة الثانية فبدأت بذي القعدة من سنة 413هـ إلى شعبان من السنة نفسها.

[2] المغرب، ص: 133. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 124 ــ 125. 130 ــ 131.

لــذا فقــد أراد خلــق بعــض التــوازن في القــوى؛ حيــث شــرع في اصطنــاع جماعــات مــن الســودان؛ الذيــن أسنــد إليهــم بعــض المهــام الحساســة في الدولــة.[1] وهنــا تحركــت العصبيــة الأمازيغيــة الــتي وجــدت أنــه مــن واجبهــا الدفــاع عــن مصالحهــا؛ ومنــع تحقيــق مــا يخطــط لــه القاســم بــن حمــود. وهنــا يتبيــن بوضــوح صــدق المقولــة الــتي ذكرهــا ابــن خلــدون ضمــن: **"فصــل في استظهــار صاحــب الدولــة عــلى قومــه وأهــل عصبيتــه بالمــوالي والمصطنعيــن"** [2]

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((وزاد كلــف القاســم في اتخــاذ الســودان؛ وقودهــم في أعمالــه؛ إلى أن ضعــف أمــره، وتسلــط البرابــرة عليــه حــتى احتقــره. فكاتــب منــذر بــن يحــيى ــ في الســر ــ يبثــه شأنهــم، ويستنهضــه لتقويمهــم؛ فلــم يكــن فيــه فضــل لذلــك)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 481. وورد النــص نفســه في البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 130.

[2] جــاء في قــول ابــن خلــدون: ((فــإذا جــاء الطــور الثــاني وظهــر الاستبــداد عنهــم، وانفــرد بالمجــد، ودافعهــم عنــه بالــراح؛ صــاروا ــ في حقيقــة الأمــر ــ مــن بعــض أعدائــه؛ واحتــاج في مدافعتهــم عــن الأمــر، وصدهــم عــن المشاركــة إلى أوليــاء آخريــن؛ مــن غيــر جلدتهــم يستظهــر بهــم عليهــم، ويتولاهــم دونهــم؛ فيكونــون أقــرب إليــه مــن سائرهــم، وأخــص بــه قربــا واصطناعــا، وأولى إيثــارا وجاهــا؛ لمــا أنهــم يستميتــون دونــه في مدافعــة قومــه عــن الأمــر الــذي كــان لهــم، والرتبــة الــتي ألفوهــا في مشاركتهــم؛ فيستخلصهــم صاحــب الدولــة حينئــذ، ويخصهــم بمزيــد التكرمــة والإيثــار؛ ويقســم لهــم مثــل مــا للكثيــر مــن قومــه، ويقلدهــم جليــل الأعمــال والولايــات مــن الــوزارة والقيــادة والجبايــة؛ ومــا يختــص بــه لنفســه؛ وتكــون خاصــة لــه دون قومــه مــن ألقــاب المملكــة؛ لأنهــم حينئــذ أوليــاؤه الأقربــون ونصحــاؤه المخلصــون. وذلــك حينئــذ مــؤذن باهتضــام الدولــة، وعلامــة عــلى المــرض المزمــن فيهــا؛ لفســاد العصبيــة الــتي كــان بنــا الغلــب عليهــا،

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ـ الذي كان واليا على سبتة ـ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[1] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[2]

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[1] أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.

تلـك هي الفتـرة الأولى مـن حكـم القاسـم (المأمـون) في قرطبـة؛ أمـا الفتـرة الثانيـة فبـدأت بعـد انقـلاب الأمازيـغ عـلى ابـن أخيـه يحـيى بـن عـلي؛ ممـا أجبـره عـلى الهـروب ــ هـو الآخـر ــ إلى مالقـة تحـت جنـح الليـل.

فمـا كـان مـن القاسـم ــ لمـا سمـع بخبـر خـروج يحـيى إلى مالقـة فـارا ــ إلا أنـه تحـرك مـن فـوره والتحـق بقرطبـة مـن جديـد؛ وتـم ذلـك في ذي القعـدة مـن سنـة 413هــ(1022م). ومـع هـذا لـم تـدم الفتـرة الثانيـة مـن حكمـه طويـلا؛ إذ ثـار عليـه أهـل قرطبـة؛ في شعبـان مـن عـام 414هــ(1023م)؛ بدعـوى أنهـم لـم يحتملـوا تسلـط الأمازيـغ في الأسـواق.[1] بينمـا يقـول ابـن بسـام: ((**فتكنـف سريـره أغمـار النـاس مـن البرابـر؛ وخرجـوا** [أي أهـل قرطبـة] **لقتالهـم سنـة أربـع عشـرة**)).[2] ويتفـق ابـن الخطيـب مـع هـذا الـرأي أيضـا.[3]

---

[1] البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 134.

[2] الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.

[3] إذ يقـول: ((وفسـد مـا بينـه [أي القاسـم] وبيـن أهـل المدينـة؛ بسبـب مـن حفـه مـن البرابـرة)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 133. أمـا ابـن الأثيـر فيـرى أن استيـلاء يحـيى وإدريـس عـلى الجزيـرة الخضـراء وطنجـة؛ شجـع النـاس عـلى العصيـان؛ إذ يقـول: ((فلمـا ملـك ابنـا أخيـه بـلاده طمـع فيـه النـاس؛ وتسلـط البربـر عـلى قرطبـة فأخـذوا أموالهـم؛ فاجتمـع أهلهـا وبـرزوا إلى قتالـه عاشـر جمـادى الأولى سنـة أربـع عشـرة [وأربعمائـة] فاقتتلـوا قتـالا شديـدا؛ ثـم سكنـت الحـرب، وأمـن بعضهـم بعضـا إلى منتصـف جمـادى الآخـرة مـن السنـة؛ والقاسـم بالقصـر يظهـر التـودد لأهـل قرطبـة وأنـه معهـم وباطنـه مـع البربـر؛ فلمـا كـان

أما المقري فيتعمق في الشرح بعض الشيء؛ بحيث يفهم من قوله أن الاحتقان بين الطرفين ربما كان بسبب التضييق على أهل قرطبة؛ أثناء البحث عن بعض الأمويين المشتبه في أمرهم؛ بعد أن أشيع أن قائما منهم سوف يظهر.[1]

ولما عاد القاسم إلى إشبيلية مهزوما من قرطبة؛ وجد أبوابها مقفلة في وجهه؛ بتدبير من القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد؛ الذي أوهم سكان المدينة بأن القاسم سيسكن من معه من الأمازيغ في مساكن الإشبيليين. ومن جهة أخرى فقد أغرى ـ صاحب القاسم وثقته ـ محمد بن

يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة صلى الناس الجمعة؛ فلما فرغوا تنادوا السلاح السلاح؛ فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفظوا البلد، ودخلوا قصر الإمارة؛ فخرج عنها القاسم...)). الكامل، ج: 7، ص: 286. ويتفق ابن خلدون مع الرأي القائل بأن تغلب ابني أخيه على حصونه ومراكزه في طنجة والجزيرة الخضراء قد شجع الناس على التجاسر عليه. العبر، مج: 4، ص: 331.

[1] وقد وصف المقري ما حدث بقوله: ((ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة. ووقع الاختلاف؛ وكان هوى السودان معه، وهوى كثير من البرابر مع يحيى، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر؛ وكثر الإرجاف بذلك، ووقع الطلب على بني أمية؛ فتفرقوا في البلاد، ودخلوا في أغمار الناس، وأخفوا زيهم. ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة؛ وتكاثر البلديون، وأخرجوا القاسم وبرابرته؛ فضرب خيمة بغربيها، وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا... وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية، وفر البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة؛ وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة 414هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 487.

زيري بن دوناس اليفرني، وأطمعه في إمارة البلدة إن هو ساعدهم على منع دخول القاسم إلى قرطبة.[1]

وبهذا لم يجد القاسم بدا من الخضوع لإرادتهم؛ نظرا لكون أهل البلد حاصروا ابنه محمدا في دار الإمارة؛ وساوموه على فك الحصار عنه والسماح له بالخروج من إشبيلية؛ مقابل أن يرفع هو بدوره الحصار عن المدينة ويتخلى عن المطالبة بها. فلم يجد القاسم أمامه اختيارا آخر غير القبول بشروطهم؛ كسبا للوقت. وتحول إلى شريش؛ حيث بقي هناك بعض الوقت. وفي تلك المدينة ازدادت محنته؛ حين تفرق من حوله جل أنصاره من الأمازيغ، الذين التحقوا بابن أخيه المعتلي يحيى بن علي بمالقة؛ وذلك في سنة 415هـ(1024م).[2]

---

[1] وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ولحق المأمون بإشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات البربر؛ فأطمعه القاضي محمد بن إسماعيل ابن عباد في الملك؛ وأن يمتنعوا من القاسم؛ فمنعوه، وأخرجوا إليه ابنه، وضبطوا بلدهم. ثم اشتد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري)). العبر، مج: 4، ص: 232. ويتفق مع هذا الرأي المقري فيقول: ((وأطمع [أي ابن عباد] بن زيري في التملك؛ فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه؛ فقتل من البربر والسودان خلق كثير؛ وابن عباد يضحك على الجميع؛ فيئس القاسم، وقنع أن يخرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم؛ فأخرجوهم إليه؛ فسار بهم إلى شريش)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] العبر، مج: 4، ص: 332.

ولما تخلص ابن عباد من الخطر الذي كان يمثله القاسم؛ انقض على محمد بن زيري بن دوناس اليفرني، وطرده من إشبيلية. وهكذا لم تفد ابن دوناس خيانته للقاسم صاحب الفضل عليه. هذا ولم يطل الحال بالقاسم في شريش حتى زحف إليه المعتلي يحيى بن علي فحاصره فيها، وقاتله قتالا شديدا، ثم ضيق عليه حتى استسلم؛ فنقله معه إلى مالقة؛ أين رماه في الأسر حتى مات، أو قتل في السجن سنة 427هـ(1035م) كما قال بعضهم.[1] هذا وخلف القاسم من الأولاد: محمدا الذي تسمى بالخلافة في الجزيرة الخضراء، والحسن الذي تنسك ولبس الصوف، ثم توجه إلى الحج.[2]

وفي عهد القاسم بن حمود قتل عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك (المرتضى)؛ الأمير الأموي الثائر بشرق الأندلس.[3] وكان زهير الفتى، وخيران الصقلبي، ومنذر بن يحيى التجيبي ــ في قومه ومعززا بجماعة من فرسان الفرنج ــ وسليمان بن هود ــ مدعوما هو الآخر بفرسان من الفرنج وآخرين ــ قد اتفقوا على تنصيبه

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 ــ 486. ويقول المراكشي وابن الأثير أنه قتل في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ــ 52. والكامل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] ويرى ابن حزم أن ابني الحسن هذا هما: هاشم وعقيل. الجمهرة، ص ص: 50.

[3] جعل المراكشي وابن الأثير خبر المرتضى ومقتله في عهد علي بن حمود. المعجب، ص ص: 49 ــ 50. الكامل، ج: 1، ص: 285.

خليفــة؛ ومحاربــة القاســم ومــن معــه مــن الأمازيــغ. ثــم زحفــوا جميعــا معــه ـ في قــوة عظيمــة ـ نحــو قرطبــة؛ ولكنهــم اشتبكــوا في الطريــق ببــني زيــري عنــد حــدود إمــارة غرناطــة؛ فانهــزم جيــش المرتــضى، ونهبــت محلتــه، وتشتــت أنصــاره. ومــن المفارقــات العجيبــة أن الذيــن نصبــوا المرتــضى ونــادوا بــه خليفــة للمسلميــن هــم الذيــن تسببــوا في هزيمتــه؛ بعــد خيانتــه، إذ تركــوه فريســة لعــدوه.[1] بــل هــم الذيــن قتلــوه عندمــا فــر هاربــا.[2]

[1] قــال ابــن بســام: ((وأول مــن انهــزم مــن ذلــك العسكــر منــذر بــن يحــيى وخيــران الصقلــبي. وكــان منــذر قــد أوقــع في نفــوس مــدده مــن رجــال الإفرنجــة الذعــر مــن غــدر المــوالي العامرييــن؛ فشغــل بذلــك بالهــم. فلمــا انهــزم لــم يعرفــوا الســر؛ وأجفــل منــذر في أصحابــه الثغرييــن؛ فمــر بسليمــان بــن هــود صاحبــه وهــو مثبــت للإفرنجــة لا يريــم موقفــه. فصــاح بــه: النجــاة يــا بــن الفاعلــة. فلســت أقــف عليــك. فقــال لــه سليمــان: جئــت واللــه بهــا صلعــاء، وفضحــت أهــل الأندلــس؛ ثــم انقلــع وراءه ببقيــة عسكــره؛ وانقلــع أيضــا خيــران برجالــه. وصبــر المــوالي العامرييــن قليــلا حــول صاحبهــم المرتــضى)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ـ 455. وممــا نقلــه ابــن بســام أيضــا عــن ابــن حيــان قولــه: ((وذلــك أنــه لمــا انهــزم المرتــضى؛ قــال زاوي لقومــه: "كيــف رأيتــم مــا قــد خلصنــا منــه؟" قالــوا: "عظيمــا". قــال: "فــلا تنســوه وتغالطــوا أنفسكــم بعــده؛ إن انهــزام مــن رأيتموهــم لــم يكــن مــن قــوة منــا. وإنمــا جــره مــع القضــاء غــدر ملوكهــم لسلطانهــم ليهلكــوه كمــا فعلــوا؛ فــإني عرفــت ذلــك مــن يــوم نزولهــم)). نفســه، ص: 458.

[2] أنظــر الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ـ 458. والبيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 125 ـ 130. وأعمــال الأعــلام، ق: 2، ص ص: 130 ـ 131. ونفــح الطيــب، ج: 1، ص ص: 484 ـ 486.

هذا واستولى بنو زيري على ما في محلة المرتضى ـ بعد هزيمته ـ من: أنواع السلاح وصنوف الذخائر وعتاق الخيل ومختلف الأحمال وأزهى القباب. ولم ينس زاوي بن زيري بن مناد أمير الصنهاجيين أن يرسل إلى القاسم بن حمود سهمه من الغنيمة؛ بصفته الخليفة المعترف به.[1] وبهذا أصبحت الأندلس كلها نهبا للأقوياء؛ من القبائل العربية، والأمازيغية، وبعض الكتل والعصابات من المماليك الصقالبة، والفتيان العامريين والنصارى وغيرهم؛ حدث ذلك كنتيجة لتلك المعركة التي وقعت بين المرتضى وبني زيري في سنة 409هـ(1018م). وبالمقابل تأكدت نهاية الحكم الأموي نهائيا في تلك الربوع؛ وذلك على الرغم من المحاولات الفاشلة الساعية في قرطبة لإحياء دولتهم.[2]

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وورد على القاسم بن حمود الخبر بمقتل المرتضى، وهزيمة الأندلسيين من قبل زاوي مع سهمه من الغنيمة؛ وفي الجملة سرادق المرتضى؛ فسر بذلك، وضرب السرادق على نهر قرطبة؛ وغشيه الناس ينظرون إليه؛ وقلوبهم تتقطع أسىً وحسرة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 131.

[2] للتوسع في دولة بني حمود يستحسن الرجوع إلى الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 ـ 59. 96 ـ 102. 452 ـ 461. 468 ـ 486. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 115 ـ 144. 216 ـ 220. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 128 ـ 143. والعبر، مج: 4، ص ص: 330 ـ 336. ودولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول ـ القسم الثاني)، ص ص: 656 ـ 677.

وفي هذا يقول ابن بسام نقلا عن ابن حيان: **((فحلت بهذه الوقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها؛ ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد؛ وأقروا بالإدبار، وباءوا بالصغار. وورد على القاسم كتاب زاوي بشرحها مع نصيبه من الغنيمة؛ وفي جملتها سرادق المرتضى. فضربه القاسم على نهر قرطبة، وغشيه من النظارة جملة من علية الناس؛ وقلوبهم تتقطع حسرة منه. فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت)).**[1]

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد هذا ـ كغيره من أمراء الأسرة الأموية ـ يحقد على الأمازيغ، ويعلن تعصبه ضدهم؛ بسبب نصرتهم السابقة للعامريين. وكان يحملهم مسئولية التفكك والانهيار الذي أصاب الدولة الأموية في أواخر أيامها. ومن منظوماته التي تفيض بالعداء للأمازيغ قوله:

---

[1] الذخيرة، ق: 1، ص ص: 455 ـ 456. وراجع النص نفسه تقريبا في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 127 ـ 128. وأعمال الأعلام ق: 2، ص: 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

قــدْ بَلــغَ البَرْبــرُ فِينــا بنــا
مَــا أفسَدَ الأحْــوَالَ وَالنظمَــا
كَالسَّهْــمِ لِلطَّائِــرِ لوْلاَ الــذِي
فِيـــهِ مِنَ الرِّيـــشِ لمَا أصـْـمَى
قومُــوا بِنا فِي شَأنِهــمْ قوْمَــة
تزِيــلُ عَنــا العَــارَ وَالرَّغمَــا
إمَّــا بِهَا نمْلــكُ، أوْ لاَ نــرَى
مَا يَرجــعُ الطــرْفُ بهِ أعْــمَى

وقــد أنشــد محمــد بــن سليمــان بــن الحنــاط الكفيــف شاعــر بــني حمــود قصيــدة أمــام القاســم مشيــدا بالانتصـــار عـــلى المرتــضى وأتباعـــه؛ جـــاء في مطلعهـــا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْــرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ
وَأصبْــحَ مُلْكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود:

كان يحيى بن علي بن حمود ـ في عهد والده ـ واليا على سبتة، بينما اختص أخوه إدريس بولاية مالقة. وكانت في نفس يحيى غصة من عمه؛ بسبب اعتقاده أنه اغتصب منه الملك، واستولى على ميراثه الشرعي؛ نظرا لكونه هو ولي عهد أبيه.[1] غير أنه استسلم ـ في البداية ـ لمنطق القوة والغلبة؛ عندما فهم أن معظم القبائل الأمازيغية كانت تتعاطف مع عمه. ومع هذا فقد ظل يرى في نفسه أحق من عمه بالخلافة. ويرى أنه سبقه إلى العرش؛ منتهزا بعده عن عاصمة الدولة آنئذ؛ إذ أن وجوده في سبتة بالعدوة المغربية ساعد عمه القاسم في التربع على العرش بدلا منه. والراجح هنا هو أن السبب يعود أيضا إلى ميل القبائل الأمازيغية في البداية ـ وهم القوة الضاربة في قرطبة ـ إلى تنصيب القاسم. وربما عللوا موقفهم ـ كما جاء في بعض المصادر ـ إلى عدة أسباب؛ منها: أنهم أحسوا بأن القاسم غبن منذ البداية؛ إذ كان أسن من أخيه علي؛ الذي سبقه وتربع على سدة الخلافة في قرطبة.

---

[1] يقول البكري: ((وكان له [أي علي بن حمود] من الولد يحيى وإدريس؛ وولى عهده منهما يحيى؛ وكان صاحب المغرب، وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة. فلما قتل علي استدعى البربر القاسم أخاه، وأدخلوه القصر، وبايعه الناس، وخطب له بالخلافة؛ فأنف من ذلك ابن أخيه يحيى؛ لما تقدم من عهد أبيه له)). المغرب، ص: 1333.

ثم إن الوضع السياسي في تلك المدينة آنئذ ــ أي يوم قتل علي ــ لم يكن يسمح بالتريث والانتظار حتى يأتي يحيى بن علي من سبتة؛ التي كانت أبعد من إشبيلية.[1] وبحكم هذه المسوغات فقد وجد يحيى نفسه ــ في البداية ــ مضطرا للخضوع للأمر الواقع على مضض؛ ولكنه لم يستسلم إليه بشكل مطلق.

وعليه فقد شرع في الإعداد الهادئ لاستعادة ما سلب منه. إذ شرع في تعزيز موقفه عن طريق أخيه إدريس في مالقة؛ لكي يسهل عليه التحرك فيما بعد. وبالفعل فقد كان منطلقه عند زحفه إلى قرطبة؛ عبر تلك المدينة الساحلية. وجاءت الفرصة بسرعة؛ لما شعر ببوادر الضيق والخلاف التي أخذت تدب بين رؤساء القبائل الأمازيغية وعمه؛ جراء اصطناع جماعة من السودان؛ فسارع من فوره إلى تأجيج غيظهم، وتحذيرهم من خطط عمه التي يعمل على تحقيقها؛ باستخدام فرق من السودان لحماية ملكه؛ وإضعاف نفوذ القبائل الأمازيغية.[2]

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 484.

[2] يقول المقري: ((وكتب [يحيى] من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: "إن عمي أخذ ميراثي من أبي؛ ثم إنه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان. وأنا أطلب ميراثي، وأوليّكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس"؛ فأجابوه إلى ذلك. فجمع ما عنده من المراكب؛ وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة؛ فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع

وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[1] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[1] راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ـ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ـ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ـ 678.

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي بن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2]

---

[1] الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.

[2] فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ـ عند ذلك ـ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السّفلة. ووصَّل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ـ في أيامه ـ

ومــع هــذا فقــد عقــد يحــيى صلحــا مــع عمــه؛ عــلى أن يعتــرف كــل واحــد منهمــا بالآخــر؛ فتســمى كلاهمــا بلقــب خليفــة.[1] وبذلــك أصبــح في قرطبــة خليفــة، وفي إشبيليــة خليفــة آخــر؛ وهــذا طبعــا يــدل عــلى الضعــف والهــوان الــذي أضــحى عليــه لقــب خليفــة في الأندلــس.

وحــتى يحــيى بــن عــلي هــذا حكــم قرطبــة ــ مثــل عمــه ــ في فترتيــن: بــدأت الأولى في جمــادى الأولى مــن سنــة 412هـ كمــا تــم ذكــره؛ وظــل متربعــا عــلى سريــر الحكــم ــ في هــذه الفتــرة ــ مــا يناهــز السنــة وستــة أشهــر؛ ثــم خــرج فــارا ــ كعمــه أيضــا ــ إلى مالقــة؛ بعــد أن ضــاق بــه الحــال في تلــك المدينــة المتقلبــة. أمــا الفتــرة الثانيــة فأتــت بعــد أن عمــل القرطبيــون عــلى تنصيــب بعــض الأمويين ــ مــن جديــد في قرطبــة ــ كخلفــاء؛ وكــان آخرهــم المستكــفي

أبــو بكــر بــن ذكــوان، وأبــو العبــاس أحمــد بــن أبي حاتــم أخــوه؛ وأنهضهمــا إلى الــوزارة عقــب وفــاة الشيــخ أبي العبــاس بــن ذكــوان. وغَــرب شــأوُ أبي بكــر منهــم؛ فجاء أحوذيّاً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[1] **يقــول ابــن عــذاري: ((وكــان عمــه القاســم بــن حمــود لمــا رأى جــور البربــر، وقلــة طاعتهــم؛ خــرج مــن قرطبــة إلى إشبيليــة فــارا منهــم وخائفــا، فاستقــر بإشبيليــة وهــو يــدعى لــه بالخلافــة، ويتســمى بأميــر المؤمنيــن؛ فخاطــب البربــر ــ مــن قرطبــة ــ إلى ابــن أخيــه هــذا يحــيى بــن عــلي؛ وأدخلــوه قرطبــة، وبويــع بهــا ــ كمــا ذكرنــا ــ وتســمى بالخلافــة وإمــرة المؤمنيــن، وتلقــب بالمستعــلي؛ (قــال ابــن حــزم): "خليفتــان تصالحــا؛ وهــو أمــر لــم يسمــع بــأذل منــه، ولا أدل عــلى إدبــار الأمــور؛ يحــيى بــن عــلي بــن حمــود بقرطبــة، والقاســم بــن حمــود بإشبيليــة")). البيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 132 ــ 133.**

محمد بن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم – وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شُهَيد – إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى بن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية.

عندئذ زحف يحيى – كرة أخرى – نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل – كما جاء في بعض الأقوال – إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة – أيضا – وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م).

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان – بصراحة – أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون – بغموض – أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.

وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛ بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ــ كعادتهم ــ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ــ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (المعتلي) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ــ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة

---

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ــ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.**

[2] **الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.**

القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره ــ كعمه ــ الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط.

هـذا ولـم يطـل بقـاء القاسـم ـ كمـا سبقـت الإشـارة إليـه ـ في قرطبـة؛ إذ اضطـر هـو بـدوره إلى الخـروج منهـا مطـرودا بضغـط مـن سكانهـا؛ وذلـك في سنـة 414هـ(1023م). ويبـدو أنهـم ـ كمـا أشـار إلى ذلـك ابـن الأثيـر وابـن خلـدون ـ قد استضعفـوه بعـد أن وصلتهـم أخبـار أفـادت بتغلـب ابـن أخيـه يحـيى المعتـلي عـلى حصونـه ومراكـزه في الجزيـرة الخضـراء وطنجـة.[1]

****

ـ دولـة بـني حمـود خـارج قرطبـة:

وبخـروج القاسـم إلى إشبيليـة ويحـيى إلى مالقـة؛ أفـل شعـاع قرطبـة نهائيـا كحاضـرة للخلافـة بالأندلـس. وأصبحـت كغيرهـا مـن مـدن تلـك الديـار؛ تابعـة لمراكـز أخـرى؛ سـواء كانـت مالقـة أو طليطلـة أو إشبيليـة أو غيرهـا. وأضـحى. الحديـث ـ مـن جهـة أخـرى ـ عـن دولـة بـني حمـود لا يعـدو أن يكـون حديثـا عـن إمـارات متفرقـة للحموديـين ـ مثلهـا مثـل أي إمـارة مـن إمـارات الطوائـف ـ في: مالقـة أو في الجزيـرة أو في سبتـة؛ ثـم انحـدر بهـا الحـال شيئـا فشيئـا أخيـرا إلى مجـرد إمـارة صغيـرة في مدينـة مليلـة. ومـع هـذا فقـد أصـر أصحـاب تلـك الإمـارات

---

[1] الكامـل، ج: 7، ص: 286. والعبـر، مج: 4، ص: 331.

على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا ملها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُريُّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببُبَشْتر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ـ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ـ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ـ بدورهم ـ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ـ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ـ 192. 216 ـ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ـ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ـ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ـ 98.

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود في مالقة:

فمنذ البداية كان يحيى يميل إلى الاستقرار في مدينة مالقة أكثر من ميله إلى قرطبة؛ تلك المدينة التي لا تستقر على حال. وذلك لأن مالقة تحتل موقعا قريبا من أنصاره وعصبيته في الضفة المغربية. لذا فعند خروجه في المرة الثانية من قرطبة في سنة 417هـ(1026م)؛ قرر أن يجردها من صفتها السابقة كعاصمة للخلافة؛ ووضعها في مصاف المدن الثانوية التابعة لمركز الخلافة في مالقة. لهذا فقد أسند شئونها إلى بعض معاونيه؛ كـ: أبي جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في قول، أو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني في قول آخر.

وكان قد عمل ـ قبل هذا التاريخ، وبالتحديد في سنة 413هـ(1022م) لما خرج في المرة الأولى من قرطبة ـ على تنظيم شئونه في مالقة؛ حيث تمسك بإعلان نفسه خليفة إلى جانب عمه خليفة إشبيلية. وبقي يترقب ما يجري في قرطبة وإشبيلية؛ حتى وصلته أخبار هروب عمه القاسم من قرطبة للمرة الثانية، وامتناع إشبيلية عن استقباله؛ الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى شريش. عندها لم يترك يحيى هذه الفرصة تفوته؛ لذا فقد زحف فورا إلى شريش؛ بنية القتال ضد عمه؛ إذ حدثت بينهما معارك شديدة؛ ضيق خلالها يحيى الحصار على عمه حتى استسلم له في الأخير؛ فقام بأسره؛ ثم نقله معه إلى مالقة عاصمة ملكه. أين كان

مصيـــره القتـــل في السجـــن سنـــة 427هـــ(1035م).[1] في قـــول، أو في 431هـــ(1039م) في قـــول آخـــر.

وكـــان يحـيى بـــن عـــلي يســعى جاهــدا ــ منــذ تــرك قرطبــة في المــرة الأولى ــ إلى تمهيــد دولتــه وتقويتهـــا انطلاقـــا مـــن مالقـــة؛ لـــذا فإنـــه لـــم يتـــراخ لحظـــة واحـــدة عـــن محاولـــة ضـــم مقاطعـــات جديـــدة لمملكتـــه؛ مـــن ذلـــك أنـــه تغلـــب عـــلى الجزيـــرة الخضـــراء؛ الـــتي كانـــت إحـــدى مراكـــز عمـــه الخلفيـــة؛ وفي الوقـــت نفســـه تمكـــن أخـــوه إدريـــس ــ الوالي عـــلى سبتـــة ــ مـــن التغلـــب عـــلى طنجـــة؛ الـــتي كانـــت ــ أيضـــا ــ حصنـــا ومستودعـــا لذخائـــر عمـــه. ويعتبـــر خـــروج هاتيـــن المقاطعتيـــن الهامتيـــن مـــن يـــد القاســـم؛ بمثابـــة الضربـــة القاصمـــة لسلطانـــه.

---

[1] شـــرح المقـــري سبـــب قتلـــه بقولـــه: ((وأجلـــت الحـــرب عـــن قهـــر يحـــيى لعمـــه، وإســـلام أهـــل شَريـــشَ لـــه، وفـــر سودانـــه؛ وحصـــل القاســـم وابنـــه في يـــد يحـــيى؛ وكـــان قـــد أقســـم أنـــه إن حصـــل في يـــده ليقتلـــه، ولا يتركـــه حـــتى يـــلي الإمامـــة في قرطبـــة مـــرة ثانيـــة؛ فـــرأى التربـــص في قتلـــه = =حـــتى يـــرى رأيـــه فيـــه. فحـــدث عنـــه بعـــض أصحابـــه أنـــه حملـــه بقيـــد إلى مالقـــة، وحبســـه عنـــده؛ وكـــان كلمـــا سكـــر وأراد قتلـــه رغبـــه ندمـــاؤه في الإبقـــاء عليـــه؛ لأنـــه لا قـــدرة لـــه في الخـــلاص... وامتـــدت الحـــال عـــلى ذلـــك إلى أن قتلـــه خنقـــا بعـــد ثـــلاث عشـــرة سنـــة مـــن حيـــن القبـــض عليـــه؛ لأنـــه كـــان قـــد حبســـه في حصـــن مـــن حصـــون مالقـــة؛ فنـــمي إليـــه أنـــه قـــد تحـــدث مـــع أهـــل الحصـــن في القيـــام والعصيـــان؛ فقـــال أوَبـــقي في رأســـه حديـــث بعـــد هـــذا العمـــر؟ فقتلـــه سنـــة 427هـــ)). نفـــح الطيـــب، ج: 1، ص: 488. وذكـــر عبـــد الواحـــد المراكـــشي أنـــه بـــقي في السجـــن في زمـــن كـــل مـــن: يحـــيى وإدريـــس؛ ولـــم يقتـــل خنقـــا إلا بعـــد مـــوت إدريـــس في سنـــة 431هـــ. المعجـــب، ص ص: 51 ــ 52. أمـــا ابـــن الأثيـــر فيـــرى أن الـــذي قتـــل القاســـم هـــو إدريـــس بـــن عـــلي وليـــس يحـــيى. الكامـــل، ج: 7، ص: 287.

وتلا ذلك ــ بالفعل ــ اضطراب حاله في قرطبة، إذ أعلن سكانها عليه العصيان.[1] ولم يكتف يحيى بهذا فحسب؛ بل تحرك أيضا لقتال عمه في شريش كما سبق ذكره. حيث قبض عليه مع ولديه: محمد والحسن؛ حيث سجنهم بمالقة؛ وربما يكون ــ كما جاء في بعض الروايات ــ قد حبس ابني عمه في الجزيرة الخضراء.[2]

ولم يكتف المعتلي يحيى بن علي بما افتكه من عمه؛ بل أكره عددا من أمراء الأمازيغ؛ كي يتخلوا له عن بعض مدنهم وحصونهم؛ التي تغلبوا عليها من قبل. وقد اتخذ من تلك الحصون منطلقا لحصار إشبيلية والتضييق عليها؛ كي يجبر ابن عباد على التسليم له والإذعان للطاعة.[3] ويبدو أن بعض القبائل الأمازيغية لم تكن مخلصة الإخلاص كله للمعتلي؛ وما خضوعها وإعلان

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 331.

[2] العبر، مج: 4، ص: 332.

[3] يقول في هذا ابن الأثير: ((واتفق البربر على طاعته، وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن؛ فقوي وعظم شأنه، وبقي كذلك مدة ثم سار إلى قرمونة؛ فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا في أخذها)). الكامل، ج: 7، ص: 288. ويتفق معه ابن خلدون فيقول: ((وأقام يحيى المعتلي يخيفهم ويردد العساكر لحصارهم [يقصد هنا ملوك الطوائف] إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له؛ فعلا سلطانه واشتد أمره؛ وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره؛ فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية؛ إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله)). العبر، مج: 4، ص ص: 332 ــ 333.

طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد ابن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[1] وذكر في هذا ابن خلدون: ((**فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛ وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة**)).[2] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: ((**واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في**

---

[1] أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.

[2] العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ــ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ــ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.

رفـــع السيــف عنهــم؛ فأطاعـــه في ذلـــك، وتـــم لأبـــن عبــد اللـــه مـــا أراد مـــن حقـــن الدمـــاء؛ إذ لـــم يـــأت الـــذي أتـــاه إلا عـــن ضـــرورة)).[1] وتلـــك الضـــرورة لـــم تكـــن في الحقيقـــة ســـوى الرغبـــة في استعـــادة حصـــن قرمونـــة؛ الـــذي افتكـــه يحـــيى مـــن سيـــد بـــني بـــرزال؛ واتخـــذه منطلقـــا لحصـــار إشبيليـــة. هـــذا وقـــد تـــرك يحـــيى ولديـــن صغيريـــن همـــا: الحســـن وإدريـــس.[2]

****

---

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 189.

[2] الجمهـــرة، ص: 51. المعجـــب، ص: 54. والكامـــل، ج: 7، ص: 288.

ـ الانقسـام الثـاني في أسـرة بـني حمـود:

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي ابن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم ـ بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة ـ زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل المعتلي يحيى ابن علي) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2]

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى بن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم ـ من معتقله بمالقة إلى الجزيرة ـ في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ثم طلب من أصحاب الحل في الجزيرة ـ من السودان والأمازيغ ـ البيعة لمحمد بن القاسم؛ الذي اكتفى ـ في البداية ـ بالإمارة على الجزيرة؛ وتغاضى عن الادعاء بالخلافة. ولكنه ـ فيما بعد ـ أعلن نفسه خليفة سنة 439هـ(1047م) وتسمى بالمهدي.[1] ولما توفي ولي بعده في مرتبة الخلافة ـ كما يزعم بعضهم ـ ابنه القاسم بن محمد؛[2] الذي قيل أنه تسمى بالواثق.[3] وكان هذا الأمير هو آخر من تولى من بني القاسم في الأندلس. ويعود السبب في انتقال الخلافة من بني علي بن حمود إلى بني أخيه القاسم؛ إلى ما أصاب دولة الأدارسة في مالقة من تفكك ووهن؛ لذا فقد قرر أمراء الأمازيغ ـ في تلك الديار ـ أن ينقلوا الخلافة من أسرة علي بن حمود في مالقة؛ إلى أسرة أخيه القاسم بالجزيرة.

---

[1] هكذا في جل المصادر؛ بينما قال ابن خلدون أنه تسمى بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335.

[2] قال ابن حزم أن محمد بن القاسم خلف من الأولاد: ((يحيى الأصم؛ أكبرهم، ثم القاسم؛ الوالي بعد أبيه؛ وكان حصورا؛ لا يقرب النساء، وإبراهيم، وأحمد، وجعفر، والحسين)). الجمهرة، ص: 51.

[3] هكذا قال ابن خلدون، العبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن حزم والمراكشي فيقولان أنه لم يتسم بالخلافة. الجمهرة، ص: 50. والمعجب، ص: 68.

وأولئك الأمراء هم: باديس بن حبوس الصنهاجي أمير بني زيري في غرناطة، وإسحاق ابن محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي أمير قرمونة، ومحمد بن نوح بن أبي تزيري الدمري الزناتي أمير مورور، وعبدون بن خزرون الرنداجي الزناتي أمير بني خزرون في أركش.[1] هذا وقد بقي أبناء القاسم في إمارتهم بالجزيرة حتى سنة 446هـ(1054م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها عليهم جيش المعتضد بن عباد؛ حيث أجلاهم قائد ذلك الجيش عن الجزيرة؛ فانطلقوا إلى المرية في حماية المعتصم بن صمادح.

---

[1] والكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 218. 229 ـ 230.

ـ حكومة المهدي محمد بن القاسم بن حمود:

نشأت هذه الإمارة ـ كما سبق قوله ـ في الجزيرة الخضراء أيام القاسم بن حمود؛ بتكليف من الخليفة الأموي المستعين بالله سليمان بن الحكم.[1] ثم تغلب عليها المعتلي يحيى بن علي، وقبض على ولدي القاسم: محمدا وحسن. ولكنهما استطاعا الإفلات بعد موت يحيى بن علي سنة 427هـ(1035م)؛[2] والعودة إلى امتلاك الجزيرة من جديد؛ بمساعدة المكلف بحراستهما؛ وهو من المغاربة، ويدعى أبا الحجاج. ومنذئذ اعتلى محمد ابن القاسم على عرش الجزيرة الخضراء؛ دون أن يتسمى ـ في البداية ـ بالألقاب الخلافية. أما أخوه حسن فقد تنسك، ولبس الصوف؛ ثم توجه إلى الحج مع أخته فاطمة؛ زوجة المعتلي يحيى بن علي.

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 284. والمعجب: ص: 43. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 62 ـ 63. أما ابن خلدون والمقري فيريان أنهما تمكنا من الفرار من محبسهما بمالقة في سنة 414هـ. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

وبقي محمد بن القاسم على ذلك الحال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك الجزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه أم محمد القاسم – واسمها سبيعة – فاحتجت عليه قائلة: ((**يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن**)).[1] فاستحى من قولها وتخلى عن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة الخلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي لمزاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء الأمازيغ – سنة 439هـ(1047م) – تحويل دعوتهم بالخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3] عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين.

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: **216**.

[2] يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع: ((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى الصقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: **64**.

[3] قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة – قال ابن حيان – "فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة أمراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم له بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد

ويبدو أن الأمازيغ عادوا فتخلوا عنه، وتركوه وحيدا؛ إذ يقال أنه مات غما سنة 440هـ(1048م). ويقول عبد الواحد المراكشي أنه أنجب زهاء ثمانية أولاد ذكورا.

ـ حكومة القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود:

تولي القاسم بن محمد الحكم في الجزيرة الخضراء إثر وفاة والده سنة 440هـ(1048م). وقد اختلفت آراء المؤرخين في المرتبة الملكية التي احتلها القاسم هذا؛ إذ يقول ابن خلدون والمقري ـ على سبيل المثال ـ أنه تسمى بلقب الواثق؛ بينما يرى ابن حزم أنه لم يتسم بالخلافة؛ ويتفق مع ابن حزم كل من: ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي.[2]

عباد بن محمد صاحب إشبيلية؛ ونزلوا عليها؛ ودخل معهم ابن الأفطس صاحب بطليوس. وكانت عدة هؤلاء الرؤساء مع إمامهم محمد بن القاسم على عباد بن محمد سبعة ملوك؛ ثم انصرفوا مع خليفتهم؛ ولم يقض الله لهم أربا. فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع، ولا اتفاق")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 219 ـ 220.

[1] يعتقد ابن خلدون والمقري: أنه تلقب بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين [وأربعمائة])). العبر، مج: 4، ص: 335. أنظر أيضا: نفح الطيب، ج: 1، ص: 435. أما ابن حزم فيقول: ((وولي الجزيرة بعد محمد بن القاسم المذكور ابنه القاسم بن محمد؛ ولم يتسم بالخلافة؛ إلى أن خرج عنها سنة 446هـ)). الجمهرة، ص: 50. ويؤيد ابن الأثير هذا الأمر بقوله: ((فولي الجزيرة ابنه القاسم؛ ولم يتسم بالخلافة)). الكامل ج: 7، ص : 289. ويقول

هــذا ولــم يقــم القاســم بــن محمــد بمــا يستحــق الذكــر والتنويــه في بــلاد الأندلــس؛ طــوال المــدة الــتي حكــم فيهــا الجزيــرة الخضــراء. وكــل مــا ذكــره عنــه المؤرخــون هــو تعــرض بــلاده لغــزو جيــش المعتضــد ابــن عبــاد؛ بقيــادة عبــد اللــه بــن ســلام في سنــة 446هــ(1054م). فتمكــن مــن التغلــب عــلى الجزيــرة الخضــراء؛ وأخــرج القاســم منهــا؛ حيــث أعــد لــه مركبــا لينقلــه حيــث يشــاء؛ فاختــار المريــة؛ في حمايــة المعتصــم بــن صمــادح؛ بعــد أن يئــس مــن قبولــه في سبتــة؛ حيــث يقيــم سقــوط البرغــواطي.[1]

المراكــشي أيضــا: ((فتــولى أمــر الجزيــرة بعــده ابنــه القاســم بــن محمــد ابــن القاســم؛ إلا أنــه لــم يتسـم بالخلافــة)). والمعجــب، ص: 68.

[1] قــال ابــن عــذاري: ((وفي سنــة ســت وأربعيــن وأربعمائــة نظــر المعتضــد عبــاد في حســن الجزيــرة الخضــراء وأميرهــا القاســم بــن محمــد العلــوي؛ فضيــق عليــه إلى أن نــزل عــن بلــده بأمــان عــلى نفســه وخــرج؛ فكــان الــذي حصرهــا لــه قائــده عبــد اللــه بــن ســلام؛ فأعــد عبــد اللــه للقاســم مركبــا يسيــر فيــه حيــث شــاء. وكــان أميــر سبتــة يومئــذ سواجــات [سقــوط] البرغــواطي؛ وكــان القاســم هــذا استنصــره فلــم ينصــره؛ فنكــب عــن سبتــة إلى المريــة؛ وبــقي بهــا إلى أن تــوفي. واحتــوى قائــد بــن عبــاد عــلى الخضــراء؛ ثــم خــرج منهــا بالعسكــر؛ تهفــو بهــم ريــح النصــر؛ وقــد قــدروا ألا غالــب لهــم؛ فلقــوا جماعــة مــن بــني برنيــان؛ فوقعــت بينهــم حــرب انهــزم لهــا خيــل ابــن عبــاد؛ وقتــل قائدهــم عبد اللــه ابــن ســلام؛ وانصــرف الجيــش لابــن عبــاد مهزومــا)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 242 ــــ 243.

وتقـول بعـض الروايـات أن القاسـم بـن محمـد تـوفي بالمريـة سنـة 450هـ(1058م).[1] ويقـول ابـن حـزم أنـه كـان حصـورا لا يقـرب النسـاء؛ وعليـه فلـم يخلـف أولادا.[2]

****

ـ حكومـة المتأيـد باللـه إدريـس بن علي بن حمـود:

ولمـا قتـل المعتـلي يحـيى بـن عـلي بـن حمـود؛ عـاد كبيـر دولتـه أبـو جعفـر أحمـد بـن مـوسى المعـروف بابـن بقنـة[3] رفقـة أبي الفـوز نجـا الخـادم ــ ذلـك الفـتى الصقلـبي[4] المقـرب مـن المعتـلي يحـيى بـن عـلي ــ إلى مالقـة؛ أيـن استدعيـا بسرعـة إدريـس بـن عـلي أخـا يحـيى مـن سبتـة؛ حيـث عقـدا لـه البيعـة؛ بشـرط أن يسنـد ولايـة سبتـة وطنجـة للحسـن بـن يحـيى بـن عـلي؛ فقبـل إدريـس بذلـك؛ وانتقـل الحسـن ابـن يحـيى ــ رفقـة الفـتى الصقلـبي نجـا ــ إلى ولايـة سبتـة. وفي البيعـة تلقـب إدريـس بـن عـلي بالمتأيـد باللـه واعتـلى سـدة الخلافـة؛ مثلمـا كـان عليـه أخيـه

---

[1] البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ــ 243. الأعـلام للزركـلي، ج: 6، ص: 16. أمـا ابـن بسـام فلـم يذكـر المريـة؛ ولكنـه قـال أنـه لجـأ إلى قرطبـة؛ حيـث مـات بهـا في التاريـخ نفسـه. الذخيـرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ــ 37.

[2] الجمهـرة، ص: 51.

[3] ورد في بعـض المصـادر ابـن بقيـة والصحيـح هـو ابـن بقنـة.

[4] في العبـر؛ الصقـلي؛ مج: 4، ص: 333.

يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين ؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا ـ جميعا ـ على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه

[1] قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد ابن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طرياتة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس ابن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 ـ 191.

إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ــ كما سبق ذكره ــ أمام قرمونة.

ولما تولى إدريس بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ ــ في بداية الأمر ــ من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم ــ بعد فترة ــ من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر.

ولم يعش إدريس – بعد هذه الموقعة – سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ (1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛ اسمه علي؛ ترك من الأولاد – هو الآخر – ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[2].

– حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة – بعد موت المتأيد بالله إدريس ابن علي – تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن ابن يحيى بن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى ابن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة.

---

[1] قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي (؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.

[2] المعجب، ص: 62.

ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[1] سدة الخلافة بمالقة؛[2] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[3] سنة 431هـ (1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس (حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[4] وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة

---

[1] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ــ وهي كثيرة ــ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[2] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[3] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[4] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن بن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما

عمه إدريس، وأخت يحيى بن إدريس (حيون) المقتول؛ فعملت جهدها للانتقام منه، والثأر لأخيها؛ وعليه يقال أنها اغتالته بسم دسته له. وذلك في جمادى الأولى من سنة 434هـ(1042م).[1] ويقال أن الحسن بن يحيى خلف ولدا وتركه في كفالة نجا الخادم بسبتة؛ فقتله طمعا في اغتصاب الملك.

بخصوص أبي جعفر بن موسى (ابن بقنة) فابن عذاري يرى بأن بقنة قتل بمالقة؛ بعد مقتل الفتى نجا فقول: ((ثم نهض قوم منهم [أي من الثوار الذين قتلوا نجا] إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر بن موسى فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه؛ وبايعوه؛ وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر، وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. إذن يفهم من هذا النص أن ابن بقنة هو الذي كان مع الحسن بن يحيى؛ وليس السطيفي كما ذكر المراكشي، أو الشطيفي كما سماه ابن الأثير. والغريب أن ابن عذاري يخلط في الأمر في موضع آخر؛ حين ذكر أن أبا جعفر بن موسى هذا استوزره الحسن بن يحيى، ثم قتله سنة 433هـ بعد أن امتحنه واستصفى أمواله. أنظر البيان المغرب، ج: ص: 290. كما أنه؛ في الوقت الذي أغفل ذكر السطيفي من قبل؛ ذكره في موضع آخر على انه قتل في اليوم الذي بويع فيه العالي إدريس ابن يحيى؛ وذلك في خبر يتوافق مع ما ذكره عبد الواحد المراكشي؛ ويتعارض مع ما سبق أن قاله ابن عذاري نفسه. لذا يتدعم الرأي القائل بأن هذا النص أو (القطعة) ليس من سياق كتاب ابن عذاري؛ ولم يكن أصلا منه. أنظر البيان المغرب، ج: 3، المقدمة، ثم: ص: 291.

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 63 ــ 64.

ـ حكومـــة العالي إدريـــس بن يحيى بن علي بن حمـــود:

كـــان نجـــا الصقلـــبي قـــد تـــرك في مالقـــة ـ عندمـــا رجـــع إلى مقـــر ولايتـــه بسبتـــة ـ رجـــلا مـــن التجـــار يثـــق فيـــه اشتهـــر باسم محمـــد السطيـــفي؛ وأوصـــاه بالسهـــر عـــلى سيـــر الإمـــارة، وعـــلى سلامـــة سيـــده الحســـن بـــن يحـــيى. ولمـــا قتـــل الحســـن مسمومـــا بيـــد زوجتـــه؛ ســـارع السطيـــفي إلى اعتقـــال أخيـــه إدريـــس بـــن يحـــيى؛ خوفـــا مـــن خـــروج الأمـــر مـــن يـــده ويـــد نجـــا الصقلـــبي الـــوصي عـــلى العـــرش؛ ثـــم بعـــث بالخبـــر إلى ذلـــك الفـــتى الصقلـــبي نجـــا؛ فســـارع مـــن فـــوره إلى التوجـــه في قـــوة إلى مالقـــة؛ ولمـــا دخلهـــا زاد في التضييـــق عـــلى إدريـــس بـــن يحـــيى، إذ قـــام هـــو الآخـــر بالتحفـــظ عليـــه؛ وأبقـــاه في سجنـــه أيضـــا؛ خوفـــا مـــن تطلعـــه للخلافـــة؛ لأنـــه ـ كمـــا قيـــل ـ كـــان يرغـــب في القضـــاء عـــلى ملـــك بـــني حمـــود نهائيـــا.

ويبدو – كما تقول المصادر – أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي – في هذه المرة – الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2]

---

[1] ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: 64. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: 1، ص: 216.

[2] جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217.

فاستاء الأمازيغ من فكرته؛ ولكنهم تظاهروا بأنهم يؤيدونه؛ بينما كانوا يتصيدون الفرصة المواتية للانقضاض عليه. وبالفعل تمكنوا من القضاء عليه؛ أثناء عودته من الجزيرة الخضراء إلى مالقة. ثم قضوا على صنيعته السطيفي بعده.[1] وتم ذلك كله سنة 434هـ(1042م). وبعد ذلك أخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه، ونصبوه على سدة الخلافة، ولقبوه بالعالي؛ في السنة نفسها أي 434هـ(1042م).

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. أما المراكشي فقال في خبر شرح فيه مقتل الخادم الصقلبي نجا: ((وعزم [أي نجا] على محو أمر الحسنيين جملة؛ وأن يضبط تلك البلاد لنفسه؛ فدعا البربر الذين كانوا جند البلد؛ وكشف الأمر إليهم علانية، ووعدهم بالإحسان؛ فلم يجدوا لمساعدته بدا؛ فوافقوه في الظاهر؛ وعظم ذلك في أنفسهم باطنا. ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما، ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم؛ وأحس البربر بهذا منه؛ فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة؛ فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه؛ وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به؛ وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة؛ فدخلا وهما يقولان: "البشرى البشرى!" فلما وصلا إلى السطيفي؛ وضعا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: 64 ـ 65.

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس ابن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت – بعد فترة – تظهر على إدريس بن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشي. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة – بدخوله إلى مالقة – تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (العالي)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1]

---

[1] أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن ببشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم

ومع ذلك تمكن العالي – بعد فترة – من الخلاص من محبسه؛ بمعونة بني زيري، وبعض أمراء الأمازيغ؛ الذين لم ترضهم سياسة محمد المهدى؛ المتصف بالتشدد والحزم. وقد تم ذلك عندما استمالوا المكلفين بحراسة العالي في قمارش؛ حيث أقنعوهم بالدعاء للعالي، وإعادته لمنصبه الخلافي؛ انطلاقا من ذلك الحصن؛ وبالفعل قام حراس العالي برفعه إلى سدة الخلافة في تلك الجهات.[1] ولم يكفهم إطلاق سراح إدريس بل عملوا كل جهدهم كي يتغلبوا على مالقة ويعيدوه إلى منصبه فيها. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع.[2]

يقدر على شيء؛ فرجع إلى حصن ببشتر، وأخرج عياله وجاز إلى سبتة)). ثم أضاف رواية نقلا عن ابن حيان فقال: ((وفي شعبان من سنة ثمان وثلاثين [وأربعمائة] خرج إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من مالقة؛ متنزها للصيد فغلق الباب في وجهه أهل البلد؛ ووجهوا إلى ابن عمه محمد ابن إدريس، وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمهدي، وتوطد أمره بمالقة مدة حياته؛ وانصرف إدريس بن [يحيى] بن علي العالي إلى العدوة، ثم رجع بعد ذلك إلى الأندلس، واستقر عند أبي نور بن أبي قرة اليفرني، صاحب رندة شهورا ودعا له بالخلافة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. أما ابن الخطيب فيقول أن محمد بن إدريس انتهز فرصة خروج العالي إدريس بن يحيى إلى حصن ببشتر؛ فأقفل في وجهه أبواب مالقة. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 141. المهم أن الآراء حول دولة الأدارسة في مالقة متضاربة وتختلف من مصدر إلى آخر.

[1] الكامل، ج: 7، ص، 289. والمعجب، ص: 67.

[2] قال المراكشي: ((وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة؛ هابه بها جميع البربر، وأشفقوا منه؛ وراسلوا المرتب في الحصن الذي فيه

ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها، وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ ـ بعدئذ ـ صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه ـ هو الآخر بعد فترة ـ وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثباته؛ فَتَّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)). المعجب، ص ص: 66 ـ 67.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان يبديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه ــ بعد أن تفرق الأنصار من حوله ــ سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو (سكوت) البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه ــ أيضا ــ مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ ونايا بها؛ ولكنهما ــ بالمقابل ــ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل.

وفي الأندلس اختار إدريس الإقامة في تاكرنة عند بني يفرن ـ دون أن يتنازل عن لقب الخلافة ـ وبقي يرقب الحال إلى أن توفي خصمه محمد المهدي؛ عندها طلب عامة الناس في مالقة عودته إليها؛ فدخل من جديد إلى حاضرة ملكه السابق؛ سنة 445هـ(1053م). وبقي في مالقة إلى أن توفاه الله[1] سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م).

وبذلك يكون العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود قد حكم خلال فترتين متقطعتين: الفترة الأولى بين عامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أما الفترة الثانية فبين عامي: 445هـ(1053م) و446 أو 447هـ(1055م). وذلك شأنه شأن أبيه يحيى، وعم أبيه القاسم بن حمود من قبل.

وكان العالي إدريس بن يحيى هذا حسن الثقافة، أديبا وشاعرا؛ كريم الخصال، مهذب الطباع، لطيف المعشر، حسن المجلس، عطوفا، شفوقا، حليما؛ ولكنه ـ مع ذلك ـ كان غريب الأطوار، متناقض المواقف والأفعال. فمما شاع عنه أنه يكثر من أعمال الخير والإحسان؛ حتى قيل أنه واظب على التصدق في كل يوم جمعة بحصة

---

[1] **الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن عذاري فيخالف هذا الرأي؛ إذ يرى أن إدريس مات بعد خلعه بفترة قصيرة. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 291.**

من المال تقدر بخمسمائة دينار.[1] كما يقال أنه رد للذين كانوا مغضوبا عليهم اعتبارهم وحقوقهم، وأرجع – أيضا – المطرودين إلى أوطانهم، وأعاد لهم ما أخذ منهم من أملاك وضياع.

وبالمقابل كان يظهر في صورة أخرى مناقضة للصورة الأولى؛ وذلك أنه كان ينادم ويصاحب الأرذال من العباد؛ ويقال أنه لم يكن يحجب حرمه عنهم.[2] ومن غرائب ما عرف عنه أنه لم يكن يبخل حتى بحصونه ورموز دولته؛ إذا ما سأله جيرانه الأقوياء التكرم عليهم بها.[3] وقيل أنه لما انقلب عليه ابن عمه محمد بن إدريس؛ عرض عليه مؤيدوه وأنصاره – من العامة – أن يسمح لهم بالمقاومة والدفاع عنه؛ فرفض؛ وطلب منهم أن يتركوه وشأنه.[4] فلم يجدوا بدا من تركه لقمة في

---

[1] الكامل: ج: 7، ص: 289.

[2] الكامل، 7، ص: 289. والمعجب، ص: 66.

[3] قال المراكشي: ((وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده؛ ممن يجاوره من صنهاجة، أو بني يفرن أعطاه إياه. وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده: موسى بن عفان السبتي؛ فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه؛ وأنه لابد من تسليمه إليه؛ قال له موسى بن عفان: "افعل ما تؤمر؛ وستجدني إن شاء الله من الصابرين!" فبعث به إلى الصنهاجي فقتله)). المعجب، ص: 66.

[4] يقول المراكشي: ((واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى، واستأذنوه في حرب القصبة، والدفاع عنه؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فوارق ناقة [وهذه العبارة تأتي كناية عن السرعة والحسم]؛ فأبى؛ فقال لهم: "ألزموا منازلكم ودعوني؛ فتفرقوا عنه)). المعجب، ص: 66.

يد ابن عمه؛ الذي سجنه كما تمت الإشارة إليه. وحتى عندما انتقل إلى سبتة، وقام عبداه: سقوط أو (سكات)، ورزق الله البرغواطيان بالحجر عليه، وحجبه عن رؤساء وأعيان البلدة؛ وقف موقفا غريبا؛ وذلك حينما تمكن بعضهم من الاتصال به؛ فطلبوا منه أن يأذن لهم بفك الحصار عنه؛ فأبى ثم أعلم العبديين بما قالوه له؛ مما أدى بالعبديين إلى نفي أولئك الأعيان من سبتة؛ بل نفياه هو بدوره إلى الأندلس؛ بعد أن احتفظا بولده رهينة لديهما. فاستقر به الحال في تاكرنة عند بني يفرن؛ إلى أن وصله نبأ وفاة خصمه محمد بن إدريس (المهدي)؛ وطلب أهل مالقة منه العودة إلى مركز ملكه؛ فعاد؛ وبقي بها حتى وفاته.

ويعتبر العالي إدريس بن يحيى أبرز بني حمود ذكرا وشهرة عند أدباء وعلماء الأندلس؛ إذ لازم بلاطه عدد كبير منهم؛ كما زاره عدد آخر من الشعراء والعلماء؛ فكان يكرمهم ويجالسهم ويحاورهم ويشاركهم في قرض الشعر ونقده. ومن أولئك الأدباء والعلماء الأديب الشاعر الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي؛ وهو الذي قال في العالي:

رِيــحُ الصَّبَــا بَلِــغِي أنْفــاسَ ذِي ظَمــإٍ
وَبَرِّدِيهَــا بِمَا يَقضِيــهِ مَجْـــرَاكِ
أوْ يَمِّمِي حَضْــرَةَ العَــالِي بِمَا احْتَمَلَــتْ
مِنِّي الضُّلُــوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

****

ــ الانقســام الثالــث في أســرة بــني حمــود:

كــان الانقســام الأول ــ كمــا ذكرنــاه ــ في عهـد القاســم ابــن حمــود ســنــة 412هــ (1021م). أمــا الانقســام الثــاني فحــدث بعــد وفــاة إدريــس بــن يحــيى بــن حمــود ســنــة 431هــ (1039م). ثــم جــاء الانقســام الثالــث في عهــد العــالي إدريــس بــن يحــيى بــن عــلي ســنــة 438هــ (1046م)؛ وذلــك بعدمــا خــرج عليــه ابــن عمــه محمــد بــن إدريــس بــن عــلي؛ حيــن تغلــب عــلى مالقــة وحبــس العــالي في حصــن قمــارش ــ كمــا سبــق ذكــره ــ ثــم تســمى بالخلافــة، وتلقــب بالمهــدي. وبعــد ذلــك انحــاز حــراس إدريــس إليــه، وأعــادوا إليــه الاعتبــار، ونــادوا بــه خليفــة؛ حيــث استقــر لبعــض الوقــت في حصــن قمــارش أو ببشتــر؛ وتمســك بالدعــاء لــه أمــراء الأمــازيــغ ــ أيضــا ــ وزحفــوا نحــو مالقــة؛ بغــرض التغلــب عليهــا وإعــادة العــالي إلى منصبــه؛

ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ـ هو الآخر ـ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشْتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ـ أيضا ـ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ـ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ـ وهو الملقب بحيون ـ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى (المعتلي)؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ـ

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.

كما سبقت الإشارة إليه ـ وبقي أخواه الصغيران: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي. ولما تولى العالي إدريس بن يحيى الحكم بادر ـ فورا ـ إلى حبسهما. ولكنهما تمكنا من الإفلات، والقيام بعصيان ضد إدريس؛ متصيدين ـ كما قيل في بعض المصادر ـ لحظة خروجه من مالقة للقنص؛ فأغلقا ـ مع أنصارهما ـ أبواب المدينة؛ ومنعاه من العودة إلى ملكه. وقد سهل عليهما الأمر ما كان يشوب أجواء البلاط؛ من استياء ونفور؛ لما كان يبديه العالي من سلوك غير مقبول لدى معاونيه.

وبالطبع فقد استثمرا تلك الفرصة التي أضحى فيها أعيان الدولة غاضبين من التصرفات الشاذة للخليفة إدريس بن يحيى؛ نظرا لما كان يظهره من تناقض وتقلب في الأحوال. وبذلك وجد الأخوان منفذا هاما؛ للاستيلاء على الحكم. وبالفعل تمكنا من ذلك؛ بمساعدة بعض الحراس، وبمساندة الحامية السودانية بقصبة مالقة. وتم تغلبهما على سدة الخلافة سنة 438هـ (1046م)؛ حيث تربع على عرش مالقة محمد بن إدريس؛ الذي تلقب بالمهدي؛ ورفع الدعاء له بالخلافة. وبادر محمد المهدي بإسناد ولاية العهد لأخيه حسن؛ الذي تسمى بالسامي. غير أنه غضب عليه فيما بعد، فنفاه إلى جبال غمارة بالعدوة المغربية؛ فبايعه من كان هناك من قبائل غمارة؛ أين يتواجد أنصار الأدارسة التقليديين.

أمـا محمـد المهـدي فبـقي صامـدا في مالقـة؛ ضـد خصومـه مـن أمـراء الأمازيـغ إلى يـوم وفاتـه مسموما ــ كمـا قيـل ــ في سنـة 444هــ (1052م) أو 445هــ (1053م).[1] فسـارع ــ عندئـذ ــ العـالي إدريـس بـن يحـيى إلى العـودة إلى مالقـة؛ والتربـع مـن جديـد عـلى عـرش الخلافـة بهـا؛[2] وذلـك لأنـه كـان يتربـص الفرصـة المواتيـة؛ مـن تاكرنـة حيـث كـان مستقـرا. وهكـذا عـاد العـرش لإدريـس مـن جديـد؛ حيـث بـقي إلى يـوم وفاتـه سنـة 446هــ(1054م) أو 447هــ(1055م)؛ كمـا سبـق ذكـره.

---

[1] اتفـق ابـن عـذاري وابـن الخطيـب عـلى قصـة زعمـا أنهـا قصـة مـوت محمـد المهـدي؛ وجـاء فيهـا: ((وكـان محمـد بـن إدريـس هـذا سفاكـا للدمـاء؛ فامتـدت يـده إلى قتـل البرابـر؛ ولمـا رأى الحجـاب ذلـك؛ وهـم أمـراء القبائـل؛ عملـوا الحيلـة في قتلـه؛ فوجـه لـه باديـس بـن حبـوس بكـأس عـراقي مسمـوم؛ مـع رجـل مـن الكتاميـين. فلمـا وصـل إليـه قـال لـه: "هـذه كـأس جلبـت للحاجـب المظفـر باديـس؛ فلـم يرهـا تصلـح إلا للخلافـة؛ فاختصـك بهـا". فأعجـب بهـا محمـد ابـن إدريـس، وملأهـا خمـرا، وضمهـا إلى فمـه؛ فأحـس في نفسـه ريبـة منهـا؛ فأمـر الكتـامي فشربهـا؛ فتهـرأ جلـده عـن لحمـه مـن حينـه. وبـقي هـو ثلاثـة أيـام، ومـات مـن رائحتهـا في أواخـر سنـة 444هــ)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 218. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 141 ــ 142.

[2] قـال البكـري وابـن الخطيـب: أن الـذي تـولى الحكـم ــ مباشـرة ــ بعـد مـوت محمـد المهـدي ابـن أخيـه إدريـس بـن يحـيى بـن إدريـس بـن عـلي؛ حيـث تسـمى بالموفـق؛ ولـم ينسـب إلى نفسـه رتبـة الخلافـة؛ ولكنـه لـم يبـق في الملـك أكثـر مـن أشهـر يسيـرة؛ إذ زحـف إليـه العـالي إدريس بـن يحـيى. أنظـر المغـرب، ص: 134.

ـ حكومة المستعلي محمد بن إدريس المتأيد:[1]

تولى الحكم بمالقة في السنة التي توفي فيها العالي إدريس بن يحيى. وتسمى ـ في أوثق الأقوال ـ بالمستعلي. هذا ولم تهتم المصادر التاريخية كثيرا بالمستعلي هذا؛ خاصة وأن حكمه لم يتجاوز السنتين. أي من سنة 446 أو 447هـ (1055م) إلى سنة 449هـ(1057م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها باديس بن حبوس بن زيري على مالقة؛ معلنا بذلك ختام الدولة الإدريسية في الأندلس نهائيا.[2] وكان أمراء الأمازيغ بتلك الديار قد حولوا دعوتهم ـ في البداية ـ إلى محمد بن القاسم سنة 439هـ(1047م)، ولما مات سنة 440هـ(1048م) نقلوها لابنه القاسم لفترة قصيرة؛ ولكنهم تخلوا ـ بعد ذلك ـ عن تلك الفكرة؛ ورأوا وجوب الاستقلال بأنفسهم؛ دون حاجة إلى سند شرعي في الحكم. خاصة بعد سقوط دولة بني القاسم بالجزيرة الخضراء في يد المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).[3]

---

[1] هذا رأي ابن عذاري وابن خلدون. البيان المغرب، ج: 3، ص:218. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما رأي البكري وابن الخطيب فيختلف؛ إذ يرون أنه ابن العالي إدريس بن يحيى؛ وليس ابن إدريس المتأيد. أنظر: المغرب، ص: 134. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 142. كما انهم اختلفوا أيضا في اللقب فمنهم من يعتقد أن لقبه هو المستعلي؛ ومنهم من يرى أن لقبه هو السامي.

[2] يرى البكري أن باديس دخل مالقة، وأسقط دولة المستعلي في سنة 447هـ. المغرب، ص: 134.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 242.

وهذا ما جعل باديس بن حبوس يزحف إلى مالقة؛ بغرض امتلاكها. ولما أسقط أمير بني زيري باديس بن حبوس دولة بني حمود؛ لم يجد المستعلي مفرا من اللجوء – في البداية – إلى المرية. ومن هناك وصلته دعوة من أهل مليلة؛ فأجاز إليهم قاطعا البحر؛ نحو العدوة المغربية. وفي تلك المدينة الوفية لبني إدريس وجد الملجأ الآمن؛ حيث بايعته قبائل تلك النواحي سنة 456هـ(1063م)؛[1] وظل هناك حتى وفاته في أواخر سنة 460هـ(1067م).[2] ويعتبر المستعلي محمد بن إدريس هذا هو آخر ملوك بني حمود الأدارسة في الأندلس. وذلك بعد أن تمت تصفية ملك بني عمهم؛ أبناء القاسم بن حمود ملوك الجزيرة الخضراء؛ من قبل المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).

****

[1] يقول البكري الذي كان معاصرا لتلك الفترة أن المستعلي ذهب إلى مليلة في سنة 459هـ؛ فمما قال:((وتسمى بالمستعلي، ولم يخطب له بالخلافة؛ فأقام بمالقة إلى أن تغلب عليها باديس بن حبوس بن ماكسن في صدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة؛ فانقطعت دولة بني علي بن حمود من يومئذ؛ ثم استدعي محمد بن إدريس هذا من مدينة مليلة؛ وهو مستقر بالمرية؛ لا يعرف مكانه؛ لخمول ذكره؛ فعبر إليها؛ وذلك في شهر شوال سنة تسع وخمسين وأربعمائة؛ فقام به جماعة بني ورتدي بميلة وبقلوع جارة ونواحيها. وهو هنالك باقي إلى وقتنا هذا؛ وهو آخر سنة ستين وأربعمائة)). المغرب، ص: 134.

[2] العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ــ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبــدو أن الإنجــازات الحضاريــة والثقافيــة لدولــة بــني حمــود لــم تصــل إلى المســتوى المطلــوب؛ بالنسبــة لدولــة تواجــدت في ربــوع الأندلــس؛ إذ كــان رصيــد هــذه الدولــة الحضــاري ــ بفرعيهــا ــ متواضعــا؛ إذا مــا قيســت بالدولــة الأمويــة، أو بدولــة بــني عبــاد بإشبيليــة. فدولــة بــني حمــود ــ ســواء بقرطبــة أو بمالقــة أو بالجزيــرة الخضــراء ــ كــان يهيمــن عليهــا الطابــع القبــلي؛ ذي التوجــه العسكــري. هــذا مــن جهــة، ومــن جهــة أخــرى فــإن عمرهــا كــان قصيــرا ــ بعــض الــشيء ــ بالمقارنــة مــع دولــة بــني أميــة؛ الأمــر الــذي لــم يساعــد عــلى ظهــور المبتكــرات الحضاريــة والثقافيــة بالقــدر الكــافي. كمــا أن حياتهــا كانــت مليئــة بالفتــن والحــروب والمؤامــرات؛ وهــذا ــ بالطبــع ــ لا يساعــد عــلى بــروز عبقريــات في الميادـيــن العلميــة والفكريــة. ويعتبــر ذلــك مــن بيــن الموانــع المؤثــرة في سبيــل إنجــاز أي مشــروع حضــاري. هــذا وكــان ــ طبعــا ــ للعامــل الاقتصــادي أثــره في انكمــاش الإنجــازات الحضاريــة والثقافيــة بهــذه الدولــة الضعيفــة؛ الــتي لــم تكــن مواردهــا الاقتصاديــة كافيــة لتحقيــق مــا حققتــه الدولــة الأمويــة.

ومع ذلك فقد ورثت دولة بني حمود شيئا من التراث الذي خلفته الدولة الأموية؛ ممثلا ببعض المنشآت العمرانية، والمبتكرات العلمية، وما تعودت عليه الرعية من تذوق للإبداعات الفنية والأدبية. هذا وقد ورث بلاط الحموديين أيضا ـ بشقيه ـ بعض المؤسسات الثقافية كما ضم إليه بعض الأدباء والكتاب الفطاحل، والشعراء الفحول؛ كما استقبل أدباء وشعراء وفدوا إليه من جهات أخرى؛ دون نية في الإقامة. وقد ازدانت هذه الدولة وحظيت أيضا بوجود بعض العلماء والفقهاء في ربوعها؛ حيث اختصوا بشئون الكتابة والقضاء والفتيا والتدريس. ولمزيد من الفائدة والتوضيح نشير إلى أولئك العلماء والأدباء والكتاب والشعراء؛ وهم:

ــ **أبــو عمــر أحمــد بــن درّاج القسطــلي:**[1] وينتســب إلى أســرة بــني درّاج الصنهاجييــن. وكــان القسطــلي ــ أيــام المنصــور بــن أبي عامــر ــ كاتبــا للإنشــاء مــع ابــن الجزيــري.[2] ويبــدو أن أنــه مــرّ مــرور الكــرام ببــلاط

---

[1] قــال فيــه ابــن بســام: ((حــل اسمــه مــن الأمــاني محــل الأنــس، وســار نظمــه ونثــره في الأقــاصي والأداني مسيــر الشمــس؛ وأحــد مــن تضاءلــت الآفــاق عــن جلالــة قــدْره؛ وكــان الشــام والعــراق أدنى خــطى ذكــره. وقــد أجــرى الثعالــبي طرفــا مــن أمــره بــ(اليتيمــة): "بلغــني أن أبــا عمــر القسطــلي كــان عندهــم بصقــع الأندلــس كالمتنــبي بصقــع الشــام؛ وهــو أحــد شعرائهــم الفحــول هنالــك. وكــان يجيــد مــا ينظــم")). نفســه، ص: 60.

[2] ذكــره الحميــدي فقــال: ((كــان كاتبــا مــن كتــاب الإنشــاء في أيــام المنصــور أبي عامــر؛ وهــو معــدود في جملــة العلمــاء والمقدَّميــن مــن الشعــراء، والمذكوريــن مــن البلغــاء؛ وشعــره كثيــر مجمــوعٌ؛ يــدل عــلى علمــه؛ ولــه طريقــة في البلاغــة والرسائــل؛ تــدل عــلى اتساعــه وقوتــه؛ وأول مــن مــدح مــن الملــوك المنصــور أبــو عامــر محمــد بــن أبي عامــر مدبــر دولــة هشــام المؤيــد... فعــن أبي محمــد عــلي ابــن أحمــد بــن سعيــد الفقيــه؛ وأخبــرني أن المنصــور أبــا عامــر لمــا فتــح شنــب ياقــب أو غيرهــا مــن القــلاع الحصينــة الــتي يقــال إن أحــدا لــم يصــل إليهــا قبلــه؛ اسْتُــدْعِيَ أبــو عمــر أحمــد بــن محمــد بــن درّاج، وأبــو مــروان عبــد الملــك بــن إدريــس المعــروف بابــن الجزيــري؛ وأمــرا بإنشــاء كتــب الفتــح إلى الحضــرة، وإلى سائــر الأعمــال. فأمــا ابــن الجزيــري: "سمعــا وطاعــة". وأمــا ابــن درّاج فقــال: "لا يتــم لي ذلــك في أقــل مــن يوميــن أو ثلاثــة". وكــان معروفــا بالتنقيــح والتجويــد والتــؤدة. فخــرج الأمــر إلى ابــن الجزيــري بالشــروع في ذلــك؛ فجلــس في ظــل الســرادق ولــم يبــرح حــتى أكمــل الكتــب في ذلــك. وقيــل لابــن درّاج افعــل ذلــك عــلى اختيــارك؛ فقــد فســح لــك فيــه. ثــم جــاء بعــد ذلــك بنسخــة الفتــح؛ وقــد وصــف الغــزاة مــن أولهــا إلى آخرهــا، ومشاهــد القتــال، وكيفيــة الحــال؛ بأحســن وصــف، وأبــدع وصــف؛ فاستحسنــت ووقــع الإعجــاب بهــا؛ ولــم تــزل منقولــة متداولــة إلى الآن. ومــا بــقي مــن نســخ ابــن الجزيــري ــ في ذلــك الفتــح عــلى كثرتهــا ــ عيــن ولا أثــر... وسمعــت أبــا محمــد عــلي بــن أحمــد [بــن سعيــد

بني حمود؛ إذ لم تطل إقامته فيه كثيرا. ومع هذا فقد منح ملوك هذه الدولة أروع ما خطته أقلام الكتاب من نثر، وأجمل ما قيل فيهم من قصائد شعرية. ومن قوله المنثور هذه القطعة التي خص بها الخليفة علي بن حمود؛ جاء فيها: **((حسْبُك اللهُ يا ابنَ رسول الله، وعلى هُدًى من الله، فيما خَفقتْ إليه راياتك، وصَدَقتْ به آياتُك، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعته نَصْرَك، كما شرحَ بتوفيقه صَدْرَك، ويُتَمِّم بتأييدِه أمرَك، بما أوْلَيتَ أولياءَه المؤمنين، وأبْلَيْتَ في عبادِه الصالحين، المصابينَ في الأموال والأهلين، أيَّامَ تزاحمَتْ إليهم أسبابُ القضاء بالبَأساءِ والضَّرَّاء، وأبْرَقتْ عليهم آفاقُ السماء بسيوف الأعداء، تَسِحُّ بوابل الدِّماء وتموجُ بأسراب السّباء، فَسُرْعانَ ما هاموا فلا وَزَر، وربعوا فلا مُسْتقرّ، ونادوا ولاتَ حين مَنَاص ولا فوْت، إلاَّ مَنْ أعْفَاهُ الموت؛ فأصبحوا أنْفَاضَ الجَلاء، وأغراضَ الفناء، قد جَهدُوا بالبلاء، وعَيُوا بالدَّاء العَيَاء، فلئنْ زُلْزِلَتْ بهم الأرض، لقد سكنَ بهم عِزُّ سلطانِك، ولئنْ تَهافتَ بهم الذعْر، لقد**

الفقيه]؛ وكان عالما بنقد الشعر يقول: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد". وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج؛ لما تأخر عن شأو (حبيب) و(المتنبي)". مات أبو عمر أحمد بن درّاج قريبا من من العشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 110 ــ 114.

اطمأنوا في مِهَادِ أمانك)).[1] وقد مدح هذا الشاعر الذائع الصيت؛ الخليفة علي بن حمود بقصيدة شهيرة؛ نوه فيها بانتسابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشاد ببني هاشم، ومجد نسبهم القديم؛ وجاء فيها:[2]

لَعَلك ياشَمْسُ عِندَ الأصيلِ
شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَريبِ الذَّليلِ
فَكوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفيع
وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسولِ
فَإمَّا شَهِدْتِ فَأزْكَى شَهيدٍ
وإمَّا دَللتِ فَأهْدَى دَليلِ

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.

[2] قال فيها ابن بسام: ((وهذه القصيدة له طويلة؛ وهي من الهاشِمياتِ الغُرّ؛ بناها من المِسْك والدُّرّ؛ لا من الجصّ والآجُر؛ لا بل خَلَّدها حديثاً على الدَّهر، وسَرَّ بها مَطالعَ النُّجومِ الزُّهْر؛ لو قَرَعَتْ سَمْعَ دِعْبِلِ بنِ عليّ الخزاعيّ، والكُمَيْتِ بن زَيْدٍ الأسديّ، لأمْسَكا عن القول، وبرئا إليه في القُوّةِ والحَوْل؛ بل لَوْ رآها السيد الحميريّ، وكُثَيِّرٌ الخُزاعيّ، لأقاماها بَيِّنَة على الدَّعْوَى، ولتلقياها بِشارَة على زَعْمِهِما بخُروج الخيلِ من رَضْوَى؛ وقد أثبتُ أكثرها إعلاناً بجلالة قدرِها، واستحساناً لعَجُزِها وصدْرِها)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ــ 88.

عَلى سَابــقٍ في قيُــودِ الخُطــُوبِ
وَنَجْمِ سَنــاً فِــي غُثــاءِ السُّيُــولِ
يُنــادِي الثــرَى لِسَقــامِ الضَّيَــاعِ
وَيَشْكــو إِلَى المُلــْكِ دَاءَ الخمُــولِ
وَعَــزَّ عَلى العِلمِ مَثــوَاهُ أرْضــاً
عَلى حُكمِ دَهْــرٍ ظلــومٍ جَهُــولِ
وَيَعْجَــبُ كَيــفَ دَنــا مِنْ عَــلِيٍّ
وَلَــمْ تَنفَصِــمْ حَلقــات الكُبــولِ
وَكيْــــفَ تنسَّــــمَ آلَ النــبيِّ
وَأَبْطــأَ عَنــهُ شِفــاءُ العَلِيـــلِ
وَأطــوَادُ عِزِّهِــــمُ مَاثِـــلاَتٌ
لــهُ وَهْوَ يَرنــو بِطــَرفٍ كلِيــلِ
وَأبْحُرُهــمْ زَاخِـــرَاتٌ إليْـــهِ
وَيَرشُــفُ فِي الثمَــدِ المُستَحِيــلِ
تَجَــزَّأ مِــنْ جَنــتَيْ مَــــأرَبٍ
بِخَمــطٍ وَأثــلٍ وَسِــدْرٍ قلِيــلِ

ثــم يضيــف قائـــلا:

شَرِيــدُ السُّيُوفِ وَفَــلُّ الحُتُــوفِ
يَكِيــدُ بأفــلاَذِ قلــبٍ مَهُـــولِ

فأذهَــلَ مُرْضِعَـــة عَــنْ رَضِيـــعٍ
وَأنـــسَى الحَمَائــمَ ذِكــرَ الهَدِيــلِ

فَمَا تَهْتَــدِي العَيْــنُ فِيهَا سَبِيـــلاً
سِــوَى سُبُــلِ العَبَرَاتِ الهُمُــولِ

وَلاَ يَعْــرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقــاً
إلى النَّفــسِ إلاَّ بِعَضْــبٍ صَقِيــلِ

رَكِبْــتُ لَهَــا مَحْمَــلاً للنجَــاةِ
وَصَيَّــرْتُ قَصْــدَكَ فِيهِ عَدِيــلِي

فَــرُدَّتْ عَــلى عَقِبَيْهَــا المَنــونُ
بــوَاقٍ مُجيــرٍ وَرَأيٍ أصيــلِ

وَقَــد سُمْتَهَــا بِنَفِيــسِ التــــلاَدِ
عَلى أنفــسٍ ضَائِعَـــاتِ الذُّحُــولِ

نُفُوسُ حَنَتْ قــوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَــا
فكــنَّ سِهَـــامَ قِــسِيِّ الخمُـــولِ

إلى أن يقــول:

إلـــَى الهَاشِــمِيِّ إلـــَى الطالِــبيِّ
إلَى الفَاطِمِيِّ العَطُــوفِ الوَصُــولِ

فَسُـــمِّيَ جَـــدُّكَ عَمْـــرو الكِــرَامِ
بهَشْــمِ الثرِيـــدِ زَمَـــانَ المُحُـــولِ

وَضَيَّـــفَ حَتَّى وُحُـــوشَ الفــلاَةِ
وَأهْـــدَى القِرَى لِهِضَابِ الوُعُـــولِ

وَإنَّ أبَـــا طالِـــــبٍ لِلضُيُــــوفِ
لأطلـــبُ مِـــنْ ضَيفِـــهِ لِلنـــزُولِ

يَـــرُوحُ عَلَيْهِـــم بغـــرِّ الجِفـــانِ
وَيَغـــدُو لَهُمْ بِالغَرِيـــضِ النشِيـــلِ

فَأنْتـــمْ هُـــدَاةُ حَيَـــاةٍ وَمَـــــوْتٍ
وَأنتـــمْ أئمـــةُ فِعْـــــلٍ وَقِيـــــلِ

وَسَـــادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنـــاتِ عَـــدْنٍ
جَمِيـــعِ شَبَابِهـــــمُ وَالكهُـــــولِ

وَأنتـــمْ خَلاَئـــفُ دُنيَـــا وَدِيـــــنٍ
بِحُكـــمِ الكِتـــابِ وَحُكـــمِ العُقـــولِ

ووَالدُكــــمْ خَاتِـــــمُ الأنبيَـــــاءِ
لَكـــمْ مِنـــهُ مَجْـــدُ حَـــفِيٍّ كَفِيـــلِ

تلـــــذُّ بحَمْلكـــــمُ عَاتقـــــاهُ
عَلَى حمَلِــهِ كــلَّ عِــبْءٍ ثقِيــلِ
ورَحْــبٌ عَلَى ضمِّكــمْ صَــدْرُهُ
إذَا ضَــاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيــلِ
ويَطرُقــهُ الــوَحْيُ وَهْنــاً وَأنتــُمْ
ضَجيعَــاهُ بَيــنَ يَــدَيْ جِبْرَئِيــلِ
وزَوَّدَكــمْ كــلَّ هَــدْيٍ زَكِــيٍّ
وَأوْدَعَكــمْ كــلَّ رَأْيٍ أصيــــلِ

وممــا قالــه ابــن درّاج في وصــف المقاتليــن:
وَقــَدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنْهــمْ أسِنــة
تُخَيــلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نيــرَانُ
أسُــودُ هَيَــاجٍ مَا تــزَالُ ترَاهُــمُ
تطِيــرُ بِهِمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقْبَــانُ
وَأقمَــارُ حَرْبٍ طالِعَــاتٌ كأنمَــا
عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَــانُ
وَكــلُّ زَنَــاتِيٌّ كــأنَّ حُسَامَــهُ
وَهَامَــة مَنْ لاقــاهُ نارٌ وَقرْبَــانُ

وَأبْيَــضَ صِنِهَــاجٍ كــأنَّ سِنانَـــهُ
شِهَابٌ إذا أهْوَى لِقرْنٍ وَشَيْطَــانُ

وقــال أيضــا في وصــف لحظــة وداع لأسرتــه:
ولَما تدَانــتْ لِلــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفَــا
بِصَبْــرِيَ مِنهَــا أنــة وَزَفِيــرُ
تُناشِدُنِي عَهْــدَ المَــوَدَّةِ وَالهَــوَى
وَفِي المَهْدِ مَبْغُــومُ النداءِ صَغِيــرُ
عَــيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطابِ وَلَفْظِــهِ
بِمَوقــعِ أهْــوَاءِ النفــوسِ خَبيــرُ
تَبَــوَأ مَمْنوعَ القلــوبِ وَمُهــدَتْ
لــهُ أذْرُعٌ مَحْفوفــة وَنحُـــورُ
فَكــلُّ مُفــدَّاةِ الترَائِــبِ مُرْضِــعٌ
وَكــلُّ مُحَيَّــاةِ المَحَاسِــنِ ظِيــرُ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَــادَنِي
رَوَاحٌ بِتــدْآبِ السُّــرَى وَبُكــورُ
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَــا
جَوَانِحُ مِنْ ذُعْــرِ الفــرَاقِ تَطِيــرُ

لئِــنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيــوراً فإنــنِي
على عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَــا لغَيُــورُ
ولَــوْ شَهِدَتنِي وَالهَوَاجِرُ تَلتــظِي
عَلَيَّ ورَقــرَاقُ السَّــرَابِ يَمُــورُ
أسَلــطُ حَــرَّ الهَاجِرَاتِ إذا سَطــا
على حُرِّ وَجْهي وَالأصِيلُ هَجِيــرُ
وَأسْتَنشِقُ النَّكبَــاءَ وَهْيَ بَــوَارِحٌ
وَأسْتَوْطِئُ الرَّمْضَــاءَ وَهْيَ تفــورُ
وَلِلمَوْتِ فِي عَيْــنِ الجَبَانِ تَلَــوُّنٌ
وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيــرُ

وقــال في وصــف هــول البحــر:

إلَيكَ شَحَنَــا الفلــكَ تَهــوِي كأنهَــا
وَقَدْ ذَعرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَــجٍ خضْرٍ إذا هَبــتْ الصَّبَــا
تــرَامَى بنــا فِيهَــا ثبيــرُ وَثَهــلاَنُ
مَوَاثِــلٌ ترْعَى فِي ذرَاهَــا مَوَاثِــلاً
كمَا عُبــدَتْ فِي الجَاهِلِيَّــةِ أوْثَــانُ

فِي طَيِّ أسْمَــالِ الغرِيــبِ غرَائــبٌ
سَكنَّ شِغافَ القلــبِ شِيــبٌ وَولِــدَانُ
يُرَدِّدْنَ فِي الأحْشَــاءِ حَــرَّ مَصَائِــبٍ
تزيــدُ ظلاَمــاً ليلهَــا وَهْيَ نِيــرَانُ
إذَا غِيــضَ مَاءُ البَحْرِ مِنهَا مَدَدْنــهُ
بدَمــعِ عيُــونٍ تمْتريهــنَّ أشْجَــانُ
وَإنْ سَكنــتْ عَنا الرِّيَاحُ جَــرَى بنــا
زَفِيــرٌ إلَى ذِكــرِ الأحِبَّــةِ حَنــانُ
يَقلــنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَــمُّ وَالــدُّجَى
تَمــوجُ بنــا فِيهَــا عُيــونٌ وَآذَانُ
ألاَ هَــلْ إلَى الدُّنيَا مَعَــادٌ وَهلْ لنــا
سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أوْ سِوَى المَاءِ أكفانُ
وَهَبْنــا رَأيْنا مَعْلَــمَ الأرْضِ هَل لنــا
منَ الأرْضِ مَأوًى أوْ مِنَ الأنسِ عِرفانُ

ـ ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:[1]

فأما الكاتب أبو حفص بن أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ـ من قبل ـ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة: **((وما أنكَرنا شيئاً مما ذهبتَ إليه من التـَّأنِّي والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رَأيَك في نَظـَرِ الاجتماع، وتَرَقـُّب الالتئام؛ لتَرتفِعَ الشُبْهةُ ويَنْجَلِيَ الشَّكُّ؛ وإن كان مَذهَبُنَا فيَ هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنَا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرها وسخَاؤنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا نَنْوِي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفنا، وأيْقـَنَ من أنْصَفَنَا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيّ، ولَبَبٍ رَخِيّ، وعملٍ واسع، ومال**

---

[1] قال ابن بسام: ((وقلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح مشهور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

وافر، وجندٍ مُطيع، وحصن منيع؛ وفي دونِ ذلك ما أقنَعَ من عرفَ الدنيا بحقيقتها، وأجْزَأ من أنْزلَها مَنْزلتَها؛ وما كفَى من لا يعدِلُ بالسَّلامةِ ولا يَبيعُ بالغَبْن، ولا يركبُ الأهوال، ولا يقتحِمُ المهالك، مغرِّراً بدمه، مُخاطِراً بنفسِه، لحُطامٍ تافِهٍ، وظلٍ زائلٍ، ومتاعٍ قليلٍ؛ وإنا لنرجو منه تعالى أنه لم يُيَسِّر ما يَسَّرَ من آمالنا إلا عند اطّلاعِه على نيَّتِنا فيها؛ فنحن بعَيْنِ الله، ونواصينا بيدِه، والمُلكُ والأمْرُ له)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 ـ 118.

ومن شعر أبي حفص بن برد الأكبر هذه الأبيات التي خاطب بها أبا العلاء صاعد بن الحسن اللغوي:

أبَا العَلاءِ اسْتمِعْ تَعْرِيضَ ذِي مِقةٍ
أهْدَى لكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْرَ مَقْطُوبِ
ناءٍ بِغرْبَتِهِ والفَهمُ نِسْبَتُهُ
وكمْ دَنِيٍّ قَصِيٍّ فِي المَناسِيبِ
وَصَارَ فِي غُرْبَةِ الآدَابِ مُغْترِباً
أمَا كَفَى الدَّهْرُ عَضٌّ دُونَ تغْرِيبِ
أوْلاكَ مَحْمَدَةً مِنْ بَعْدِ تَجْرِبَةٍ
لا يَصْلُحُ الحَمْدُ إلا بَعْدَ تَجْرِيبِ
أنتَ الذِي لمْ يُعَاشِرْ مِثلهُ رَجُلاً
فِي العِلمِ وَالظرفِ والآدابِ والطيبِ
تَحْصِيلُ فَضْلِكَ لِلحُسَّادِ مَعْجَزَةٍ
وكُنْهُ عِلمِكَ شَيْءٌ غَيْرُ مَحْسُوبِ
أمَّا اللُّغاتُ فلاَ يَعْقُوبُ يَبْلُغُ مَا
وَعِيتَ مِنهَا وَلاَ أشْيَاخُ يَعْقُوبِ

إلى أن يقول:

ـ ثـم أبــو عامــر أحمــد بن عبــد الملــك بن شهيــد:[1]

وينتســب هــذا الأديــب الفــذ والشاعــر العمــلاق إلى قبيلــة

حَيَّـا تَحيَّــةَ ذِي أُنــسٍ بنا وَجــلاً
قِناعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ مَحْجُـوبِ
فَقلتُ: أهْلاً ورَحْبــاً، مَنْ هَدَاك لنــا
لَيــلاً؟ فــرَدَّ بتأهِيــلٍ وتَرْحِيــــبِ
قالَ: مَاذا ترَى؟ قلتُ: الغَزَالــةُ فِي
ثوْبِ احْمِرَارٍ مِنَ الظلمَاءِ غِرْبِيــبِ
وَقَالَ: اتئدْ! قُلتُ: قَدْ أبْصَرْتُها قِبَــلاً
فَقالَ: حِلاً، فَقلتُ: الحِــلُّ مَطْلــوبِي
قالَ: تَحَــرَّ فلاَ تشطط بِنَــا سَرَفــاً
فَقَلْتُ: لَيْسَ سِوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي
ثمَّ اعْلَــمِي أنني فِي حُبِّكُــمْ دَنِــفٌ
قَالَتْ: عَلِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لِمَحْبُــوبِ
قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى
وَفِي عَسَى فرْجَةٌ ترْجَى لِمَكــرُوبِ
ثمَّتَ وَلتْ فَأبْقتْ فِي الحَشَا ضَرَمــاً
يَذكُــو بِدَمْعٍ عَلَى الخَدَّينِ مَسْكُــوبِ
فَالآنَ فَازْجُرْ أوِ اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بِهِ
كَسَجْعِ شِــقٍّ أوِ الأفعَى أوِ الذِّيــبِ
هَــذِي عِبَارَتِهَــا فالأمْــرُ مُشْتَــرَكٌ
تلــقَى أفانِينــهُ طــراً بِتَهْذِيــبِ

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((كــان أبــو عامــر يبلــغ المعنــى ولا يطيــل سَفَــرَ الكــلام؛ وإذا تأملتــه ولسَنَــه، وكيــف يَجُــرُّ في البلاغــة رسنــه؛ قلــت عبــد الحميــد في أوانــه، والجاحــظ في زمانــه. والعجــب منــه أنــه كــان يدعــو قريحتــه إلى مــا شــاء مــن نثــره ونظمــه في بديهتــه ورويَّتِــه؛ فيقــود الكــلام كمــا يريــد مــن غيــر اقتنــاء للكتــب، ولا اعتنــاء بالطلــب، ولا رســوخ في الأدب؛ فإنــه لــم يوجــد لــه رحمــه اللــه ـ فيمــا بلغــني ـ بعــد موتــه؛ كتــاب يستعيــن بــه عــلى

أشجــع الغطفانيـــة العربيـــة. هـــذا ويعتبـــر النقـــاد القدمـــاء أحمـــد بـــن شهَيْـــد في صـــف أهـــم الأدبـــاء الأفـــذاذ الذيـــن أنجبتهـــم بـــلاد الأندلـــس في وقتـــه؛ إذ كـــان يتميـــز بسهولـــة عجيبـــة في التعبيـــر؛ ســـواء كـــان ذلـــك شعـــرا أم نثـــرا. فهـــو بذلـــك شاعـــر وناثـــر في الوقـــت ذاتـــه.[1] ومـــن أشهـــر أعمالـــه الأدبيـــة رسالـــة "التوابـــع والزوابـــع"؛ الـــتي حلـــق بخيالـــه فيهـــا؛ حيـــث تخيـــل أنـــه قـــام برحلـــة إلى أرض الجـــن؛ بمساعـــدة جـــني مـــن قبيلـــة أشجـــع الجـــن. الـــتي تتطابـــق مـــع قبيلتـــه أشجـــع ذات الأصـــول الأنسيـــة. وأشـــار في تلـــك الرحلـــة إلى مـــا شاهـــده، وتكلـــم عـــن الذيـــن لقيهـــم مـــن الجـــن؛ أتبـــاع الشعـــراء الفحـــول وشياطينهـــم؛ حيـــث وتحـــاور معهـــم وقـــرأ عليهـــم شعـــره

صناعتـــه، ويشحـــذ مـــن طبعـــه إلا مـــا لا قـــدْر لـــه؛ فـــزاد ذلـــك مـــن عجائبـــه، وإعجـــاز بدائعـــه)). نفســـه، ص: 192.

[1] قـــال الحميـــدي في ترجمـــة ابـــن شهيـــد: ((مـــن العلمـــاء بالأدب ومعـــاني الشعـــر وأقســـام البلاغـــة، ولـــه حـــظ مـــن ذلـــك يسبـــق فيـــه، ولـــم يـــر لنفســـه في البلاغـــة أحـــدا يجاريـــه؛ ولـــه كتـــاب "حانـــوت عطـــار" في نحـــو مـــن ذلـــك، وسائـــر رسائلـــه وكتبـــه نافعـــة الجـــد، كثيـــرة الهـــزل؛ وشعـــره كثيـــر مشهـــور؛ وقـــد ذكـــره أبـــو محمـــد علـــي بـــن أحمـــد [بـــن حـــزم] مفتخـــرا بـــه؛ فقـــال: "ولنـــا مـــن البلغـــاء أحمـــد بـــن عبـــد الملـــك بـــن شهيـــد؛ ولـــه مـــن التصـــرف وجـــوه البلاغـــة وشعبهـــا مقـــدار ينطـــق فيـــه بلســـان مُركـّـب مـــن لســـاني: عمـــرو [بـــن بحـــر الجاحـــظ] وسهـــل [بـــن هـــارون]... قـــال لنـــا أبـــو محمـــد علـــي بـــن احمـــد [بـــن حـــزم] تـــوفي أبـــو عامـــر ابـــن شهيـــد ضـــحى يـــوم الجمعـــة آخـــر يـــوم مـــن جمـــادى الأولى، سنـــة ســـت وعشريـــن أربعمائـــة بقرطبـــة؛ ودفـــن يـــوم السبـــت ثـــاني يـــوم وفتـــه في مقبـــرة أم سلمـــة؛ وصـــلى عليـــه جهـــور بـــن محمـــد بـــن جهـــور أبـــو الحـــزم. وكـــان حيـــن وفاتـــه حامـــل لـــواء الشعـــر والبلاغـــة؛ لـــم يخلـــف لنفســـه نظيـــر في هذيـــن الهلميـــن جملـــة؛ ومولـــده سنـــة اثنتيـــن وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ـــ 136.

فأجـازوه. وهـذه الرسالـة ـ كمـا هـو ظاهـر ـ سبـق بهـا غيـره مـن المبدعيـن العـرب وغيـر العـرب؛ إذ كتبهـا قبـل أن يكتـب: أبـو العـلاء المعـري العـربي رسالـة الغفـران، وقبـل أن يكتـب آليـاري دانـتي الإيطـالي قصتـه الكوميديـا الإلهيـة، أو جـون ميلتـون الأنجليـزي الفردوس المفقـود.

هـذا وقـد عـاش أبـو عامـر أحمـد بـن شهيـد في أدق فتـرة عرفتهـا بـلاد الأندلـس؛ كمـا أنـه انغمـس في الصراعـات الـتي دارت ـ آنئـذ ـ بيـن الطوائـف المختلفـة ـ أيـام الفتنـة الكبـرى الـتي اجتاحـت تلـك الديـار ـ وقضـت عـلى مؤسسـات الخلافـة الأمويـة نهائيـا. وقـد كـان في عـداد الأدبـاء الذيـن عايشـوا الفتـرة الزمنيـة الـتي أظلـت الدولـة الحموديـة سـواء كـان ذلـك في قرطبـة؛ أو في مالقـة؛ تلـك المدينـة الـتي هاجـر إليهـا ابـن شهيـد مـع بعـض أعيـان قرطبـة ـ لبعـض الوقـت ـ بعـد أن ازداد الوضـع تعفنـا في قرطبـة؛ بسبـب مـا أبـداه بقايـا الخلفـاء الأمويـون مـن سلـوك سـيئ. وعليـه فقـد ذهـب أولئـك الأعيـان ـ وفيهـم ابـن شهيـد ـ إلى مالقـة مستنجديـن بيحـيى بـن حمـود؛ طالبيـن منـه العـودة إلى قرطبـة.[1]

---

[1] لكامـل في التاريـخ، ج: 7، ص ص: 287 ـــ 288. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 134 ـ 136. ودولـة الإسـلام في الأندلـس، ق: 2، ص ص: 666 ـ 667.

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد ـ حسبما تشير إليه بعض النصوص ـ من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض ـ أحيانا ـ إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1].

---

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبَّت إلى أبي عامر ابن شُهَيد أيَّام العلويين عَقَارِب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفُ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نَبَا لها جَنْبه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجِيدُ
يَجُودُ وَيَشْكُو حُزْنَهُ فيُجِيدُ
نَعَى صَبْرَهُ عِنْدَ الإمَامِ فَيَا لَهُ
عَدُوٌّ لأبْنَاءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ وَرِقَّةٌ
ثنته سَفِيهَ الذِّكْرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيْرُهُ
وَطُوِّقَ مِنهُ بِالعَظِيمَةِ جِيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعْر أثبَتَهُ الهَوَى
فَسَارَ بِهِ فِي العَالَمِينَ فَرِيدُ
أفُوهُ بمَا لَمْ آته مُتعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تَارَةً فأزِيدُ
فَإنْ طَالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فإنهَا
عَظَائِمُ لَمْ يَصْبِرْ لهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كنتُ فِي العُشَّاقِ أوَّلَ عَاقِلٍ
هَوَتْ بِحجَاهُ أعيُنٌ وَخُدُودُ

فَـرَاقٌ وَشَجْـوٌ وَاشْتِيَـاقٌ وَذِلَـــةٌ
وَجَبَّـــارُ حُفَـــاظٍ عَـلَيَّ عَتِيـــدُ
فَمَـــنْ يُبْلِــغُ الفِتيَـانَ أَنِّيَ بَعْدَهُـــمْ
مُقِيـــمٌ بِـدَارِ الظَّالِمِيـــنَ وَحِيـــدُ
مُقِيـمٌ بِــدَارٍ سَاكِنوهَـا مِـنَ الأذَى
قِيَـامٌ عَـلَى جَمْـرِ الحِمَـامِ قعُـودُ
وَيسْمَـــعُ لِلْجَنَــانِ فِي جَنَباتِهَـــا
بَسِيـطٌ كترْجِيـعِ الصَّـدَى وَنَشِيـدُ
ولَسْــتُ بِــذِي قَيْــدٍ يَــرِنُّ، وَإِنَمَـا
عَلَى اللحْــظِ مِنْ سُخطِ الإِمَـامِ قيُـودُ
وَقُلْــتُ لِصَــدَّاحِ الحَمَــامِ وَقَــدْ بَـكَى
عَلَى القصْـرِ إلفـاً وَالدُّمـوعُ تَجُـودُ
أَلاَ أيُّهَـا البَـاكِي عَـلَى مَـنْ تُحِبـهُ
كِلاَنَـــا مُعَـنًّى بِالخَـــلاَءِ فرِيـــدُ
وَهَلْ أنــتَ دَانٍ مِنْ مُحِـبٍّ نـأى بـهِ
عَــنِ الإلــفِ سُلطَــانٌ عَليـهِ شَدِيـدُ
فَصَفقَ مِنْ رِيــشِ الجَنَاحَيــنِ وَاقِعـاً
عَلَى القـرْبِ حَـتَّى مَا عَلَيـهِ مَزِيـدُ
وَمَــا زَالَ يُبْكِيــنِي وَأبْكِيـهِ جَاهِـداً
وَلِلشَّــوق مِنْ دُونِ الضُّلــوعِ وَقُــودُ
إلى أنْ بكَى الجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجْوِنَــا
وَأجْهَـــشَ بَــابٌ جَانِبَـــاهُ حَدِيـــدُ
أطَاعــتْ أمِيــرَ المُؤمِنِيــنَ كتَائِــبٌ
تصَــرَّفُ فِي الأمْــوَالِ كيْــفَ ترِيــدُ
فلِلشَّمْــسِ عَنهــا بِالنَّهــارِ تأخّـــرٌ
وَلِلبَــدْرِ شِحْنَــاً بِالظــلاَمِ صُـــدُود
ألاَ إنهَــا الأيـــامُ تلعَـــبُ بِالفـتَى
نُحــوسٌ تهَــادَى تــارَةً وَسُعُـــودُ

مع ذلك فقد اختار اللجوء إلى مالقة، وفضل رعاية يحيى بن علي بن حمود؛ عندما ضاق به الحال في قرطبة؛ بسبب ما وصل إليه الوضع في تلك المدينة من فساد وتعفن بعد خروج بني حمود منها. لذا فقد قال هذه القصيدة لما أزمع الخروج إلى مالقة:

أرَى أعيُنَاً ترنو إلَيَّ كأنمَا
تسَاوِرُ مِنها جَانبَيَّ أرَاقِمُ
أدُورُ فلاَ أعتَامُ غيْرَ مُحَارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألقَى امْرُءاً لِي مُسَالِمُ
وَيَجْلبُ لِي فَهمِي ضُرُوباً مِنَ الأذَى
وَأشْقَى امْرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالمُ
وَأوْجَعُ مَظلومٍ لِقلبٍ وَذِي حِجىً
فتىً عَرَبِيٌّ تزْدَرِيهِ أعَاجِمُ

وَمَا كنتُ ذا أيدٍ فَأذعن ذا قوًى
مِنَ الدَّهرِ مُبدٍ صرْفهُ ومُعِيدُ
وَرَاضَتْ صِعابِي سَطوَةٌ علوية
لهَا بَارِقٌ نحْوَ الندَى وَرُعودُ
تقولُ التِي مِنْ بيْتِهَا كفَّ مَركَبِي
أقرْبكَ دَانٍ أمْ مَدَاكَ بَعِيدُ
فقلتُ لَهَا أمْرِي إلى مَنْ سمَتْ بهِ
إلَى المَجدِ آباءٌ لهُ وَجدُودُ

غَنَيْتمُ علَى مَا تزْعُمُونَ عَنِ الورَى
لقدْ سَفِهَــتْ تِلكَ الحُلــومُ الزَّوَاعِــمُ
وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي علَى الطَّيْر فِي الضُّحَى
إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَناحِ القــوَادِمُ
سَـــلاَمٌ عَليكـــمْ لاَ تَحيَّـــةَ شَاكِــرٍ
ولَكِنْ شَــجىً تنْسَــدُّ مِنهُ الحَلاَقــمُ
وَمَا قرِعَتْ سِــنِّي عَليْكــمْ ندَامَــةً
وَأوشكْ غــداً أنْ يَقرَعَ السِّن نـــادِمُ
علَيكمْ بــدَارِي فاهْدِمُوهَــا دَعَائِمــا
ففِي الأرْضِ بَنـــاءُونَ لِي وَدَعَائِــمُ
لئِنْ اخْرَجَتنِي عَنكم شَـــرَّ عُصبْـــةٍ
ففِي الأرْضِ إخْــوَانٌ عَلَيَّ أكـــارِمُ
وَإنْ هَضَمَتْ حَــقِّي أمَيَّـــةُ عِندَهَـــا
فَهَاتـــا علَى ظَهرِ المَحَبــةِ هَاشِــمُ
وَلاَ غــرْوَ مِنْ تِلكَ القلاَنسِ جَاليــا
إذا عَرَفتْ حَــقِّي هُنـــاكَ العَمَائــمُ

وقـــال في وصـــف نحلـــة:

وَطائِــرَةٍ تهــوِي كـــأنَّ جَناحَهَـــا
ضَمِيـــرٌ خَـــفِيٌّ لاَ يُحَـــدِّدُهُ وَهـــمُ
مُلاَزِمَـــةٍ لِلـــرَّوْضِ حَتَّى كأنهَـــا
لَهَا كلٌّ مَا تفترٌ عَنهُ الرُّبَى طَعْـــمُ
تَمُجُّ بِفيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتَــفِي
لِمُشْتَـــارِهِ مَا بَيْنَ أحْشَائِهَـــا سَهـــمُ
مُنافِـــرَةٍ لِلإنـــسِ تأنَـــسُ بِالفَـــلاَ
مُفرِّقةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَـــا السُّـــمُّ
فإدناؤُها رُشـــدٌ وَهَتَـــكُ حِجَابِهَـــا
إذا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أيامِهَا ظلـــمُ

وقـــال في وصـــف برغـــوث:

وَمُنفـــرٍ للنـــــوْمِ مَسْكنـــــهُ إذَا
نـــامَ المُمَلَّـــكُ بَيْنَ أثنـــاءِ الثيَـــابْ
يَسْرِي إِلَى الأجْسَامِ يَهْتِـــكُ عَـــدْوُهُ
عَنْ كلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ
وَيَعُـــضُّ أرْدَافَ الحِسَـــانِ وَمَالَـــهُ
كفٌّ وَلَكِنْ فوهُ مِنْ أعْدَى الحِـــرَابْ

مُتَحَكِّـمٌ فِي كـلِّ جِسْـمٍ ناعِـمٍ
مُتدَلـلٌ مَا بَيْـنَ أَلْحَـاظِ الكِعَـابْ
فَـإِذَا هَمَمْـتَ بزَجْـرِهِ ولَّى وَلاَ
يُثْنِيـهِ عَمَّـا قـدْ تَعَـوَّدَهُ طِـلاَبْ
وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّـهِ مَخضُوبَـةً
بدَمِ القلُـوبِ وَمَا تَعاوَرَهُ خِضَـابْ
قـرْمٌ مِنَ الليْـلِ البَهيـمِ مُكـوَّرٌ
يَمْـشِي البَـرَازَ وَمَا توَارِيهِ ثِيَـابْ
عَظمَـتْ رَزِيَّتـهُ ولَكِـنْ قـدْرُهُ
أَخزَى وَأَهوَن مِنْ ذبَابٍ فِي تـرَابْ

ومـن روائـع مـا كتبـه نثـرا في وصـف برغـوث قولـه: ((**أَسـودُ زنـجيٌّ، وأهـليٌّ وحـشيٌّ، ليـس بـوانٍ ولا زُمَّيْـل، كأنـه جـزء لا يتجـزأ مـن لَيـل، وشُونيزَة،[1] وَثَبَتُهَـا غريـزة، أو نقطـة مـداد، أو سويـداء قلـب فـؤاد، شربـه عـبٌّ، ومَشْيـهُ وَثـبٌ، يَكمُـنُ نهـاره، ويَسْـري ليلـه، يـدرك بطعـن مؤلـم، ويستحـلُّ دم كـل مسلـم، مسـاور للأسـاوِرَة، يجـرٌّ ذيلـه عـلى الجبابـرة يتكفـر بأرفـع الثيـاب، ويَهْتِـكُ سِتـرَ كـل حجـاب، ولا يَحْفِـلُ ببـوَّاب، يـرد مناهـل العيـش العَذبَـة، ويصـل إلى**

[1] الشُّونيـزَة هي الحبـة السـوداء، وتسميهـا العامـة في الجزائـر سَيْنُوجَـة.

الأحراج الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[1]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[2].

---

[1] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر بن عباس إلى لُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلَّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ تحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلامٍ من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفا؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلا بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصِيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إلَيَّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أنِّي المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفونِ ولَثْغة فِي المَنطِق

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:

سَبَبانِ جرَّا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشق

مَنْ لِي بألثغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثُهُ

يذكِي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرق

ينبِي فَينبو فِي الكلاَمِ لِسَانُهُ

فكأنهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد بن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((**ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كان العلم، أو بكفك كان الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟!**[1] **عرضت عليك الدُّرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،**[2] **ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب** [الذهب والفضة]، **ولا يضيءُ السليط في القصب** [أي أنابيب

لاَ ينعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثَرَاتِها

وَلَوانَّها كتِبَتْ لهُ فِي مهرَقِ

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا علَيَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكاوِيَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ

مَلِيحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة

تملأ شحماً ولَحماً وَما

يليقُ تملؤُهُ بِالكِتابة

لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياءِ

وَلَكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة

جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لينٍ

فأحدَثَ فِي العلوِ مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610 -611.

[1] أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.

[2] أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.

مـــن الجوهـــر][1] **لأقطعــنَّ حبالــك هاجــراً، ولأتركــن ليلــك ساهــراً))**.[2]

ومـــن النصـــوص الـــتي يعـــارض فيهـــا ابـــن شهيـــد بعـــض الكتـــاب المحافظيـــن، المتشبثيـــن بالأساليـــب القديمـــة للبيـــان قولـــه: ((**وإصابـــةُ البيـــان لا يقـــومُ بهـــا حفـــظُ كثيـــر مـــن الغريـــب، واستيفـــاءُ مسائـــلِ النحـــو؛ وإنمـــا يقـــوم بهـــا الطبـــع مـــع وَزنِـــه مـــن هذيـــن: النحـــو والغريـــب. ومقـــدارُ طبـــعِ الإنســـان إنمـــا يكـــونُ عـــلى مقـــدار تركيـــب نفســـه مـــعِ جسمـــه؛ فمـــن كانـــت نفســـه في أصـــلِ تركيبـــه مستوليـــةً عـــلى جسمـــه؛ كـــان مطبوعـــاً روحانيـــاً؛ يـــطُلـــع صُـــوَرَ الكـــلام والمعـــاني في أجمـــلِ هيئاتهـــا، وأروَق لبساتهـــا؛ ومـــن كـــان جسمـــه مستوليـــاً عـــلى نفســـه ــ مـــن أصـــل تركيبـــه ــ والغالـــبَ عـــلى حسّـــه؛ كـــان مـــا يطلـــعُ مـــن تلـــك الصـــور ناقصـــاً عـــن الدَّرجـــة الأولى في الكمـــال والتمـــام، وحُسْـــنِ الرَّونـــق والنظـــام. فمـــن كانـــت نفسُـــه المستوليـــة عـــلى جسمـــه فقـــد تـــأتي منـــه في حســـن النظـــام صُـــوَرٌ رائقـــة مـــن الكـــلام؛ تمـــلأ القلـــوب، وتشعـــف النفـــوس. فـــإذ فتشـــت لحسنهـــا أصـــلا لـــم تجـــده، ولجمـــال تركيبهـــا أســـا لم تعرفـــه؛ وهـــذا هـــو الغريـــب؛ أن يتركـــب الحســـن مـــن غيـــر حســـن؛ كقـــول امـــرئ القيـــس:**

---

[1] أي أن الذهـــب والفضـــة لا يصلحـــان للسهـــام؛ ولـــن يزيـــد الحـــز مـــن قيمتهمـــا لـــكي يصيـــرا سهامـــا؛ كمـــا لا يـــضيء السليـــط في قناديـــل مـــن أنابيـــب الجوهـــر؛ بينمـــا يـــضيء في قناديـــل بسيطـــة.

[2] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـــ 231.

تنوَّرتُهَـا مِنْ أذرُعَـاتٍ وَأهـلهَـا

بيَثْـرِبَ أدنَى دَارِهَـا نظـرٌ عـَالِي

فـإن هـذه الديباجـة إذا تطلبـت لهـا أصـلاً مـن غريـب معـنىً لـم تجـده. وكقـول أبي نـواس:

طرَحتـمْ مِـنَ الترْحَـالِ ذِكـراً، فَغَمنـا،

فَلوْ قدْ شَخَصْتمْ صَبَّحَ المَوْتُ بَعْضَنَـا

ثـم قولـه:

سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْـيَى بْنِ خَالِـدٍ

هَـوَاكِ، لَعلَّ الفضْـلَ يَجْمَـعُ بَيننـا

فهـذا مـن الكـلام الغـثِّ، واللفـظِ الـرَّثِّ؛ الـَّذي لـو رامـه حِمـار الكُسـاح لأدركـه؛ ولكـن لـه مـن التعلـق بالنفـسِ، والاستيـلاء عـلى القلـب مـا تـرى)).[1]

ولمزيـد مـن الفائـدة نثبـت هنـا هـذه المقاطـع مـن رسائـل أدبيـة، نقديـة رائعـة كتبهـا ابـن شهيـد؛ جـاء فيهـا: **((وكمـا أن لكـل مَقـامٍ مَقـالاً؛ فكذلـك لكـل عصـر بيـان، ولكـلِّ دَهـرٍ كـلام، ولكـلّ طائفـةٍ مـن الأمـم المتعاقبـة نـوعٌ مـنَ الخطابـة، وضـربٌ مـن البلاغـة؛ لا يوافقُهـا غيـرُه ولا تَهـشَّ لسـواه. وكمـا أن للدنيـا دولاً؛ فكذلـك للكـلام نقـلٌ وتَغَايـرٌ في العـادة. ألا تـرى أنَّ**

---

[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ـ 232.

الزَّمـــان لمـــا دار كيـــف أحـــال بعـــضَ الرَّســـمِ الأولِ في هـــذا الفـــنِّ إلى طريقـــة عبـــد الحميـــد وابـــن المقفـــع وسهـــل بـــن هـــارون وغيرهـــم مـــن أهـــلِ البيـــان؟ فالصنعـــة معهـــم أفسَـــحُ باعـــاً، وأشـــدُّ ذراعـــاً، وأنـــوَرُ شُعاعـــاً؛ لرُجْحـــان تلـــك العقـــول، واتســـاع تلـــك القرائـــح في العلـــوم. ثـــم دار الزمـــانُ دَوَرَانـــاً؛ فكانـــت إحالـــةٌ أخـــرى إلى طريقـــة إبراهيـــم بـــن العبـــاس ومحمـــد بـــن الزَّيـــَّات وابـــني وهـــبٍ ونظرائهـــم؛ فرقـــت الطِّبـــاعُ، وخـــف ثقـــلُ النفـــوس. ثـــم دارَ الزمـــانُ فاعتـــرى أهلـــه بالطائـــف صلَـــفٌ، وبرِقـــةِ الكـــلامِ كلـــفٌ؛ فكانـــت إحالـــة أخـــرى إلى طريقـــة البديـــع وشمـــس المعـــالي وأصحابهمـــا. وكذلـــك الشعـــراءُ انتقلـــوا عـــن العـــادة في الصنعـــةِ بانتقـــال الزمـــانِ؛ وطلـــبَ كـــلٌّ ذي عصـــرٍ مـــا يجـــوز فيـــه، وتَهـــشُّ لـــه قلـــوبُ أهلـــهِ؛ فكـــان مـــن صريـــعِ الغـــواني وبَشـــارٍ وأبي نـــواسٍ وأصحابهـــم في البديـــع مـــا كـــان؛ مـــن استعمـــال أفانينـــهِ والزيـــادة في تفريـــع فنونـــهِ.

ثـــم جـــاء أبـــو تمـــامٍ فأســـرف في التجنيـــس، وخـــرج عـــن العـــادة؛ وطـــابَ ذلـــكَ منـــه، وامتثلـــه النـــاس؛ فكـــل شِعـــرٍ لا يكـــونُ اليـــوم تجنيســـاً أو مـــا يُشبهـــه تَمُجـــه الآذانُ؛ والتوسُّـــطُ في الأمـــرِ أعـــدلُ؛ لأنـــه لَبـــسَ ديباجـــة المُحدثيـــن عـــلى لأمـــةِ العـــرب؛ فتركَـــبَ لـــه مـــن الحُسْـــنِ بينهمـــا مـــا تَركـــب)).[1]

((وأهـــل صناعـــة الكـــلام مُتباينـــون في المنزلـــة، متفاضِلـــون في شَـــرَفِ المرتَبـــة، عـــلى مقـــدارِ إحسانهـــم وتصرُّفِهـــم. فمنهـــم الـــذي ينظـــم الأوصـــاف، ويختـــرعُ المعـــاني، ويحـــرز جيـــد اللفـــظِ؛ إلاَّ أنـــه يَصْعُـــبُ عليـــه الكـــلام، ويكـــدُّ قريحتـــه التأليـــف؛ حـــتى إنـــه رُبَّمَـــا قَصَّـــر في الوصـــف، وأســـاءَ الوضـــع. فهـــذا في الأبيـــاتِ القليلـــة نافـــر، وفي القريبـــةِ المأخـــذِ سائـــر، وفي طريقـــة الجمهـــور الأعظـــم ذاهـــب؛ حـــتى إذا ازدحمـــت عليـــه، وانحشَـــدَتْ إليـــه، وطالبتـــه ببهـــاءِ البهجـــة، وشـــرف المنزلـــة، وقـــف وأنفـــلّ، وتـــلاشى واضمحـــل. ومنهـــم الكـــارعُ في بحـــر الغـــزارة، القـــارحُ بشُعـــاعِ البراعـــة؛ الـــذي يَمُـــرُّ مَـــرَّ السَّيـــلِ في اندفاعـــه، والشؤبُـــوبِ في انصِبابـــه؛ لا يشكـــو الفشَـــلَ، ولا يَكِـــلُّ عـــلى طـــولِ العمـــل؛ إذا ازدحَمَـــتْ في الكـــلامِ عليـــه المطالـــب، وعَلِقـــتْ بحـــواشي فكـــره المـــآرب، وحُشـــرت عليـــه الصعائـــب والغرائـــب؛ استقـــلَّ بهـــا كاهلـــه، واضطلـــع بثقلهـــا غاربـــهُ، وأعارَهـــا مـــن نظـــرِه لَمْحـــة، ومـــن فِكْـــره

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 237 ــ 238.

قدْحَـــة، ثـــمٍ رمى بهـــا عـــن جانبيـــهِ؛ قـــد رَوِيَـــتْ بمائهـــا، ولبســـت شُعـــاع بهائهـــا؛ وبـــقي كاللقـــوَةِ في المَرْقـــب؛ ســـامٍ نظـــرُه، قـــد ضـــمَّ جناحَيْـــه، ووقـــفَ عـــلى مخلبـــه، لا تتـــاحُ لـــه جارحـــة إلا اقتصَّهـــا، ولا تنَازلـــه طائـــرة إلاَّ اختَطفهـــا؛ جُرْأتـــه كشَفرتـــه، وبديهتـــه كفكرتـــه؛ فذلـــك الألســـن يـــومَ حـــربِ الكـــلام، لا تُخْـــطئُ ضربتـــُه، ولا تُصـــابُ غرَّتـــه. ومنهـــم مـــن يتجـــافَى الكـــلام، ويـــرغ عـــن المقـــال؛ فـــإذا مُـــني بـــه، أخـــذ بأطـــرافِ المحاســـنِ، وشـــارَك في أنحـــاءٍ مـــن الصنعـــة؛ وجُـــلّ مـــا عنـــده تلفيـــقٌ وحيلـــة؛ وبذلـــك يُصاحِـــبُ الأيـــَّام، ويُجـــاري أبنـــاء الزَّمـــان؛ مـــا كـــان لـــه عقـــل يغـــطي عـــلى نقصانِـــه، سياســـةً يَسُـــوسُ بهـــا فُحـــولَ زمانِـــه. ومـــن خـــرج عـــن هـــذه الطبقـــات الثـــلاث لـــم يستحـــق اســـم البيـــان، ولا يدخـــلُ في أهـــلِ صناعـــة الكـــلام)).[1]

((وقـــومٌ مِـــن المعلميـــن بقُرْطُبتِنـــَا ممـــن أتى عـــلى أجـــزاءٍ مـــن النحـــو، وحفِـــظَ كلمـــاتٍ مـــن اللغـــة، يحنـــونَ عـــلى أكبـــادٍ غليظـــة؛ وقلـــوبٍ كقلـــوب البُعـــران؛ ويَرجعـــونَ إلى فِطـــنٍ حَمِئـــةٍ، وأذهـــانٍ صَدِئـــةٍ؛ لا مَنفـــذَ لهـــا في شُعـــاعِ الرِّقـــةِ، ولا مَـــدَبَّ لهـــا في أنـــوارِ البيـــان. سَقَطـــتْ إليهـــم كتـــبٌ في البديـــعِ والنقـــدِ فَهِمُـــوا منهـــا مـــا يفهمـــه القـــرد اليمـــاني مـــن الرَّقـــص عـــلى الإيقـــاع، والزَّمْـــر عـــلى الألحـــان؛ فهـــم يُصرِّفـــون غَرَائبَهـــا فيمـــا يَجـــري عندهـــم تصريـــفَ مـــن لـــم يـــرزَقْ آلَـــة الفهـــم،

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ، ص ص: 238 ــ 239.

ومن لم تكن له آلة الصناعة، مما هي مَخْصوصَة بها، لا تقومُ تلك الصناعة إلا بتلك الآلة؛ فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضربِ العود والطنبور؛ لتوتدِ رُسغه، واستدارة حافره؛ ولا له بنانٌ يَجسُّ به علَى دَسْتبان... فهذه حالُ العصابةِ من المعلِّمين: يدركون بالطبيعةِ، ويقصرون بالآلةِ. وتقصيرهُم بالآلة هو من طريق العِلل الدَّاخِلةِ من فساد الآلةِ القابلةِ للروحانية، والخادمةِ لآلاتِ الفهم، الباعثة لرقيق الدَّم في الشّرْيانات إلى القَلب؛ وزيادةِ غِلظِ أعصاب الدّماغِ ونقُصانِها عن المقدار الطبيعي. يُعِينُ على ذلك بالحَدْسِ وطريق الفِراسة فسادُ الآلةِ الظاهرةِ؛ كفرطحةِ الرأس وتسفيطه، ونتوءِ القَمَحدُوَةِ، والتِواءِ الشَّدْقِ، وخَزَرِ العين، وغِلظِ الأنفِ، وانزواءِ الأرنبة...

وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنَّه زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بِوُفُورِ

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ـ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرُدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم يندر له من شعره إلا قوله:

صَحِبْتُ القَطِيعَ وَنَادَمْتُه   وَأصبَحْتُ فِي شُرْبِهِ ذا انْقِطَاعْ
وَأبْصَرْتُ أنْسِي بِهِ وَحْدَهُ   كَأنسِ الرَّضِيعِ بِثَدْيِ الرَّضَاعْ"

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أنْتَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهُمُ   يَابْنَ مَنْ مَا مِثْلُهُ بَشَرُ
فَإذا مَا لُحْتَ بَيْنَهِمُ   قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"

قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ـ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ـ : هذه عُقَد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من

البضاعة. دخلَ الشعراء فَأَخَذَ لباقَتَهم، وصار في جملة الكتاب فاستعار صلفهم ورشاقتهم، وباشرَ أهلَ الحساب فاستفاد طريقة البراهين، وناظر أهلَ الجَدَلِ فتعلم القوانين، وعَرَفَ عناصرَ الكلامِ؛ فكل علم يَزْعَمُه قبض يده، وكل جدٍّ وهَزلٍ فإليه منسوبٌ، وعنهُ مأخوذ؛ وهو مع ما اجتمع له من ذلك كُلِّهِ، وحُبِي به، أشدهم صَبابَة [ضنانة] بألاَّ يكونَ بالأندلسِ مُحْسِنٌ سواه، ولا مجيدٌ حاشاه. وكانِ الرَّأيُ عِندِي له أن يَسْكُنَ أرْضَ جليقية أو قُطراً بعد عن الإسلام؛ حتى لا يسمعَ فيه لخطيب ذِكراً، ولا يُحِسَّ لشاعرٍ ركزاً؛ فيكون هناك فرْداً. ومنَ العَجب أيضاً في أَمرِهِ أنَّ كلَّ كاتب كتبَ للسلاطين عندنَا، وكلَّ شاعرٍ مدحهم، رُوِيَتْ أَشعارُه ورسائله غير أبي القاسمِ وحدَه. على أنه إنما جلس للتعليمِ على هذا المعنى. وربما عرَّضَ بأن يُؤخذُ منه شيءٌ من أشعارِهِ ورسائله ولا يجيبه تلميذ؛ والمحرومُ محرومٌ...

أخلى خاطر هذا الرجل من التوفيق، وجعله يخرى على فمه")). المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 73.

وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرض لا محالة. ولم يُقَصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغامَته [أَي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

ـ ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتّ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه.

وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم

---

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر ــ كان ــ ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه ــ كان ــ إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثَّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهَّنٍ في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئَ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ــ 438.

المنطق؛ الأمر الذي وضعه ـ آنئذ ـ موضع اتهام في دينه.[1]

وهذه بعض العينات من قصائد ابن الحناط بالإضافة إلى نصوص من نثره؛ حفظتها كتب التراث الأندلسي. بدءا بمقطع من رسالة بعث بها إلى الوزير أبي العباس ابن ذكوان قال فيها: **((الإسهاب كلفة، والإيجازُ حكمة، وخواطر الألباب سهام؛ يصابُ بها أغراضُ الكلام؛ وأخونا أبو عامر** [ابن شهيد] **يسهبُ نثراً، ويطوّل نظماً؛ شامخاً بأنفه، ثانياً من عطفه، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الأدب، وأوتي فصل الخطاب. فهو يستقصرُ أساتيذَ الأدباء، ويستجهلُ شيوخ العلماء... في ليلةٍ بتها، والكفُّ الخضيبُ سوارُها البدر، والشعرى العبورُ وشاحها النسر،؛ وكأنما سماؤها روضة تفتحتِ النجوم وسطها زَهراً، وتفَجَّرتِ المجرَّة خلالها نهراً؛ وادٍ يسيل بعسجد على رضراضٍ زبرجد. فلما أصبت الغِرَّة، وأقصدت الثغرة؛ تقلبت عراراً، وتناومت غراراً؛ حتى أنبهني الفجر ببرده، وسَرْبَلني الصباح ببُرْده، وهببت من النومة، وصحوت من النشْوةِ، فزففتها إليك بنتَ ليلتها عذراء، وجلوتها عليك كريمة فكرتها حسناء، تتلفع بحبرةِ حبر، وتتبختر في شعار شعر، مؤتلفٌ بين رَقها ومدادها، ومجتمع في بياضها وسوادها...**

[1] المغـرب، ج: 1، ص: 121.

وتخال القلمَ رقَّ لما به فبكى؛ فأنشدْها أخاكَ الشهيدي [أي ابن شهيد]، **وكلفه على العروض والقافية مُعارضَتَها، وحمِّله على اللينِ والشدة مُقارضتها، فستوقد بقلبه قبَساً، وتَضْرِبَ في أذنِهِ جَرَساً؛ فيَتَبيَّن به حَظَّه، ويعرف لغيره فضله)).**[1]

ويبدو أنه كان بين ابن الحناط وابن شُهيد منافسة حثيثة وبريئة؛ لم تمنعهما من إظهار التقدير والاحترام لبعضهما بعضا؛ ويتجلى ذلك من خلال تصرفاتها الواضحة، ومن خلال ما ينظمانه من مقاطع شعرية يتبادلان فيها المديح[2].

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ـــ 440.

[2] وقد نقل الحميد بعض الأبيات التي تؤيد هذا؛ مثل: ((فأخبرني الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال: "لما نعيت أبا عامر بن شُهيد إلى أبي عبد الله بن الحناط ـ وقد عرفت ما كان بينهما من المنافسة ـ بكى، وأنشدني لنفسه بديهة:

لَمَّا نَعَى النَاعِي أبا عَامِرٍ
أيقنتُ أنِّي لستُ بِالصَّابِرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وَتْبُ النَدَى
وَسَيِّدُ الأوَّلِ وَالآخِرِ"

ولابن الحناط من كلمة طويلة في مدح أبي عامر بن شهيد أولها:

أمَّا الفِرَاقُ فلِي فِي يَوْمِهِ فَرَقُ
وَقَدْ أرِقتُ لهُ لوْ يَنفعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقتْ عَيْنِي التِي انهَمَلتْ
أمِ الدُّمُوعُ مَعَ الأظعَانِ تسْتبقُ
عَاقَ العَقِيقُ عَنِ السُّلوَانِ وَاتضَحَتْ
فِي توضحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَوَى طرُقُ

ومما قاله ابن الحناط في قصيدة رفعها إلى الخليفة علي بن حمود:

رَاحَتْ تذكرُ بِالنسِيمِ الرَّاحَا
وَطفاءُ تكسِرُ لِلجنوحِ جَنَاحَا
أخفَى مَسَالِكهَا الظلاَمُ فأوقدَتْ
مِنْ بَرقِها كَيْ تَهتدِي مِصْبَاحَا
وكَأنَّ صَوْتَ الرّعدِ خلفَ سَحَابِهَا
حَادٍ إذا ونَتِ السَّحَائِبُ صَاحَا
جَادَتْ عَلَى التلعَاتِ فاكتَسَتِ الرُّبَى
حُلَلاً أقَامَ لَهَا الرَّبيعُ وِشاحَا

لوْلاَ النسِيمُ الذِي تأتِي الرِّياحُ بهِ
إذَا تضَوَّعَ مِنْ عَرفِ الحِمَى الأفقُ
لمْ أدْرِ أنَّ بُيُوتَ الحَيِّ نازِلةٌ
نَجْداً ولاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الْحِمَى القلقُ
مَا فِي الهَوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَة
وَمَا بقلبِي إلاَّ الشوقُ وَالأرَقُ

ومن أخرى:

مِنْ كلِّ بَيْضَاءَ مِثلِ البَدْرِ مُطلِعاً
هَيفاءَ مِثل قضِيبِ البَانِ مُنعَطِفا
إلفٌ ألفتُ الضَّنا مِنْ بَعْدِ فرقتِهِ
حَتَّى غدَا بَدَنِي مِنْ دِقةٍ ألفا)).

جذوة المقتبس، ص: 58.

فانظُرْ إِلَى الرَّوْضِ الأرِيضِ وَقَدْ غدَا
يَبكِي الغــوَادِي ضَاحِكــاً مُرتاحــا
وَالنـــوْرُ يَبسُــطُ نحوَ دِيمتِهـــا يـــداً
أهــدَى لها سَـــاقِي النـــدَى أقدَاحَـــا
وتَخالـــهُ حَـــيّى الحَيا مِـــنْ عَرفِـــهِ
بذكِيِّـــــهِ فــــإذَا سَقــــاهُ فاحــــا
رَوْضٌ يُحَـــاكِي الفاطِـــمِيِّ شمَائـــلاً
طِيبـــاً، وَمزْنٌ قـــدْ حَكـــاهُ سَمَاحَـــا
أعَـــلِيُّ إنْ تعـــلُ المُلـــوكَ فإنهـــمْ
بهـــمٌ جُعلـــتَ أغرَّهـــا الوَضَّاحَـــا
لمـــا طلعـــتَ لَهـــا بِكـــلِّ ثنِيـــةٍ
أنسَيْتهـــا المَنصُـــورَ وَالسَّفاحَــــا

وفي قصيـدة أخـرى يقـول في عـلي بـن حمـود أيضـا:

شـــقِيَ بَعْدَنا بالبُعدِ مِنْ نِعمَ نُعمَـــانُ
وَأُوحِشَ مِنْ لبْنَى عَلى البُعدِ لُبنـــانُ
سَقَى القَطرُ مَا بَيْنَ العَقِيقِ وَضَارِجٍ
مَعـــارِفَ فِيهَـــا لِلأحبـــةِ عِرْفـــانُ

وَحَيا الحيَـــا عَهداً عَهدناهُ باللـــوَى

لـــوَى دَيننا فِيـــهِ صُدُودٌ وَهِجـــرَانُ

إلى قولـــه:

وَلاَ مِثلَ هَذَا العَــدْلِ كيــفَ أعَــادَهُ

عَلِيٌّ وقَدْ مَــرَّتْ مِنَ الظلمِ أزْمَـــانُ

ويقــول فيـــه أيضـــا في قصيــدة أخـــرى:

بَكيـــتُ لَهَا شجْـــواً وَهنَّ الحمائِـــمُ

ينحـــنَ بلاَ دَمـــعٍ وَدَمعـــكَ سَاجِـــمُ

ولَما عَلونا الحزْنَ وَاعْتَسَفَـــتْ بنـــا

رُسُومَ الدِّيارِ اليَعْمَـــلاَتُ الرَّوَاســـمُ

ثـــم يقـــول:

سَقَى مَنبتَ اللذَّاتِ مِنهَا ابْنُ هَاشِـــمٍ

إذَا انهمَلَـــتْ مِن رَاحَتيـــهِ الغمَائِـــمُ

إمَـــامٌ أقَـــامَ الدِّيـــنَ حَـــدُّ حُسَامِـــهِ

طرِيـــراً وَمِنـــهُ فِي يَـــدِ الله قائِـــمُ

وَيُزْهِرُ فِي يُمناهُ نــوْرٌ مِنَ الظبَــا

لـــهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِيــنَ كمَائِــمُ

سُيُــوفٌ إذَا اعْتلتْ جهَاتُ ثغورِهَــا

فمِنهُــنَّ فِي أعْناقِهِـــنَّ تمَائِــــمُ

بِكلِّ خمِيــسٍ طبَّــقَ الجَــوَّ نقعَــهُ

وَضَيــقَ مَسْــرَاهُ الجيَادُ الصَّــلاَدِمِ

كــأنَّ مُثــارَ النقــعِ إثمِــدُ عَيْنِــهِ

وَأشفــارَ جَفنيْــهِ الشِّفارُ الصَّــوَارِمُ

تعُــدُّ عَليْهِ الطيْرُ وَالوَحْــشُ قوتهَــا

إذَا سَــارَ وَالتفــتْ عَليْــهِ القشَاعِــمُ

ويقــول أيضـــا في غيرهـــا:

رِقتُ وَقدْ غــنَّى الحَمَامُ الهَوَاتــفُ

بمنعَرَجِ الأجْزَاعِ وَالليْــلُ عاكــفُ

أعدْنَ لِيَ الشوقَ القدِيمَ وَطــافَ بِي

عَلى النأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيــف:

سَقَى عَرَصَـــاتِ الـــدَّارِ كلُّ مُلْثــةٍ
مِنَ المُزْنِ تزْجيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ

كأنَّ نثِيــرَ القطــرِ مِنهَــا جوَاهِــرٌ
تفرِّقهَــا للرِّيــحِ أيــدٍ عَوَاصِــفُ

كأنَّ ابْتِسَــامَ البَــرقِ فِيهَا إذَا بَــدَتْ
سُيــوفُ عَــلِيٍّ بِالدِّمَــاءِ رَوَاعــفُ

ولـــه قصيـــدة في القاســـم بـــن حمـــود يشيـــر فيهـــا إلى مقتـــل المرتـــضى الأمـــوي؛ بعـــد أن خانـــه حليفـــه خيـــران الصقلـــبي؛ فاستهلهـــا قائـــلا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ[1]
وَأصبْــحَ مُلْكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

إلى أن يقــول:

وَفُرِّقَ جَمْع الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الــوَرَى
عَلَى ابْنِ حَبِيــبِ اللهِ بَعْــدَ خَلِيلِــهِ

---

[1] في هــذا البيــت إشـــارة إلى قصيـــدة أحمـــد بـــن دراج القسطـــلي؛ كـــان قـــد مـــدح فيهـــا خيـــران بقولـــه في المطلـــع:

لـــك الخيـــر قـــد أوفى بعهـــدك خيـــران   وبشـــراك قـــد وافـــاك عـــز وسلطـــان

وَقَــامَ لِــوَاءُ النَّصْرِ فَــوقَ مُمَنَــعٍ
مِنَ العِــزِّ جِبْرِيــلٌ إِمَــامُ رَعِيلِــهِ
وَأَشْرَقَــتِ الدُّنيَــا بِنُــورِ خَلِيفَــةٍ
بِــهِ لاَحَ بَــدْرُ الحَــقِّ بَعْدَ أفولِــهِ
مِــنَ الهَاشِمِيِّيــنَ الذِيــنَ بِمَجْدِهِــمْ
تَعَــوَّدَ شَخْــصُ المَجْدِ جَرَّ ذُيُولِــهِ
فلاَ تسَــلِ الأَيَّــامَ عَمَّا أَتَــتْ بِــهِ
فمَا زَالَــتِ الأيَــامُ تَــأتِي بِسُولِــهِ
ولَمَّا دَعَا الشَيْطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبَــهُ
وَأقبلَ حِــزْبُ اللَّــهِ فَــوْقَ خُيُولِــهِ
كَتَائِــبُ مِــنْ صَنهَاجَــةٍ وَزَنَاتَــةٍ
تَضَايَقُ فِي عَرْضِ الفَضَاءِ وَطُولِــهِ
تَقَــدَّمَ خَيْــرَانٌ إلِيْهَــا بِزَعْمِــــهِ
لِيُــدْرِكَ مَا قَــدْ فَاتَــهُ مِنْ ذُحُولِــهِ
فَلَمَّا التَــقَى الجَمْعَــانِ عَــاوَدَ رَأيَهُ
فَخَلَّى لِبَعْضِ الهَوْلِ جُــلَّ فُضُولِــهِ
وَوَلَّى وَأبْــقَى مُنْــذِراً مِنْ وَرَائِــهِ
يُقِيــمُ لأهْلِ الغَــدْرِ عُــذْرَ نُكولِــهِ

وممـــا قالـــه في المعتـــلي يحـــيى بـــن حمـــود:

لمْ يَخْــل مِنْ نوَبِ الزّمَــانِ أديــبُ
كــلاّ فشَــأنُ النائبَــاتِ يَنــوبُ

أمْسَى قــرَاراً لِلخطــوبِ وَأغتــدِي
غرَضــاً تفــوّقُ نَحْــوَهُ فتصيــبُ

وَإذَا انتهَيْــتَ إلَى العُلــومِ وَجَدتهَــا
شَيْئــاً يُعَــدُّ بــهِ عَليْــكَ ذُنــوبُ

وَغضَــارَةُ الأيامِ تــأبَى أنْ يُــرَى
فِيهَــا لأبْنــاءِ الذَّكــاءِ نصيــبُ

وَلذَاكَ مَنْ صَحِــبَ الليَــالِي طالِبــاً
جَــدًا وَفهْمــاً فاتــهُ المطلــوبُ

إلى قولـــه:

أمــتْ أميــرَ المُؤْمِنيــنَ مَوَاحِــلاً
فسَــقى صدَاهَــا غيْثــهُ الشؤْبــوبُ

المُعْتــلِي بِاللــهِ وَالمَلِــكُ الــذِي
تــاجُ الفخــارِ برَأسِــهِ مَعْصُــوبُ

إنْ كــانَ عَــدُّوا حُــبَّ آلِ مُحَمــدٍ
ذَنبــاً فــإنِّي لسْــتُ مِنــهُ أتــوبُ

وممـــا قالـــه في محمـــد بـــن القاســـم بـــن حمـــود حينمـــا اختـــار الإقامـــة عنـــده في الجزيـــرة الخضـــراء:

تفرَّغتُ فِي شُغْلِ العَدَاوَةِ وَالظَّعــنِ
وَصِــرْتُ إِلَى دَارِ الإقامَةِ وَالأمْــنِ

أمَقتولةَ الأجْفانِ مِنْ دَمْــعِ حُزنهــا
أفِيــقِي فإنِّي قدْ أفقــتُ مِنَ الحُــزْنِ

فلِلّــهِ سَيْرِي يَوْمَ وَدَّعتُ صُحْبَــتِي
زَمَاعــاً وَلَمْ أقرَعْ علَى ندَمٍ سِــنِّي

رَحَلتُ فكمْ مِنْ جُــؤْذَرٍ وَغَضَنفــرٍ
يُرَوِّي الثرَى مِنْ فَضْلِ أدْمُعِهِ الهَتِنِ

وَمَا عَنْ قِلى فارَقتُ ترْبَةَ أرْضِكــمْ
وَلكِنني أشفقتُ فِيهَــا مِــنَ الدَّفــنِ

مَرَرْتُ بشــوسٍ وَالنُّجُــومُ كأنهَــا
توَقدُ مِنْ فِكرِي وَتسْرَجُ مِنْ ذِهــنِي

وَأسْرَيــتُ مِنْ بَــدْرِ الظلاَمِ بِألبَــةٍ
بِصُحْبَةِ مُطفِي الجَمْرِ أوْ مُكفِئِ الظَّعْنِ

لبسْنا بِهَا ليْــلاً مِــنَ الثلــجِ أبْيضاً
كسَتهُ يَــدُ الصِّنبْرِ ثوْباً مِنَ القطــنِ

وَرُحْنا عَــلَى ألبيــرَةٍ فاستقــلَّ بِي
جَنَاحُ عُقابٍ لاَ يَــرُوحُ إلَى وَكْــنِ
ولَمــا تنكبْنــا المُنكــبَ لــمْ نَجِــدْ
لَنا مَرْكباً أهدَى سَبيــلاً مِنَ السُّفــنِ
ترَامَتْ بنا الأهْوَالُ فِي كــلِّ لُجَّــةٍ
تخيلهَــا جَــوًّا تَجَلــلَ بِالدَّجْــنِ
ترَى السُّفنَ فوقَ المَوْجِ فِيهَا كأنَّهَــا
تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ وَتوفِي عَلَى رَعــنِ
فبوَّأتُ رَحْــلِي ظِــلَّ أرْوَعَ مَاجِــدٍ
يَقولُ بلاَ خلفٍ وَيُعــطِي بلاَ مَــنِّ
إمَام وَصِيُّ المُصْطفَى وَابــنِ عَمــهِ
أبُوهُ، فتــمَّ الفخــرُ بَيْنَ أبٍ وَابــنِ

ـ ثم أبو بكر عُبادة بن عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي المعروف بابن ماء السماء:[1]
يضعه كثير من النقاد والأدباء الأندلسيين في صف فحول الشعراء بتلك الديار. وهو من أهل قرطبة؛

[1] وصف الحميدي ابن ماء السماء بقوله: ((من فحول شعراء الأندلس، متقدم فيهم مع علمه؛ وله كتاب "أخبار شعراء الأندلس". ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم]؛ وأنه كان حيا في صفر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص: 293.

وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[1] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

---

[1] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميْلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تُسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أُخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثيرٍ من حسناته. وهي أوزان كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تُشَقُّ على سماعها مصوناتُ الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظَ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَرْكَزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرَّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرِنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 ـ 469.

أطَاعَتــكَ القلــوبُ وَلاَ عَــصِيٌّ
وَحِــزْبُ اللـــهِ حِزْبُــكَ يَــا عَــلِيٌّ
فكــلُّ مَـــنِ ادَّعَى مَعَــكَ المَعَـــالِي
كـــذُوبٌ مِثــلَ مَا كـــذبَ الــدَّعِيٌّ
أبَى لـــَكَ أنْ تُهَاضَ عـــلاَكَ عَهْـــدٌ
هِشَـــــامِيٌّ وَجَـــــدٌّ هاشَــــمِيٌّ
وَمَـــا سُمِيـــتَ بِاسْـــمِ أبيـــكَ إلاَّ
ليَحْيَـــــا بِالسَّـــمِيِّ لَـــهُ السَّـــمِيٌّ
فـــإنْ قـــالَ الفَخـــورُ أبِي فـــــلاَنٌ
فَحَسْبُـــكَ أنْ تقـــــولَ أبِي النـــبِيٌّ

ويقــول أيضــا في قصيـــدة أخــرى:
أبَسْـــلٌ عَليكَ المَاءُ حَـــتَّى يشُوبَـــهُ
دَمٌ وَالكرَى حَتَّى تقضَّ المَضَاجـــعُ
أجَـــمَّ جيَـــاداً أدمَنَ الغـــزْوُ نهْكهَـــا
فَمِنهَـــا حَسِيـــرٌ فِي الجِهَادِ وَظَالـــعُ
وَأغمِـــدْ سُيُوفاً تشتكيـــكَ جُفُونُهـــا
كمَا تشْتـــكِي نُجْلَ العُيُونِ البَرَاقِـــعُ

وَسَكِّنْ عَجَاجَ الرَّكْــضِ شَيْئاً فقلَّمَـــا

يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتَــهُ وَهوَ ناصِـــعُ

وَآنِـــسْ قُصُوراً طَالَ إيحَاشهَا بِـــهِ

فقدْ أشفقتْ مِمَّا صَنَعْــتَ المَصَانِـــعُ

وَهَلْ ضَــرَّكَ البَاغِي بسَهْمِ مَكِيــدَةٍ

وَأنتَ بَــوَاقِي عِصْمَــة اللـــهِ دَارِعُ؟

وَأيُّ يَــدٍ تنــوِي قِرَاعــكَ بَعْدَمَـــا

رَأيْنَـــا يَــدَ الجَبَـــارِ عَنــكَ تقــارِعُ؟

وقـــال راثيـــا علـــي بـــن حمـــود، ومهنئـــا لأخيـــه القاســـم بتـــوليـــه العـــرش:

صَــلى عَلَى المَــلِكِ الشَّهيدِ مَلِيكــهُ

وَسَقَــاهُ فِي ظِــلِّ الجنانِ الكوثــرُ

مَــولًى دَهَتَــهُ عَبيــدُهُ، وَغضَنفــرٌ

تركَتهُ أيْــدِي العُفــرِ وَهوَ مُعَفَــرُ

كانـــتْ تهَيَّبُـــهُ الأسُـــودُ فغالــــهُ

فِي قصْــرِهِ مُسْتضْعَــفٌ مُسْتَحْقَــرُ

لمْ يُثْـــنِ عِـــزُّ المُلكِ عَنـــهُ مَنونـــهُ

فَسَمَـــتْ لهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْـــذَرُ

ختلتــــهُ سِــــراً وَالقبَائــــلُ دُرَّعٌ

تَحْمِيـــهِ لكِــنَّ المَنايــا جُسَّــــرُ

وَلَـــوْ أنهَا رَامَتـــهُ جَهْراَ لاَنثنـــتْ

وَالبيـــضُ تقــرَعُ وَالقنــا يتكســـرُ

ثــم يكمــل:

مَــا غــابَ بـــدْرُ التــمَّ إلاَّ رَيْثمَــا

جَــلَّى الدُّجَى عنا الصَّبَاحُ الأزْهــرُ

إنْ يَهْــوِ مِنْ أفــقِ الخِلاَفــةِ نيــرٌ

يَهْــدِي السَّبيــلَ فقــدْ تــلاَهُ نيِّــرُ

بِالقاسِــمِ المَأمُونُ أفــرَخَ رَوْعنــا

فالقسْــمُ وَافٍ وَالنصيـــبُ مُوَفــرُ

ومــن شعــره في القاســم بــن حمــود:

مَا ضَيعَ اللـــهُ مُلكاً أنـــتَ رَاعِيـــهِ

وَلاَ أبَـــاحَ ذِمَـــاراً أنـــتَ حَامِيـــهِ

لِلـــهِ دَرُّكَ مِــنْ مَــولًى عَوَارِفــهُ

لمْ تبــق فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَاليهِ

تَهْدِيهِ وَالناسُ قَدْ ضَلوا كَوَاكِبَ مِــنْ

آرَائِـــهِ فِي سَمَـــاءٍ مِـــنْ مَعَاليـــهِ

مُكفــلاً برِضَـــاهُ هِمــــة أنفـــاً

تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأقْصَى فتُصميهِ

كَانــتْ خِلاَفتُنـــا فِي الغرْبِ مَظْلَمَة

كـــأنَّ أيَامَنـــــا فِيهَـــا ليَالِيـــــهِ

سِيَاسَةٌ أبْــرَأتْ بِالرِّفــقِ فِي مَهَــلٍ

دَاءَ الخِــلاَفِ وَقَــدْ أعيــا مُدَاوِيهِ

وَحِكمَةٌ خَضَعَتْ هَــامُ المُــلوكِ لهَا

عِــزًّا فلاَ حُــرَّ مَوْجُــودٌ بوَادِيـــهِ

مُؤَيــدٌ جَــاءَتِ الدُّنيَـــا إلَى يَـــدِهِ

عَفــواً وَلَبَّتــهُ مِنْ قــرْبٍ أمَانِيـــهِ

جَلَــتْ أيادِيـــهِ حَــتَّى إنَّ أنفُسَنَـــا

وَمَـــا مَلكنــــاهُ جُـــزْءٌ مِـــنْ أيَادِيـــهِ

ويقــول مادحــا يحــيى بــن عــلي بــن حمــود:

فهَــا أنــذَا يَا ابْــنَ النبــوَّةِ نافــثٌ
مِنَ القوْلِ أرْياً غَيْرَ مَا يَنفثُ الصِّــلُّ
وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلاَئِــكَ مُعــرِقٌ
تشيعــهُ مَحْــضٌ وَبيْعَتــهُ بتــلُ
ووَالَى أبِي قَيــسٌ أباكَ عَلَى العُــلاَ
فَخيَّــمَ فِي قلبِ ابنِ هِنــدٍ لهُ غِــلُّ

ومــن شعــره أيضــا:

لاَ تشْكــوَنَّ إذَا عَثــــرْ
تَ إلَى صَدِيقِكَ سُــوءَ حَالــكْ
فيُرِيــكَ ألوَانــاً مِــنَ الــْـ
إِذْلاَلِ لــمْ تَخطـــرْ ببَالـــكْ
إيــــاكَ أنْ تـــدْرِي يَميـــ
ـنــكَ مَا يَــدُورُ عَلَى شِمَالــكْ
وَاصبْــرْ عَلَى نــوَبِ الزَّمَــا
نِ وَإنْ رَمَتْ بِــكَ فِي المَهَالــِكْ
وَإلَى الــذِي أغــنَى وَأقـــ
ـنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاَحَ حَالِكْ

وهذا موشح له يقول فيه:

مَنْ وَلِي ♦ فِي أُمَّةٍ أَمْراً وَلَمْ يَعْدِلِ ♦ يُعْزَلِ ♦ إلاَّ لحَاظُ الرَّشإِ الأَكْحَلِ

جُرْتَ فِي حُكْمَكَ فِي قَتْلِيَ يَا مُسْرِفُ

فَانْصِفِ فَوَاجِبٌ أَنْ يُنْصَفَ المُنْصِفُ

وَارْأفِ فَإِنَّ هَذَا الشَوقَ لاَ يَرْأفُ

عَلِّلِ ♦ قَلَبي بذَاكَ البَارِدِ السَّلْسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بفؤادي مِنْ جَوَى مُشْعَلِ

إنما تَبْرُزُ كَيْ توقِدَ نَارَ الفِتَنْ

صَنَمَاً مُصَوَّراً فِي كلِّ شيْءٍ حَسَنْ

إنْ رَمَى لَمْ يُخطِ مِنْ دُونِ القلُوبِ الجنَنْ

كَيفَ لِي ♦ تَخَلُّصٌ مِنْ سَهْمِكَ المُرْسَلِ ♦ فَصِلِ ♦ وَاستَبْقِني حَياً وَلاَ تقتلِ

يَا سَنا الشَّمْسِ وَيَا أَبْهَى مِنَ الكوكبِ

يَا مُنَى النفسِ وَيا سُؤلِي وَيَا مَطلبِي

هَا أنا حلَّ بأعدَائكِ مَا حلَّ بي

عذَّلِي ♦ مِنْ ألَمِ الهجْرَانِ فِي مَعزَلِ ♦ وَالخَلي فِي الحُبِّ لاَ يَسْألُ عَمَنْ بلي

أنتَ قَدْ صَيرتَ بالحُسْنِ مِنَ الرُّشْدِ غَيّ

لَمْ أجدْ فِي طرَقِي حُبكِ ذنباً عَلَيّ

فَاتئِدْ وَإنْ تشأ قتلِيَ شَيْئاً فشيّ

أجمِلِ ♦ وَوَالنِي مِنْكَ يَدَا المُفْضِلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقبلِ

مَااغتذَى طرفِيَ إلاَّ بسَنا ناظرَيكْ

وَكَـــذَا فِي الــحُــبِّ مَا بي لَيْــسَ يَخْــفى عَــلــيْــكْ

وَلَـــــذا أنــشِــدُ وَالــقَــلــبُ رَهــيــنٌ لــدَيــكْ

يَــا عَــلي ♦ سَلطْتَ جَفنيْكَ عَلى مَقتــلِي ♦ فابقِ لِي قلبي وَجُدْ بالفَضــلِ يَــا مَوئِــلِي

ــ ثــم أبــو جعفــر أحمــد بــن أيــوب اللمــائي:[1] يعتبــر أبــو جعفــر اللمــائي مــن الأدبــاء والشعــراء الفحــول ببــلاد الأندلــس. وينتســب هــذا الكاتــب إلى قبيلــة لمايــة الأمازيغيــة؛ وقــد ولــي ــ في بــلاط عــلي بــن حمــود ــ خطــة الكتابــة. ويبــدو أنــه كــان يعــاني ــ في آخــر أيامــه ــ مــن مــرض ضيــق النفــس أو داء النسمــة كمــا يســمى آنئــذ؛ وقــد تــوفي في مالقــة بعــد شــدة وعــذاب[2].

---

[1] قــال ابــن بســام: ((وكــان أبــو جعفــر هــذا ــ وقتــه ــ أحــد أئمــة الكتــاب، وشهــب الآداب؛ مــن سُخِّــرت لــه فنــون البيــان، تسخيــر الجــن لسليمــان؛ وتصــرف في محاســن الكــلام، تصــرف الريــاح بالغمــام؛ طلــع مــن ثنايــاه، واقتعــد مطايــاه؛ ولــه إنشــاءات سَرِيَّــة في الدولــة الحموديــة؛ إذ كــان علــم أدبائهــا، والمُضطَلــع بأعبائهــا)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] وقــد أورد ابــن بســام قصيــدة لأبي عامــر ابــن شهيــد قالهــا ــ وهــو عــلى فــراش مرضــه المزمــن ــ عندمــا نــعي إليــه أحمــد بــن أيــوب اللمــائي جــاء فيهــا:

أمِــنْ جَنابهِــمُ النفــحُ الجَــنوبيُّ
أسْرَى فَصَاكَ بهِ فِي الغوْرِ غــارِيُّ؟
أهــدَى إلَيَّ ظلاَمــاً رَدْعَ نافِجَــةٍ
أدْمــاءَ شــقَّ بهَا الدَّأمَــاءَ هِنــدِيُّ
وَالليْــلُ قدْ قــامَ فِي أثــوَابِ نادِبــةٍ
كأنــهُ فــوقَ ظهْــرِ الأرْضِ نــوبِيُّ
والنجْــمُ تَحْسَبُــهُ قــدَّامَ تابعِــهِ
حَمَامَــةً رَامَهَــا فِي الجَــوِّ بَــازِيُّ

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثرا وشعرا؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: ((**إلا أنّي لم**

وَجَدْوَلُ الأفق يَجْرِي فِي مُنافسِهِ
مَاءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخضْرَاء فِضِيٌّ
فقلتُ وَالسُّقمُ مَنشُورٌ عَلَى جَسَدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطوِيٌّ:
أُهدَى اللمَائيُّ مِنْ أزْهارِ فِكرَتِه
نشْراً فقالَ الدُّجَى: مَرَّ اللمَائيُّ
فقِيلَ مَاتَ فقالَ الليْلُ قارَبَ ذَا
فانهَلَّ مِنْ مُقلتِي نوْءُ سِمَاكِيٌّ
وَبتُّ فرْداً أناجِي مُقلتِي شغفاً
كأنني فِي نقوبِ الدَّارِ جِنِّيٌّ
لاَ عِشتُ إنْ مُتَّ لِي يَا وَاحدِي أبَداً
وَمَوتنا وَاحِدٌ لاَ شكَّ مَرئِيٌّ
إنَّ الكريمَ إذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ
أوْدَى بهِ الوَجْدُ وَالثكلُ الطبيعِيٌّ
إنْ مُتُّ قبْلكَ لاَ تعْجَبْ فذُو أمَلٍ
قدْ حَمَّ مِنْ دُونِهِ يَوْماً حَمَامِيٌّ
أوْ مُتَّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لِي عَجَبٌ
إنَّ الكريمَ إلَى الأصْحَابِ مَنعِيٌّ
زَادَ البَلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَا
صَبْرِي فصَبْرِي عَليْكَ اليَوْمَ وَحْشِيٌّ
حَتَّى أهُمَّ بقتلِي كلَّ دَاجيَةٍ
يَا قوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قبْلُ إنسِيٌّ؟
إنِّي إلَى اللهِ مِنْ عُقبَى بُلِيتُ بهَا
جَرَى بهَا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلهِيٌّ

أجد عند تحريري هذه النُّسخة من كلامه إلاَّ بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: ((**غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَبَاً، وزمنٍ آمالي فيك صِباً، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيءٌ ظِلال وفائك، جانٍ منك ثمر فَرْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديمًا أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروَّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطَّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتَهم به أصابَ الحَدَقَ؛ وعلى الحقيقة فلساني يَقْصُرُ عن جميل أسِرُّه، ووصفِ وُدٍّ أضمِرُه)).**[2] أما شعره فمنه قوله:

قدْ قلتُ إذْ سَارَ السَّفِينُ بهِ
وَالبَيْنُ يَنهَبُ مُهْجَتِي نهْبَا

لوْ أنَّ لِي مُلكاً أصولُ بهِ
لأخَذْتُ كلَّ سَفينةٍ غصْبَا

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] نفسه، ص: 618.

وقـــال في أخــرى أيضـــا:

غــنَّى ولَلإيقــاعَ فـــو ... قَ بَيَانِ مَنطِقِــهِ بَيــانُ
وَكأنمـــا يــدُهُ فـــمٌ ... وَقَضِيبهُ فِيهَـــا لِســـانُ

زاره بعــض أصحابــه وهــو طريــح الفــراش بفعــل المــرض الــذي أودى بحياتــه؛ فحــاول بعضهــم الترويــح عليــه بغــرض التخفيــف عنــه؛ فقــال لهــم شعــرا:

رَوَّحــنِي عَائِــدِي فقلــتُ لــهُ
مَــهْ، لاَ تــزِدْنِي عَلَى الذِي أجِــدُ
أَمَــا تــرَى النــارَ وَهْيَ خامــدَةٌ
عنــدَ هبــوبِ الرِّيــاحِ تتقِــــدُ؟

وقــال يشتـكي مــن علتــه بعــد أن يئـس مــن الشفــاء:

عظمَ البَــلاَءُ فلاَ طَبيبٌ يرتـــجَى
مِنــه الشفــاءُ وَلاَ دَوَاءٌ ينجــعُ
لـــمْ يَبــقَ شَيْءٌ لمْ أعَالِجهَـــا بـــهِ
طَمَعَ الحَيَـــاةِ، وَأينَ مَنْ لاَ يَطمَـــعِ؟

"وَإذَا المَنِيــةُ أنشبــتْ أظفارَهــا
ألفيْــتَ كــلَّ تمِيمَــةٍ لاَ تنفــعُ"[1]

ولـــه هـــذه القطعـــة كذلـــك:

يا كبــدِي بِالبَيْــنِ مَــنْ أكلمَــكْ
وَيا دُمــوعَ العَيْــنِ مَنْ أسْجَمــكْ؟
وَيا فــؤَادِي كمْ تقــاسِي الهَــوَى
مُكتتمــاً عــنِّيَ، مَــا أكتمَـــكْ!
علمْتــكَ الكتــمَ أمَــا تستْــحِي
وَيْحــكَ أنْ تَكتــمَ مَــنْ علمَــكْ؟
كنــتُ أدَاوِيــكَ فــلاَ ذَنــبَ لِي
لــوْ أنــنِي أعلــمُ مَــنْ أسقمَــكْ

ولـــه هـــذه قطعـــة الـــتي يكـــون قـــد مـــدح فيهـــا عـــلي بـــن حمـــود:

طلَعــتْ طوَالعُ لِلرَّبيــعِ فأطلعَــتْ
فِي الرَّوْضِ وَرداً قبْلَ حينِ أوَانــهِ
حيــا أمِيــرَ المُؤْمِنيــنَ مُبشــراً
وَمُؤَمــلاً لِلنيــلِ مِــنْ إحسانــهِ

[1] استشهـد هنـا ببيـت أبي ذؤيـب الهـذلي.

ضَنــــتْ سَحَائبـــهُ عَليـــهِ بمَائهَـــا

فأتـــاهُ يستَسْقِيـــهِ مَـــاءَ بنانـــــهِ

دَامـــتْ لنـــا أيامـــهُ موْصُولـــــة

بِالعـــزِّ وَالتمْكِيـــنِ فِي سُلطانـــــهِ

ثـــم هـــذه القصيـــدة الـــتي يشكـــو فيهـــا نوائـــب الدهـــر:

أمسَى سَقامِي زَاجِـــرِي ومُؤنــــبِي

وَغـــدَا مَشِيبِي وَاعِظِي ومُـــؤدِّبِي

أوْهتْ خطوبُ الدَّهرِ مِنِّي عَاتِـــقِي

ثقلاً، وزَعـــزَعَ منكِبـــاهُ منكِـــبِي

وَهمَـــتْ سَحائبـــهُ عَلَيَّ فغـــادرَتْ

أرْضِي قرَارَةَ كلِّ خطبٍ مُعجِـــبِ

فأظلُّ أبصِـــرُ فيهِ مَا لمْ أحْتسِـــبْ

جـــوراً وَأقـــرَأ فيـــهِ مَا لمْ أكتـــبِ

ســـنٌ حدِيثٌ تحتَ جـــدٍّ شـــارِفٍ

وَســـوادُ رَأسٍ فـــوْقَ قلبٍ أشيـــبِ

أغـــدُو علَى بكـــرٍ لصرفِ بَناتـــهِ

وَأرُوحُ مبتنِيـــاً بأخـــرَى ثيِّـــــبِ

أفتـــضُّ مِنهَا كــلَّ يــوْمٍ عـــذْرَةَ
لاَ تشتـــهَى وَأزَفُّ مَا لمْ أخطـــبِ
يَا سَيـــدِي وَأخِي الوَفِيَّ وَمَا أخِي
منهُ إلَى قلـــبِ الإخـــاءِ بأقـــرَبِ
وَإِذَا غدَا العِلــمُ المُشـــرِّفُ أهلـــهُ
نسَبـــاً يُؤَلفنـــا فنحـــنُ بنـــو أبِ
هـــلاَّ اهتدَيتَ إلَى خِطابِ مـــرزَّإٍ
مَا بينَ أضْلاَعِ الخطـــوبِ مُغيـــبُ
لمْ يبـــقِ مِنهُ الدَّهـــرُ غيْرَ مَدَامِـــعٍ
سُفـــحٍ وَقلـــبٍ بِالسقـــامِ مُعَـــذَّبِ
أخفتـــنِيَ الأيـــامُ فِي لهَوَاتهَـــــا
وَسَجَننِي فِيهَا فَكيـــفَ شَعَـــرْتَ بِي؟
وَكتبْتَ عَنْ وُدٍّ وَقَـــدْ كتبَ الإخـــا
بَينَ النفـــوسِ صَحَائِفاً لـــمْ تكتـــبِ
بـــأرَقَّ مِنْ دَمعِ المُشـــوقِ فـــؤَادُهُ
وَأرَقَّ مِنْ ريـــقِ الحَبيبِ وَأعـــذَبِ
فظلَلـــتُ مِنهُ فِي غديـــرِ بَلاَغـــةٍ
عـــذْبٍ وَمُلتفِّ الحَدَائـــقِ مُعْشـــبِ

كرُمــتْ مَغارِسهُ فأوْرَقَ فرْعــهُ
علِمــاً وَأثمَــرَ بِالكــلاَمِ الطيــبِ
صُبُـــحٌ تــدَرَّعَ مِنْ سَوَادِ مِــدَادِهِ
لَيــلاً كفِعْــلِ الزَّائــرِ المُترَقــبِ
خفِيَــتْ مَعَانِيــهِ عَــلَى أوْهامِنــا
فَالفكــرُ بَيْــنَ مُصــدّقٍ وَمُكــذِّبِ
طلعــتْ كوَاكِبــهُ ولَمَّــا تطلِــعْ
وَغرَبــنَ فِيــهِ لنــا لمَّــا تغــرُبِ
أنَا مُذْنــبٌ لاَ شكَّ إذْ لمْ أستطِــعْ
رَدَّ الجَــوَابِ وَأنتَ غيرُ المُذْنــبِ
حَمَلتــهُ مِنْ طيبِ الإخــاءِ مَحَبــة
فيكــمْ وَإخــلاَصٌ لكــمْ فتطيَّــبِ
وبَعَثْــتُ مَاءَ الوَردِ فِيــهِ سَائِغــاً
عَذْبــاً لذَائقــهِ زلالاً   فاشــرَبِ
أذْكَى مِنَ المِسْكِ الفتيــقِ نسيمُــهُ
أرَجــاً وَأصْفَى مِنْ لُعابِ الجنــدُبِ

ـ ثم أبو بكر عبد الله بن حجاج الغافقي الإشبيلي: وهو ـ كما يستوحى من اسمه ـ من أهل إشبيلية. هذا وينتسب ابن حجاج إلى قبيلة غافق القحطانية العربية. قال عنه صاحب المغرب **((ذكر الحجاري: "أنه شاعر بعيد الصوت، معدود في شعراء المعتضد؛ وكان قد هجر وطنه، وانتبذ إلى صاحب الجزيرة الخضراء محمد بن القاسم بن حمود... فقال له وزيره: أسأل ابن الخليفة: هل أنت من بني حجاج أصحاب السيرة بإشبيلية؟ فقال: لو كنت منهم طلبت السيف؛ ولم أطلب بالشعر؛ فقال ابن حمود: لا فُضَّ فوك! يا شَدَّ ما امْتَعضَ لأعْيانِ بلده)).**[1] ويكون ابن حجاج هذا قد توفي بعد سنة 430هـ؛ لأنه تقابل في هذه السنة مع الحميدي؛ الذي قال إنه سمع منه أشعارا كثيرة؛ عندما التقى به في السنة المذكورة.[2] ومن شعره هذه الأبيات التي ذكرها الحميدي:

لَما كتمْتُ الحُبَّ لاَ عَنْ قِلَّى

وَلَمْ أجِدْ إلاَّ البُكا وَالعَوِيلْ

نادَيتُ وَالقلبُ بهِ مُغْرَمٌ

يا حَسْبِيَ اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلْ

---

[1] المغرب، ج: 1، ص ص: 265 ـ 266.

[2] جذوة المقتبس، ص: 261.

وأورد لــه الحجــاري هــذه الأبيــات:

ألاَ أيها الــوَادِي الذِي رَفَّ ظِلــهُ

وَفاحَــتْ خزَاماهُ وَغــرَّدَ طائِــرُهْ

أتذْكُــرُ أيامِي بدَوْحِــكَ وَالحِــمَى

يبارِكنــا مِنــهُ بِجزْعِــك زَائــرهْ

وَقدْ رَقَّ نَسْــجُ العَتبِ بينِي وَبَيْنــهُ

وَمَا زَاد مِنا الحبُّ عفتْ سَرَائِــرُهْ

أمــا المقــري فقــد أورد لــه عــدة مقطوعــات؛ منهــا هــذا المقطــع مــن قصيــدة مــدح بهــا محمــد بــن القاســم ابــن حمــود:

يقولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بابــلٍ

وَمَا السحْرُ إلاَّ مَا أرَتــكَ مَحَاجــرُهْ

وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انثنَى تَحْتَ برْدِهِ

وَمَا الدِّعصُ إلاَّ مَا طوَتــهُ مَــآزِرُهْ

وَمَا الــدُّرُّ إلاَّ ثغــرُهُ وَكلاَمــــهُ

وَمَا الليْــلُ إلاَّ صَدْغــهُ وَغدَائــرُهْ

وأرد لــه أيضــا المقــري مقاطــع صغيــرة مــن الشعــر الــذي قالــه عندمــا كــان في إشبيليــة. لا داعي لإثباتهــا في هــذا المجــال.

ــ ثـم أبـو محمد غانم بن وليـد المخـزومي المالـقي:[1]

وينتسب هذا الأديب العالم إلى بني مخزوم من قريش؛ وهو من أهل مالقة وعلمائها النابهين. قال فيه الحميدي: ((**فقيهٌ، مدرسٌ، وأستاذ في الآداب وفنونها، مجوِّد؛ مع فضل وحسن طريقة**)).[2] ووردت له بعض المقطع الشعرية في الذخيرة، وبعض المواضع المتفرقة من نفح الطيب، وفي جذوة المقتبس، والصلة. ولغانم بن وليد رسائل نثرية عديدة أوردها ابن بسام؛ منها على سبيل المثال هذه المقطوعة النثرية التي صاغها لما تولى إدريس العالي الخلافة. وفي النص إشارة إلى الأحداث التي تكون قد وقعت في مالقة؛ حين حاول الفتى الصقلبي نجا بمساعدة السطيفي اغتصاب الحكم. قال غانم: ((**ولم يترُك المتطول علينا عزَّ وجههُ بالهدى أمة محمَّدٍ عليه السلامُ سدى؛ بل نظمَ شملها بإمامٍ عادلٍ تجتمعُ إليه، وتعوِّلُ عليه، تتوارثهُ كابراً عن كابرٍ، وتتلقاهُ غابراً عن غابرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللهُ للأكمَام الهاشميّ، والملك الفاطميّ، والفرع العلويّ، إدريس العالي بالله بن يحيى المعتلي بالله بن علي الناصر**

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((قد بذ ــ وقته ــ أهل ذلك الإقليم، في أنواع التعاليم؛ فَرْدَ عصره ونسيج وحده في تناهي جده؛ متفننا جرى في ميدان السَّبْق، وفقيها قرطس أغراض الحق؛ وكان في هذا الباب الذي ولجنا فيه من أهل الرَّوية والبديه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ــ 854.

[2] جذوة المقتبس، ص: 325.

لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فقام العالي بالله بخلافة المغربيين، واضطلع بملك العدوتين؛ ولما آن أوانُ إمامته، حانَ من عدوّه حينُ قيامته. وكان مقتلُ العبد الغادر ـ وكافرُ النعْمَة كالكافر ـ في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، وفي عشرين ليلةٍ خلتْ من كانون. فانجلتْ سمومُ الشتاء بانجلائه، وانقضت أيام الشؤمِ بانقضائه، وكان عقبَ الشهر في استقبال شهر رجَبَ الشهر الأصمّ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قعْقعَة السِّلاح؛ وكأنَّ المثلَ إنما جرى في مضمار، على مفرق الليل والنهار، وأرى الناسَ مخايلَ السعدِ والإيناس، وهو قولهم: عِشْ رجباً ترَ عجباً؛ وكأن هذا العجبُ آخِرَ يومٍ من الليالي، وقامَتْ فيه دولةُ هذا الملكِ العاليِ، والشمسُ تأخذُ من قعرِ الفلكِ في الصعود، وتؤذنُ بجري الماء في العود؛ وتترقَّى بالعلم في دَرَجِ السعود:

وَاسْتَقْبَلَ المُلكَ إمَامُ الهُدَى
فِي أرْبَعٍ بَعْدَ ثلاَثِينَا
خِلاَفَةُ العَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ
وَهوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عِشْرِينَا

إنِّي لأرْجُــو يَا إمَــامَ الهــدَى

أنْ تمْلــكَ المُلـــــكَ ثمَانِينَـــــا

لاَ رَحِــمَ اللـــهُ امْرُءاً لَمْ يَقــلْ

عِنــدَ دُعَــائِي لــكَ آمِينَـــــا

فسفــرت الدنيــا قناعهــا فتيــة، وبلغــت النفــوسُ بخلافتــه الأمنيــة، وانثالــتْ عليــه بيعــاتُ الأمصــار، وأمــتْ حضرتــه الرُّســلُ مــن جميــع الأقطــار، وبــدأ بالفضــل، وصــدع بالعــدل؛ فأحيــا مآثــرَ آبائــهِ الطاهريــن)). [1]

وفي رسالــة لــه بعــث بهــا إلى أبي الحســن الحصــريّ قــال: ((مــا أفصــحَ لسانــك، وأفســحَ ميدانــك، **وأوضــحَ بيانــك، وأرجــحَ ميزانــك، وأنــورَ صباحــك، وأزهــرَ مصباحــك؛ أيهــا السابــق المتمهــل، في ميــدان النّبــل، والسَّامِــقُ المتطــوِّلُ بفضائــلِ الذّكــاء والفضــل؛ أرحتــني مــن غــلِّ الهــمِّ، فأزهدتــني أريحيّــة، وأزَحتــني عــن ظــلّ الغــمِّ، فلاحــتْ لي شمــسُ الأمنيــة، بمــا أطلعتــه علــيّ، فنفذتــه مكارمُــك إليّ. فقلــت: أعَصْــرُ الشبــابِ رَجَــع، أم كوكــبُ السَّعــدِ طَلَــعَ، أم بأرقُ الإقبــال لمــع؟ كــلاَّ واللــه؛ إنهــا لمكرُمَــةٌ فهريــة، أهدتهــا نفــسٌ سنيــة، وهمَّــة عليَّــة. إن قلــتُ الوشيُ الصنعــانيّ فقــد نقصتهــا، أو الدّيبــاجُ الخســروانيّ فقــد بخستُهــا. بــلى**

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 861 ــ 862.

والله، أرتني زهرَ الرَّبيع في غيرِ أوانه، وحُسنَ الصَّنيع على عَدَمه في أهلِ زمانِه؛ لمحتُ منه عِقد اللآل، يبقى على أخرَى الليَال؛ فأنت واحدُ البلاغة الذي لا يجارَى، وفارسُ الفصاحة الذي لا يُبارَى؛ وقد اعتقدتُ ما به أشرت، وإياه اعتمدت، لو لاح لي في أفقِ النقلةِ صباح، أو استقلّ بي في طرُق الرّحلة جناح.

وكم حاولتُ مسالمة النوائب بانقباضي، ومداراة الدُّنيا بتركي لأغراضِها وإعراضي؛ فإذا الانقباضُ قد حصَّلني في جملةِ القَبض، والتركُ للأغراض قد جعلني للنوَب كالغرض؛ ولا سلاحَ إلاَّ الدُّعاء إلى الله تعالى في الصَّلاح، ولا جناح إلاَّ التمني لمن يقولُ ما عليك جُناح؛ فسبحان من قدرَ أن أكونَ لناب النوَب حرباً، وتكونَ عليّ أيامُ الزمان إلباً، أصلى بنار المصائب السُّود؛ كأنّي ممَّا أنا باكٍ منه محسود. أستغفرُ الله! فقد حمي صدرِي حتى غلى مِرْجَله، وضاق مجالُ فكرِي حتى اتَّسعَ في الشكوى مقولَه. ولو أني سلمتُ لمواقع الأقدار، وعلمتُ أنه ليس على القدَر اختيار، ورضيتُ بما يأتي به الليلُ والنهار، وتَيَقنتُ أنَّ خُلقَ الزمانِ عداوة الأحرار؛ لأرحتُ قلباً يتقلبُ في جمرِ الأسى، وأذكرتُ لبًّا قد نسي الاقتداء بالأسى)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ــ 857.

ومـــن المقطوعـــات الشعريـــة لغانـــم بـــن وليـــد؛ هـــذه الأبيـــات الـــتي قالهـــا لمـــا دخـــل عـــلى مجلـــس باديـــس ابـــن حبـــوس؛ فوســـع لـــه كي يجلـــس عـــلى رغـــم الضيـــق فقـــال:

صَيـــرْ فـــؤَادَكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلـــة

سَـــمُّ الخِيـــاطِ مَجَـــالٌ لِلحَبِيبَيْـــنِ

وَلاَ تسَامِـــحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشَـــرَةٍ

فقلمَـــا تسِـــعُ الدنيَـــا بَغِيضَيْـــنِ

ولـــه أيضـــا:

الصَّبْـــرُ أَوْلَى بِوقـــار الفَـــتَى

مِنْ قلَـــقٍ يَهْتِـــكُ سِترَ الوَقَـــارْ

مَنْ لَـــزِمَ الصَّبْـــرَ عَلَى حَالِـــهِ

كَـــانَ عَـــلَى أيامِـــهِ بِالخيَـــارْ

وممـــا قالـــه في العـــالي باللـــه إدريـــس بـــن يحـــيى ابـــن حمـــود:

لَوْلاَ التَّحَـــرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّـــاكِ

حُيِّيـــتِ عَنـــا وَحُيِّينـــا بِمَحْيَـــاكِ

هَذا اللثـــامُ غَمَـــامٌ مَا يُبينُ هُـــدًى

حُـــطِّي اللثـــامَ فَليسَ البَـــدْرُ إلاَّكِ

لمَّا هَدَيْـــتِ إلَى نَعْمَـــانَ سَافِـــرَةً
كانتْ هدَايَتُنـــا مِنْ بَعْضِ نُعْمَـــاكِ

ثم يضيف:

أوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلوعُ فَثَـمَّ البُرْءُ لِلشَّـــاكِي

ويقــول في قصيــدة أخــرى:

يَا غَرِيبـــاً بِحُسْنِـــهِ	قِصَّتِي فِيكَ أغْــرَبُ
أنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي	وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلُــمْ فِي مِــدَادِهِ	بدَمِ القلــبِ يُكتَــبُ
إنَّ إدْرِيــسَ مَاجِــدٌ	لِلعُلاَ فِيــهِ مَذهَــبُ
جَــدُّهُ خَاتَمُ الهُــدَى	وَعَــلِيٌّ لـــــهُ أبُ
فَهْــوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَــعٌ	وَهْوَ لِلْمَجْدِ مَغــرِبُ

ويقــول دولـــة إدريــس العـــالي:

ضَحِــكَ الزَّمَانُ إلَيْكَ بَعْدَ عُبُــوس
وَنَـــفَى دُجَى الإيحَـــاشِ بِالتأنِيـــسِ

فَأدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَــكِ المُــنَى
وَتَطُوفُ نَحْوكَ مِنْ أكــفِّ شُمُــوسِ
فِي رَوضَةٍ تُحْيِي النُّفــُوسَ كَأَنَّمَــا
بَاتَــتْ تَنَفــسُ عَنْ عُــلاَ إدْرِيــسِ
مَلِــكٌ أقَــامَ اللــهُ دَوْلَــةَ مُلكِــــهِ
فَكَبَــا مِنَ الأعْـدَاءِ كـلُّ رَئِيــسِ
مِنْ دَوْحَةِ الــوَحْيِ الــَّتِي بِسُمُوِّهَــا
دَرَسَــتْ مَعَانِي الكفــرِ أيَّ دُرُوسِ

وقـــال في رثـــاء أخويـــه:

يَــا دَمْــعُ لاَ تخــذُلْ وَكنْ مُسْعِــداً
لاَ تَخــشَ مِنْ صَبْرِيَ أنْ يَمْنَعَــكْ
أخٌ غرِيــــقٌ وأخٌ فِي الثــــرَى
وَترتــجِي السَّلــوةَ مَــا أطمَعَــكْ!
إنَّ جُمــودَ العَيــنِ خــوْفَ العِــدَا
وَرِقبَــةَ الحُسَّــادِ لــنْ يَنفعَــــكْ
يَــا عُمَــراً أعْمَــرْتَ قلــبِي أسىً
وَدَّعَ صَبَــرِي مِثلمَــــا وَدَّعَــــكْ

رُزِئــتُ فِي الدُّنيَــا يَدَيْ نصْــرَتِي

يَــا دَهــرُ تبــاً لــكَ مَــا أفجعــكْ

وقــال واصفــا وادي مالقــة في موضـــع يســـمى ربــوة العقــاب:

ضحِــك الزَّمَانُ بِحسنِــهِ وَبهَائــهِ

كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طولِ بُكائِــهِ

وكَــأنَّ إقبَــالَ الرَّبيــعِ بوَصلِــهِ

وَصْلُ الحَبيبِ أتــاكَ بَعْدَ جَفائِــهِ

وكَأنمَــا وَادِي العُقــابِ عَشيــة

مُسْتمْطِــرٌ دَمْعِي بِجرْيَــةِ مَائــهِ

وكَأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الرُّبَى

رَشحُ الخدُودِ بَــدَا بنــارِ حيائــهِ

وكــان يُحْــيي جلســات الأنــس والطــرب في قصــر الملــك العــالي إدريــس بــن يحــيى مطــرب اسمــه المهــدوي؛ فطلــب يومــا مــن غانــم تذييــل بيــت مــن الشعــر كــان يحفظــه؛ حــتى يتســنى لــه الغنــاء بــه؛ مــع التذييــل. والبيــت الــذي يحفظــه المهــدوي هــو:

يَا نائِبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً
وَالبــدْرُ لــوْ كلفــوهُ ذَاكَ لــمْ ينــبِ

فأكمــل غانــم بــن وليــد بديهــة:

فِي غــرَّةِ الملكِ العَــالِي وَمَنظــرِهِ
بــدْرٌ يُعطــلُ نورَ السبعةِ الشهـــبِ
نــرَى محيــاهُ فِي ليــلٍ فيخبرُنـــا
عنِ الحَقِيقــةِ أنَّ الشمــسَ لمْ تغــبِ

وحــدث أيضــا في بعــض جلســات الأنــس والسمــر والغنــاء؛ الــتي كــان يحييهــا المغــني محمــد بــن الحمــاميّ أن طلــب الملــك إدريــس مــن غانــم تذييــل بيــت ابــن المعتــز:

هــلْ يُزِيــلُ البَيْــنَ مُحْتــالُ
أنْ غــدَتْ لِلبَيْــنِ أجْمَـــالُ

فأكمــل غانــم قائــلا:

إنمــا العَــالي إمَــامُ هـــدًى
حَلِيَــتْ فِي عَصْــرِهِ الحَـــالُ
مَلِـــكٌ إقبَــــالُ دَوْلتـــهِ
لِـــذَوِي الأفهَــامِ إقبَـــالُ

قــلْ لِمَتنْ أبــدَتْ مَطَالبــــهُ

رَاحَتَـــاهُ الجــــاهُ وَالمَـــــالُ[1]

ـ وأبــو عبــد اللـــه محمــد بـــن الســرّاج المالـــقي: لـم يتـم التعـرف عـلى أصـل نسبـه الأول؛ إذ أحجمـت المصـادر المتوفـرة عـن الإشـارة إلى ذلـك؛ ولـم تذكـر سـوى أنـه مـن أهـل مالقـة[2]. أمـا ابـن بسـام فقـد نقـل مقطوعـات عديـدة مـن شعـره؛ ولكنـه لـم يشـر إلى ترجمـة حياتـه؛ وكـل مـا قـال فيـه: ((**محسـنٌ في**

---

[1] وممـا حكـاه غانـم عـن مجالـس السمـر الـتي تقـام بقصـر الملـك إدريـس قولـه: ((وحضـرتُ مجلسـهُ أيضـاً فتغـنَّى الحمـاميُّ بشعـرٍ محـدثٍ أولـه:

إذَا بَلغتِـني يَـا نـا ... قـتِي المَسْـمِيَّ إدْريسـا

فكـأنَّ العـالي باللـهِ استحسـنَ الحُـلـةَ ولـم يـرضَ قولـه "المسـمـيّ"؛ وإنمـا هـو المسـمِّـي أو المُـسـمَـى مـن سمّـيت أو أسميـت؛ ولا يُـقـالُ مـن التسميـة سمـوتُ ولا سميـت؛ ولـو قـال "المُسـمَىٍ بإدريسـا" لصـحَّ الـوزنُ والكـلام؛ فأطـرَقَ قليـلاً ـ أيـده اللـه ـ ثـم قـال: للمُـغـنـي: "أعِـدِ الصـوتَ؛ قـل:

إذَا ضَاقـتْ بكَ الدُّنيَـا ... فَعَـرِّجْ نحـوَ إدْرِيسَـا

إذَا لاَقيتَـــهُ تلـــقَى ... رَئيسـاً ليْسَ مَرْءوسَـا

وَمَـنْ عَزَمَاتُـهُ تنـفِي ... عـنِ الأوْطَـانِ إبْليسـا

إمَـامٌ ماجـدٌ ملـكٌ ... يزيـلُ الغـمَّ وَالبُؤسَـا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

[2] قالـه عنـه الحميـدي مثـلا: ((محمـد بـن السـرّاج المالـقي: منسـوب إلى مالقـة؛ بلـد مـن بـلاد الأندلـس؛ عـلى ساحـل المَجَـاز الـذي يقـال لـه الزُّقـاق؛ لـم يقـع لي اسـم أبيـه؛ شاعـر أديـب مشهـور؛ رأيـت لـه أشعـارا في ذي الوزارتيـن أبي جعفـر أحمـدِ بـن بَقنـة وزيـر دولـة العلوييِّـن مـن بـني حمـود؛ وذكـره أبـو عامـر بـن شُهَيْـد مفضِّـلا لـه؛ وأنشـد ممـا استحسـن مـن شعـره:

وكَـمْ عَنَّ يَوْم النحْـرِ مِنْ نَحْـرِ شَـادِنٍ

لِعيـنِي بِأطـوَاق الجمـالِ مُطـوَّق)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

أهــل عصــره مَعــدود، وشاعِــرُ بــني حَمُّــود؛ ولـــه فيهــم غيــرُ مـــا قصيــد، ومقطوعــاتٌ في النَّسيــب؛ وجدتهـــا بخــطّ الأديــب أبي عــليّ الحســن بــن الغليــظ مــن أفــق مالقـــة أيضـــا؛ صاحبــه الكثيــر الاتصــالِ بــه والمُنادمـــةِ لـــه)).[1] وكمــا هــو واضــح؛ فشعــر ابــن الســراج هــذا تغــب عليــه نزعــة الوصــف، وحــب الطبيعــة، والغــرق في المجــون. وهــذه بعــض المقاطــع المختــارة مــن الذخيــرة والمغــرب ونفــح الطيــب. فممــا قالــه عنــد سماعــه لهــزار؛ وهــو ذلــك الطائــر المسمى في بــلاد المغــرب والأندلــس بــأمِّ الحَسَــن[2]:

وَمسْمِعَـــةٍ تغنينـــا ارتجـــالاَ

وَتصْحبنـــا بنغمتهَـــا دَلاَلاَ

وَبينَ أكفنـــا خمـــرٌ وَمـــاءٌ

إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَـــالاَ

فإنْ شاءَتْ سقيناهـــا مدَامـــاً

وإنْ شـــاءَتْ سقيناهـــا زُلاَلاَ

وَلوْ سُقيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ

لَكـــانَ لِحســـنِ منطِقِهَا حَلاَلاَ

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ــ 871.

[2] ثمــة قــول يــرى أن أم الحســن هي الشحــرور والعندليــب والبلبــل.

ويقـول أيضـا:

وَمُسمِعَةٍ غنتْ فهَاجــتْ لنا هــوًى
جنينا به مِنها ثمَــارَ المنَى جنيــا
دَعوْتُ لَهَا سُقيَا، فمَا استكمَلَ الرِّضَا
دُعائِي لها حَتى سَقاها الحَيا سَقيَــا
وَكأسٍ علَى طِيبِ استمَاعِي لِصَوتِها
شربَتُ، وَدَمعُ المُزْنْ يُسعدُنِي جرْيا

ثـم يقـول:

كفَي حزناً أنِّي أرَى الحسنَ ممكِنــاً
وَلستُ أرَى لِي فيهِ أمْراً وَلاَ نهيــا
وَلوْ تعــدِلُ الأيــامُ فِي بذلِ خطــةٍ
لَمَا كنتُ فِي السُّفلَى وَغَيْرِيَ فِي العُليا

وممـا قالــه في ديـك صــدح مــع السحـر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أنسْنا بصَوتــهِ
وَقد بانَ فِي وَجهِ الظلاَم شحــوبُ
دَعــا مِنْ بعِيــدٍ صَباحاً فأجابــهُ
يُخبرُنــا أنَّ الصبــاحَ قــــرِيبُ

عَلَيَّ لــهُ ــ لوْ كنتُ أملكُ أمــرَهُ
حياةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمـــانِ تطِيــبُ

ولـــه كذلـــك:

رَعَى اللـــهُ فِتيَانـــاً أنسْتُ بقرْبهــمْ
عَلَى جَــدْوَلٍ لِلمـــاءِ فِيـــهِ خريــرُ
أقمنا بهَا يَوْمينِ فِي خفضِ عِيشَـــةٍ
وَلاَ عيـــشَ إلاَّ قهــوَةٌ وَغدِيــــرُ
تـــدُورُ القــوَافِي بَيننـــا نستحِثهـــا
وكـــأسُ الحميا بِالســرُورِ تـــدُورُ
وَفِي الشجرَاتِ الخضرِ مِنهُ رَقِيقـــة
لنغمتِهَـــا بَيْـــنَ الضُّلـــوعِ هدِيــرُ
إذَا مَا تغنـــتْ فوقنـــا قلـــتُ قيْنـــة
تلاَهـــا بصَـــوْتٍ مُثلثـــانِ وَزِيـــرُ
سَبَتنِي بِصَوْتٍ لوْ يُبـــاعُ اشترَيتـــهُ
بمَا مَـــرَّ مِنْ عمـــرِي وَذَاكَ يسيـــرُ

ــ ثـم أبـو عـلي الحسـن بـن الغليـظ المالـقي: كـان ملازمـا لزميلـه الشاعـر ابـن السـراج المالـقي؛ فهمـا وجهيـن لعملـة واحـدة كمـا يقـال. والمصـادر

التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت – في سياق واحد – عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ – في أغلب الأحيان – يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يا خليلاً صَفَا وَكَدَّرَ يوْمِي

هل إلَى الطيبِ فِي غدٍ مِنْ سبيلِ؟

لوْ ترانِي أسارِقُ اللحظَ خِلي

وَأسقِّي مِنْ رِيقهِ المعسولِ

لتمَنيــتَ أنْ تــرَى "حسُــنَ الــورَ
دِ" [1] تغنيــكَ بِالغنــاءِ النبيـــلِ
يا خلِيــلاً مِثالــهُ نصْــبَ عيــنِي
لــوْ خلونـــا إذَنْ شفيــتُ غليــلِي

وقــال واصفــا جلســة مــن جلساتهمــا في الطبيعــة الخلابــة؛ محــاولا بذلــك تحريــك صديقــه ابــن ســراج، واستفــزازه لــكي يصــف ذلــك الموضــع الجميــل:

شرِبنـــا علَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ
خرِيــرُ دُموعِي عِند رُؤْيةِ أزْهــرِ [2]
حلفــتُ بعينيهَا لقــدْ سَفكــتُ دَمِي
بأطـــرَافِ فتــانِ وَألحـــاظِ جــؤذرِ

ثــم أعــاد إنشــاد صــدر البيــت الأول؛ بغــرض تحريــك صديقــه ابــن الســراج:

شرِبنـــا عَــلَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ

---

[1] حُسُـــن الـــوَرْد: جاريـــة يحبهـــا ابـــن الســـراج.
[2] أزْهَـــرُ جاريـــة لبعـــض أصدقائهمـــا كـــان يهواهـــا ابـــن الســـراج.

فقـــال عـــلى الفـــور:

بكـــاءُ محـــبٍّ بانَ عنـــه حبيـــبُ

فمنْ كانَ مشغوفـــاً كئيبـــاً بإلفـــهِ

فـــإنِّي مشغـــوفٌ بـــهِ وكَئيـــبُ

ومـــن المقاطـــع الشعريـــة الـــتي نسبهـــا ابـــن بســـام إلى ابـــن الغليـــظ؛ بغـــرض استفـــزاز ابـــن الســـراج:

بـــدَا الوَرْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضـــاً

يذَكـــرُنِي مَن اسمهُ حســـنُ الـــوَرْدِ

يذَكـــرُ أيامـــاً نعمنـــا بطِيبهـــا

ورَشف رُضاب طَعمهُ حَسنُ الوَرْدِ

فدَعنِي وَلاَ تلـــحَ عَلَى الحبِّ أهلَـــهُ

فَلوْ كُنت تدْرِي لَمْ تلمْنِي عَلى وَجدِي

فقـــال:

ولَما تبـــدَّى الوَرْدُ فـــوقَ غصُونـــهِ

وَذَكرنِي بِالـــوَرْدِ فِي صَفحةِ الخـــدِّ

ذَكـــرْت به منْ خـــدُّهُ لِيَ رَوْضـــة

تهيمُ بها مَن حسنِها رَوْضةُ الـــوَرْدِ

فقلتُ لِمنْ عهدِي لــهُ مِثــلُ عهــدِهِ

سَقاكَ الحَيا مِنْ صَاحِبٍ حافِظِ العهدِ

وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيبِ ذِكرِها

فــإنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكــمْ وَحــدِي

وكتــب إلى ابــن الســراج معتــذرا عــن تخلفــه عــن موعــد تواعــدا عليــه:

يــا صَدِيقــاً وِدَادُهُ مَا يرِيــمُ

وَخليــلاً إخــاؤُهُ لِي يــــدُومُ

جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرْســاً

مَنْ لــهُ عِندَنــا ذِمــامٌ قدِيــمُ

وَهوَ غُسٌ لاَ تأتِهِ خاوِيَ البطــْ

ــنِ فإنَّ الغــدَاءَ فِيــهِ نسِيــمُ

وكتــب إلى ابــن الســراج ــ أيضــا ــ بعــد عودتــه مــن سفــر متعــب؛ رافــق فيــه أناســا لــم يرتــح لرفقتهــم:

يا مَنْ أقلبُ طــرفِي فِي مَحاسِنِــهِ

فــلاَ أرَى مِثلهُ فِي النــاسِ إنسَانــا

لَوْ كُنتَ تَعلــمُ مَا لاَقَيتُ بَعْــدَكَ ما
شَرِبتَ كَأساً وَلاَ استَحْسَنتَ رَيحَانــا

فأجابــه بقولـــه:

يا مَــنْ إذَا سقتنِي الـــرَّاحَ رَاحتــهُ
أهــدَتْ إلَيَّ بِها رُوحــاً وَريحانــا
مَنْ لَمْ يَكنْ فِي صَبَاحِ السَّبتِ يَأخُذها
فَلَيسَ عِندِي بِحُكمِ الظرْفِ إنْسَانــا
فَكنْ عَلَى حُسْنِ هَذَا اليوْمِ مُصْطَبِحاً
مُؤَخــراً حسنــاً فِيــهِ وَحسانـــا
وَفِي البَسَاتِينِ إنْ ضَاقَ المَحَــلُّ بِنــا
مَندُوحَة لاَ عَدمْنــا الدَّهــرَ بُسْتانــا

ـ ثــم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القِبذَاقِي الأشبــوني:[1]
لــم يكــن ابــن مقانــا مــن المقيميــن في مالقــة؛ ولكنــه زار بــلاط الخليفــة العــالي إدريــس بــن يحــيى؛ خــلال تجوالــه في بــلاد الأندلــس؛ أيــن مدحــه كمــا مــدح بعــض الأمــراء في تلــك الربــوع. هــذا وقــد كتــب الحميــدي اسمــه هكــذا: **((عبــد الرحمــن بــن مقنــاة**

---

[1] **قــال فيــه ابــن بســام: ((مــن شعــراء غربنــا المشاهيــر؛ ولــه شعــر يُعْــرِبُ عــن أدب غزيــر؛ تصــرف فيــه تصــرف المطبوعيــن المجيديــن؛ في عنفــوان شبابــه وابتــداء حالــه، ثــم تراجــع طبعــه عنــد اكتهالــه)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.**

البطليــوسي؛ أبــو زيــد)).[1] وقــال إنــه شاعــر مشهــور؛ ثــم أورد لـــه هــذا القطعــة الشعريـــة:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ ناءٍ
كــأنَّ مــلاَءَهُ وَشْيٌ مُعضــدْ
خرَقنــا دُونهُ أحشــاءَ خــرْقٍ
كــأنَّ سرَاتــهُ جيــشٌ مُــزَرَّدْ
وَقدْ نشــرَ الصَّباحُ رِدَاءَ نــورٍ
عَلَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهرِ المُنضــدْ
كــأنَّ الطــلَّ مُنتشِــراً عَليــهِ
بــرَادَة فِضةٍ فِي الجــوِّ تبــرَدْ
كــأنَّ غدِيــرَهُ مــرْآة قيــنٍ
جلاَهَا الصَّقلُ أوْ صَرْحٌ مُمَــرّدْ
إذَا طربــتْ عَليهِ الطيرُ غنــتْ
لإسْحــاقٍ وَزِرْيَــابٍ وَمَعبــدْ

---

[1] جــذوة المقتبــس، ص: 279.

أما ابن بسام فقد نقل عن الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري قوله: ((**كان أبو زيد ابن مقانا قد انصرف شيخا إلى وطنه عندنا؛ بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة؛ قال: فمررت به يوما بقريته التي تدعى بالقِبذَاق من ساحل شِنترة؛ وبيده مزبرة** [أداة لقطع الأشجار]؛ **فلما رأيته ملت إليه ومال إلي، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حراثٍ يحرثُ بين يديه**)).[1] ويبدو أن ابن مقانا كان لا يسمع جيدا؛ إذ وصف نفسه بالصمم في هذا البيت:

سمِعتُ الكنكَ يَصْرُخُ فِي الرَّبيعِ
عَلى مَا بِي مِنَ الصَّمِمِ الطبيعِي

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي حظيت بانتشار واسع في المغرب والأندلس؛ وهي التي قال فيها ابن بسام: ((**وله القصيدة المشهورة في ابن حمود؛ يتداول القوّالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها، وسلامتها**)).[2] ومما حكاه المقري بخصوص هذه القصيدة قوله: ((**وقد كان بنو حمود من ولد إدريس العَلوي؛ الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا**

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.

[2] نفسه، مج: 2، ص: 791.

حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[1] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

ألبَرقٍ لائحٍ مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بِالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافُهُ عَارِيَة
كَمَخارِيقَ بِأيدِي اللاَّعِبِينْ
ولِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وحَنِينْ
ولَقلبِي زَفَرَاتٌ وَأنِينْ
وَأنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلتِي
وَيْكِ لاَ أسْمَعُ قوْلَ العَاذِلِينْ
عَيَّرَتنِي بِسَقامٍ وَضَنًى
إنَّ هَذيْنِ لزَيْنُ العَاشِقِينْ

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.

إلى أن يقــول:

وكـــأنَّ الطـــلَّ مِسْـــكٌ فِي الثـــرَى
وَكـــأنَّ النـــورَ دُرٌّ فِي الغصُـــونْ
وَالنـــدَى يَقطـــرُ مِـــنْ نرْجَسِـــهِ
كدُمُـــــوعٍ أسْبلتهُـــــنَّ الجُفـــــونْ
وَالثريَـــا قـــدْ علـــتْ فِي أفقِهَـــا
كقضِيـــبٍ زَاهِـــرٍ مِـــنْ يَاسَمِيـــنْ
وَانْبـــرَى جُنـــْحُ الدُّجَى عَن أفقـــهِ
كَغـــرَابٍ طـــارَ عَنْ بَيضٍ كَنِيـــنْ
وَكـــأنَّ الشَّمْـــسَ لمـــا أشرَقـــتْ
فَانثنـــتْ عَنْهَـــا عُيـــونُ النَّاظِريـــنْ
وَجْـــهُ إدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَـــلِي
بْـــنِ حَمُّـــودٍ أمِيـــرِ المُؤمِنيـــــنْ
خـــطَّ بِالمِسْـــكِ عَـــلَى أبوَابـــــهِ
ادْخلوهَـــــا بِسَـــــلاَمٍ آمِنِيـــــنْ
وَينـــــادِي الجـــــودُ فِي آفاقـــــهِ
يَمِّمُـــوا قَصْـــرَ أمِيـــرِ المُسْلِميـــنْ

مَلِــــكٌ ذُو هَيبَـــةٍ لكِنَــــهُ
خاشِــــعٌ لِلـــهِ رَبِّ العالمِيـــــنْ
وَإِذَا مَـــا رُفِعــــتْ رَاياتـــــهُ
خفقَــتْ بَيــنَ جَنَــاحَيْ جَبْرَئِيــنْ
وَإِذَا أشكــلَ خطــبٌ مُعضِــــلٌ
صَـدَعَ الشـكَّ بمِصبْــاحِ اليَقِيــنْ
وَإِذَا رَاهـــــنَ فِي السبـــقِ أتَى
وَبيمْنَــــاهُ لِــــوَاءُ السابقِيــــنْ
يَا بــنِي أحْمَــدَ يَا خيــرَ الــورَى
لأبيكــمْ كــانَ رَفْــدُ المُسْلِــمِيــنْ
نــزَلَ الــــوَحْيُ عَليــهِ فاحْتَــبَى
فِي الــدُّجَى فَوقَهُمُ الرُّوحُ الأمِيــنْ
خلِقــوا مِــنْ مَــاءَ عَــدلٍ وَتــقى
وَجَمِيعُ النــاسِ مِنْ مَــاءٍ وَطِيــنْ
انظُرُونــا نقتبــسْ مِــنْ نُورِكــُم
إنــهُ مِــنْ نــورِ رَبِّ العَالمِيــنْ

ولمــا خــرج مــن بلنسيــة قاصــدا طرطوشــة؛ لزيــارة صاحبهــا الفــتى العامــري المدعــو مقاتــلا؛ منــع مــن الجــواز إليهــا؛ فكتــب إلى مقاتــل هــذه الأبيــات:

إنْ كانَ وَاديــكَ نيــلاً لاَ يُجازُ بــهِ
فمَالنا قــدْ حُرِمْنــا النيْــلَ وَالنيــلاَ
إنْ كانَ ذَنبِي خــرُجِي مِنْ بَلنسيَــةٍ
فمَــا كفــرْتُ ولاَ بَدَّلــتُ تبدِيــلاَ
"هِيَ المَقاديــرُ تَجْرِي فِي أعِنتِهَــا"
لِيقــضِيَ اللــهُ أمراً كانَ مَفعــولاَ

ولـــه أيضـــا في مجاهــد العامــري:
ولمــا سَقتنــا مِــنِ ابريقِهَــا
لثمْنـــا يَدَيهَـــا وَخلخالهَـــا
وَبتنــا وَباتــتْ عَــلَى سَاقِهَــا
تصَفــقُ لِلشــرْبِ جرْيالَهَــا
كأنَّ نجُــومَ الــدُّجَى رَوْضَــة
تَجُــرُّ بهَــا السُّحْــبُ أذْيالهَــا
كـــأنَّ الثريَـــا بهــا رَايـــة
يقــودُ المُوَفـــقُ أبطالهـــا

ـ ثــم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحــيى:
لــم تتكلــم جـل المصـــادر عــن هــذا الوزيــر الشاعــر؛ ومــا عرفنــاه عنــه أتى في المغــرب؛ حيــث

قــال عنــه صاحبــه: ((**مــن المسهــب: كــان لــه خــلال توجــب لــه الــوزارة. أخبــرت انــه كــان يومــا في بيــت وزارتــه؛ فدخــل عليــه غــلام جميــل بقــل عــذاره؛ فقــال:**

أتــانِي وَقدْ خــطَّ العِــذَارُ بخــدِّهِ
كمَا خطَّ مِنْ جمْرٍ عَلَى مُهْرَقٍ سَطرَا
فقلــتُ لــهُ: لــمْ يَقتنِــعْ بِحَيَائــه
مُحياكَ حَتَّى زَادَ مِنْ شعــرٍ سِتــرًا)).[1]

ــ ثــم أبــو علــي الحســن بــن حســون:[2]
هكــذا ورد اسمــه في بعــض المصــادر. وثمــة غمــوض كبيــر يكتنــف هــذا الفقيــه القــاضي؛ حيــث يوجــد ــ كمــا يتبــادر إلى الذهــن ــ اثنــان ــ أو أكثــر ــ وليــا قضــاء مالقــة في فتــرة زمنيــة واحــدة؛ أو متقاربــة عــلى الأقــل؛ ولا يعــرف إن كانــا ــ في حقيقتهمــا ــ شخصــا واحــدا أم شخصيــن؛ إذ تســمي المصــادر ذلك القــاضي أحيانــا باســم الحســن وأحيانــا أخــرى باســم الحسيــن أو باســم محمــد بــن الحســن؛ كمــا يكنيــه بعضهــم بــأبي

---

[1] المغــرب، ج: 1، ص: 425.

[2] قــال فيــه ابــن سعيــد: ((مــن المسهــب: "عيــن مالقــة. ورب حلِّهــا وعَقْدهــا، وعلــم بُرْدِهــا وواسطــة عِقْدِهــا، وكــان مــن أئمــة العلمــاء، ولي قضــاء مالقــة في مــدة العــالي بــن يحــيى بــن حمــود الفاطــمي)). نفســه، ص: 430.

علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا ـ ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى ـ باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى بلدة جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربُّ حَلّهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على**

[1] تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولّى حُسَيْنٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 ـ 94.

[2] جاء تحت رقم 327 ((حُسَيْن بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكْنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛ وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.

بلـــده)).[1] كمـــا أورد لـــه قطعـــة شعريـــة صغيـــرة نسبهـــا إليـــه؛ وهي:

خلعـــتُ عِذَارِي فِي هوَاها وَعِنْدَما
تبَدَتْ نجومُ الشيبِ فِي غَسقِ الشعْرِ
وَثَنَيتُ عَنانِي وَارتَجَعتُ إلَى النهَى
وَعاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعنِي صَبَـــرِي
وَأصْبَحْتُ لاَ أبغِي سِوَى العِلمِ خُطَة
ففِيهِ الذِي أرْجوهُ فِي مَوقفِ الحَشْـــرِ
وَلَوْلاَهُ مَا أصبَحتُ أقضِي عَلَى الألَى
صَحِبْتهمْ فِي عُنفــوَانٍ مِـــنَ العُمرِ

وفي المقابـــل ذكـــر المقـــري مـــا دار بيـــن المدعـــو ابـــن حَـــسّـــون وإدريـــس بـــن يحـــيى؛ فقـــال: ((**وحـــكي أن العـــالي إدريـــس الحمـــودي لمـــا عـــاد إلى ملكـــه بمالقـــة؛ وبَّـــخ قاضيهـــا الفقيـــه أبـــا عـــلي بـــن حَسُّـــون؛ وقـــال لـــه: "كيـــف بايعـــت عـــدوي مـــن بعـــدي وصحبتـــه؟". فقـــال: "وكيـــف تركـــت أنـــت ملكـــك لعـــدوك؟". فقـــال: "ضـــرورة القـــدرة حملتـــني عـــلى ذلـــك". فقـــال: "وأنـــا أيضـــا حصلـــت في يـــد مَـــنْ لا يسعـــني إلا طاعتـــه"**)).[2]

[1] المغـــرب، ج: 1، ص ص: 430 ــ 431.
[2] نفـــح الطيـــب، ج: 3، ص: 390.

ثــم أورد المقــري لهــذا القــاضي أبياتــا مــن الشعــر نسبهــا ليــه:

رُفِعــتُ مِنْ دَهرِي إِلَى جَائِــرٍ
وَيبتــغِي العَـــدلَ بأحْكـــامِي
أَضْحــتْ به أمْلاَكــهُ مِثلَ أَشـْـ
ـكَــالِ خيــالٍ طــوْعَ أيـــامِ
هــذَا وَلمــا أبــرَمَ ذَا ناقِــضٌ
كأنهــمْ فِي حُكـــمِ أحــــلاَمِ

غيــر أن صاحــب كتــاب تاريــخ قضـــاة الأندلــس المدعــو أبــا الحســن عــلي بــن عبــد اللــه الجــذامي المالــقي النبــاهِيّ. يذكــر روايــة يمكــن أن تفــك الإشكــال بعــض الــشيء.[1] وذلــك أنــه تكلــم عــن قــاضٍ ولي قضـــاء مالقـــة في الفتـــرة الزمنيـــة الـــتي حــددت للقــاضي المدعــو ابــن حســون؛ غيــر أن الاســم الــذي ذكــره صاحــب كتــاب تاريــخ قضـــاة الأندلــس يختلــف عمــا ذكــر سابقــا. فالاســم هنــا هــو: محمــد بــن الحَسَــن الجُــذاميّ النُّبــاهيّ. وقــال أنــه ولي ــ لأول مــرة ــ القضـــاء في عهــد يحــيى بــن عــلي بــن حمــود؛ حيــث أجبــره عــلى تلــك المهمــة؛ وذلــك أنــه خيــره بيــن القبــول بخطـــة القضـــاء أو السيـــف؛ فقبــل بهــا بشـــروط.

---

[1] أنظــر كتــاب تاريــخ قضــاة الأندلــس المسمى بــ: كتــاب المراقبــة العليــا فيمــن يستحــق القضـــاء والفتيـــا. ص ص: 90 ــ 94.

لما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي **نجا** إليها؛ وتكليف وزيره **محمد السطيفي** بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على **نجا والسطيفي** وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد ابن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((**هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهِده، وأحكمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله ــ أعلى اللهُ أثره وأعزَّ نصره ــ للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ــ وفقه الله ــ قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة ــ حرسها الله ــ وأعمالها**)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((**وهو كتاب** [يقصد كتاب التولية] **كبيرٌ في رَقٍ، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445هـ**[1053م]؛ **وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"**))[1].

---

[1] تاريخ قضاة الأندلس، ص: **91.**

ومما يبعث على الاعتقاد في احتمال كون هذا الشخص هو نفسه الذي ورد ذكره من طرف كل من: ابن بسام، وابن سعيد، والمقري؛ ما جاء ذكره في كتاب قضاة الأندلس (المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)؛ حول رواية مقتل القاضي النباهي؛ إذ جاء أنه كان رفقة بعض الفقهاء ومنهم الأديب غانم؛ الذي تمكن من النجاة مع الآخرين. ويبدو أن قصيدة غانم في رثاء القاضي الذي سماه ابن بسام بابن حسون تتفق مع هذا السياق؛ علما بأن صاحب القصيدة يكنيه فيها بأبي علي ويسميه بالحسين[1].

---

[1] وجاء فيها:

((المَوْتُ أعرَبَ فِي أصحِ مَسَاق   أنَّ المنِية شمرَتْ عَنْ ساق
المَوْتُ يُخبرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِهِ   وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْها ساق
هلاَّ تواصَينا بصورَةِ حالِنا   وَالنفسُ ترقَى فِي لهًى وَترَاق
يَا آمِلَ الدُّنيا لبَاقِي عمرِهِ   أقصِرْ فما أملٌ عليها باق
حسناءُ زيٍ بِالنهَى ممهورَة   فإذَا تعرَّتْ مُتعتْ بطلاَق
مَعْشوقة الحركَاتِ إلاَّ أنها   أفعَى تدُبُّ لأعشق العشاق
كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغضٍّ شبيبةٍ   كالغصْنِ ماسَ بناضرِ الأوْرَاق
وَموَقرٍ لبسَ المَشِيبَ جلاَلة   بَحر لباغِي العِلمِ عَذبِ مَذَاق
طرَقتهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقتْ   مِنهُ الفضَائلُ أيمَا إطرَاق
لوْ كانَ يُبقِي المَوْت حَبراً عَالِماً   لوَقى الحِمامَ أبا علِيّ وَاق
ولَى حسينٌ وَالمحامدُ بعدَهُ   كيلاَ تقاسِي جاحمَ الأشوَاق
أسَفِي لرَية كنتَ عقدَ جَمَالِها   فابتزَّ ذَاكَ العِقد دُونَ وِفاق
تزدَانُ مِنكَ بِحسنِ مَا قدْ طوّقت   زَينَ الحمامِ الوُرق بِالأطوَاق

هذا ما سمح به المجال فيما يخص ذكر الأدباء والعلماء الذين أظلتهم الدولة الحمودية؛ على أنه من الضروري الإشارة إلى أن عهد العالي إدريس بن يحيى كان أكثر ثراء وازدهارا من غيره من العهود التي حكم فيها ملوك آخرون من بني حمود. وذلك لأن الفترة التي حكم خلالها العالي تميزت ـ على الرغم من قصرها وانقطاعها ـ بالحركة الأدبية والثقافية النشيطة؛ إذ كان بلاط تلك الدولة عبارة عن منتدى أدبي؛ سمح لكثير من الأدباء والشعراء بعرض إبداعهم ونشره وإذاعته. وكانوا يجدون كل تشجيع وتكريم من قبل أمير الدولة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود.

عِلمٌ أعِينَ بفضلِ حِلمٍ رَاجحٍ   أخذَ الأمانَ لهُ مِنَ الأخلاَق
وَصبَاحَة وَسَمَاحَة قسمتْ لهُ   رِزقاً تبارك قاسمُ الأرْزَاق
وَمِنَ الغَرِيبِ غرُوبُ شَمسٍ فِي الثرَى   وَضياؤُها باقٍ عَلى الآفاق
أبقيتَ فِي الدُّنيا مآثرَ ثرَّةً   تبلَى حُلى الأيامِ وَهْيَ بوَاق
قدْ كانَ مَجلِسُكَ المُبَارَكُ مَوْسماً   فأقامَ أوْحشَ مِنْ غدَاةِ فرَاق
غيبتَ عنهُ مَغِيبَ بَدْرٍ كاملٍ   وَالليلُ أدْهمُ ضَارِبٌ برِوَاق
وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكسوفُ مرتَبٌ   قمرٌ توَارَى فِي زَمانِ محاق
مَنْ ذَا أعزِّي فِيكَ مِنْ هذَا الوَرَى   لمْ يلقنِي إلاَّ بِحزنِكَ لاَق
وَالناسُ مَحزُونونَ فيكَ كأنما   كانَ اتفاقهمْ عَلى إصفاق

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866 -868.

وهكـذا ظلـت الحـال بيـن مـد وجـزر؛ حـتى انتـهى أمـر الحموديين نهائيـا في مالقـة سنـة 449هـ(1057م). وذلـك بعـد أن استـولى باديـس بـن حبـوس أميـر غرناطـة عليهـا؛ حيـث ضمهـا إلى مملكتـه. ثـم تـلا ذلـك خـروج آخـر أمـراء الدولـة الحموديـة محمـد بـن إدريـس (المستعـلي) منهـا؛ قاطعـا البحـر إلى مليلـة؛ أيـن بـقي بهـا أميـرا عليهـا حـتى حلـول تاريـخ وفاتـه سنـة 456هـ(1063م).

****

3)ـ دولـــة بنـي سليمـــان:

صاحـــب هـــذه الإمــــارة هـــو سليمــــان بـــن عبـــد اللـــه الكامـــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب.[1] وعليـــه فهـــو أخـــو إدريـــس الأكبـــر. هـــذا وقـــد تمكـــن سليمـــان مـــن إنشـــاء هـــذه الدولـــة في تلمســـان ـ الـــتي اعتبـــرت قاعـــدة للمغـــرب الأوســـط؛ وحاضـــرة لهـــذه الدولـــة العلويـــة ـ بفضـــل عـــون ومساعـــدة بعـــض القبائـــل الزناتيـــة المهيمنـــة عـــلى تلـــك الربـــوع. وتـــم ذلـــك عندمـــا لجـــأ إليهـــا مؤســـس الإمـــارة **(سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه)**؛ فـــاراً مـــن العباسييـــن بالمشـــرق.

---

[1] تضاربـــت الأقـــوال حـــول الشخـــص الـــذي يمكـــن أن تنســـب إليـــه إمـــارة تلمســـان؛ فـــإن كـــان معظـــم المؤرخيـــن والجغرافييـــن يقولـــون بأنـــه سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه؛ فـــإن آخـــرون يقولـــون إنـــه سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه المنحـــدر عـــن الحسيـــن بـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب . مـــن ذلـــك مـــا يقولـــه الطبـــري عـــن سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه؛ أنـــه قتـــل في وقعـــة فـــخ يـــوم الترويـــة في ســـنة 169هـــ. وفي المقابـــل يـــرى آخـــرون أن الـــذي تـــولى إمـــارة تلمســـان هـــو شخـــص يـــدعى محمـــد؛ ولكنـــه مـــن أبنـــاء الحسيـــن وليـــس مـــن أبنـــاء الحســـن كمـــا يتسلســـل نســـب بـــني إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه. ويقـــول أيضـــا آخـــرون أنـــه محمـــد بـــن سليمـــان مـــن ولـــد الحســـن بـــن عـــلي؛ وليـــس سليمـــان مـــن قـــدم إلى تلمســـان. ويعتبـــر البكـــري أحـــد القائليـــن بهـــذا القـــول؛ الـــذي يقـــول عـــن تلمســـان: ((وهي دار مملكـــة زناتـــة، وموسطـــة قبائـــل البربـــر، ومقصـــد لتجـــار الآفـــاق؛ ونزلهـــا محمـــد بـــن سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه بـــن حســـن بـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب)). أنظـــر المغـــرب، ص: 77. وللمزيـــد مـــن التوضيـــح أنظـــر كـــل هـــذه الخلافـــات في كتـــاب دولـــة الأدارســـة؛ لإسماعيـــل العـــربي، ص ص: 137 ـ 146. غيـــر أن ابـــن حـــزم ـ وهـــو مـــن المحققيـــن المدققيـــن الثقـــاة ـ يـــرى أن الـــذي أقـــام الدولـــة بتلمســـان هـــو سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه بـــن الحســـن بـــن الحســـن بـــن عـــلي ابـــن أبي طالـــب. أنظـــر جمهـــرة أنســـاب العـــرب، ص: 48.

إذ تـم ذلـك عقـب مقتـل أخيـه إدريـس الأول؛[1] حيـث جـاء ــ هـو الآخـر ــ إلى هـذه الديـار بحثـا عـن الحمايـة والسلطـان. ولمـا وصـل إلى مشـارف إفريقيـة؛ عـرج جنوبـا؛ اتقـاء وخوفـا مـن عيـون أتبـاع العباسيـن وولاتهـم في القيـروان.

وتبعـا لذلـك فقـد وجـد في أراضي الرستمييـن أمنـا وسلامـا؛ لا يمكـن توفرهمـا في شمـال البـلاد. وكـل مـا يمكـن قولـه في هـذا المجـال؛ هـو أن سليمـان بـن عبـد اللـه بعـد أن التحـق ببـلاد المغـرب؛ عقـب مـوت أخيـه إدريـس؛ كانـت محطتـه الأولى منطقـة تيهـرت؛ حيـث حـاول فيهـا كسـب تأييـد القبائـل المتواجـدة بالمغـرب الأوسـط؛ طمعـا في مناصرتهـم، ودعمهـم؛ غيـر أنهـم كذبـوه في بدايـة الأمـر، ولـم يصدقـوا خبـر انتسابـه لعـلي كـرم اللـه وجهـه. ولمـا لاحظـوا مـا يجـري مـن عمليـات مكثفـة للبحـث عنـه؛ مـن طـرف والي القيـروان؛ تيقنـت ــ عندئـذ ــ قبائـل المغـرب الأوسـط مـن صدقـه، وصحـة نسبـه الهاشـمي.

---

[1] يقـول ابـن خلـدون: ((وأمـا سليمـان أخـو إدريـس الأكبـر؛ فإنـه فـر إلى المغـرب أيـام العباسييـن؛ فلحـق بجهـات تاهـرت بعـد مهلـك أخيـه إدريـس؛ وطلـب الأمـر هنـاك)). العبـر، مج: 4، ص: 34.

فتحقق له ــ حينها ــ شرط أصحاب النصاب الملكي؛[1] واجتمعت حوله قبائل زناتة؛ التي كانت آنذاك في صراع مع أمراء الدولة الرستمية؛ بدءاً بفتنة ابن فندين اليفرني الزناتي، وما تبعه من وقائع دارت بين الدولة الرستمية وشريحة عريضة من قبيلة زناتة؛ ممن كانوا متمذهبين بالواصلية. وعليه فقد اختارت شريحة عريضة من القبائل الزناتية مبايعة سليمان ابن عبد الله، وإعلان الطاعة له. وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**وطلب الأمر هناك** [أي سليمان]؛ **فاستنكره البرابر؛ وطلبه ولاة الأغالبة؛ فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك**)).[2] وبذلك تمكن سليمان من إقامة ملكا ــ وإن كان محدود السيادة ــ بواسطة قبيلة زناتة في تلمسان. ويمكن تحديد امتداد نفوذ هذه الدولة بما كان يعرف في ذلك العهد بالمغرب الأوسط.[3]

---

[1] أنظر في هذا مقدمة ابن خلدون، ((فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] العبر، مج: 4، ص، 34.

[3] وقد ذكر عبد الرحمن الجيلالي بعض العلامات لحدود إمارة بني سليمان إذ قال: ((وإذا نظرنا إلى حدود الجزائر الإدريسية وجدناها لا تتعدى ــ من جهة الشمال الشرقي ــ مدينة وهران ونهر الشلف، ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر إلى جبال مديونة قبلي فاس؛ ولك أن تقول أنها تمتد ــ على الساحل ــ من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة

ويبدو أن إمارة بني سليمان هذه كانت عبارة عن ولاية كبرى تابعة للمملكة الإدريسية؛ ولكنها تتميز باستقلال داخلي؛ مكن أمراءها من التصرف بحرية مطلقة. ومع هذا فقد كانت الدولة الإدريسية هي التي تتحمل أعباء الدفاع عن هذه الإمارة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل؛ حين أقام إدريس الثاني في جوار ابن عمه محمد بن سليمان بتلمسان، والمغرب الأوسط عموما؛ طيلة ثلاث سنين؛ بغرض تمهيد تلك الإمارة، وتأمين السلامة لحدودها؛ وتأديب بعض القبائل الصفرية المتمردة؛ من قبيلة نفزة وغيرها؛ وذلك في سنة 199هـ.[1]

شرقا، ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة)). تاريخ الجزائر العام، ج:، 1، ص: 183.

[1] وقد أورد هذا الخبر ابن أبي زرع إذ قال: ((ورجع [إدريس] إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين [ومائة] ؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة؛ فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبرا؛ قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسين [الصحيح هو الحسن السبط] بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة". فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين، ثم رجع إلى مدينة فاس الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27.

وكان إدريس الثاني ـ قبل ذلك ـ قد أقام فترة من الزمن في تلمسان؛ عقد خلالها اتفاقية بينه وبين الأغالبة؛ رسمت بموجبها الحدود الفاصلة بين دولته ودولتهم. وقد اتفقوا على جعل شلف حداً فاصلا بينهما. وكما هو واضح؛ فقد اتخذ إدريس الثاني إمارة بني سليمان بمثابة الحاجز الواقي لدولته بفاس؛ في وجه أطماع بني الأغلب بالقيروان من جهة، ودريئة تمنع امتداد النفوذ الإباضي، والصفري من جهة أخرى. كل هذا ولم تذكر مصادر الدولة الإدريسية شيئا عن بني سليمان في تلمسان خلال تلك الفترة؛ بل ركزت حديثها على أعمال إدريس الثاني ونشاطه في تلك الربوع.

وربما يعود السبب في عزوف المؤرخين عن الإسهاب والتدقيق في الحديث عن إمارة بني سليمان راجع إلى اعتقادهم بأنها لا تعدو أن تكون سوى ولاية تابعة للدولة الإدريسية بفاس. لذا فقد اقتصروا على الأحداث التي صنعها السلاطين الأدارسة لا غير؛ خاصة عندما يعلم القارئ بأن المؤرخين ـ آنئذ ـ كانوا لا يهتمون كثيرا بغير محيط السلطان وحاضرته.

ومـــع هـــذا فلا بـــد مـــن الاعتـــراف بأن هـــذا القـــول لا يخـــرج عـــن كونـــه قـــولا افتراضيـــا لا غيـــر؛ وذلـــك بسبـــب اضطـــراب السنـــد التـــاريخي إن وجـــد.. لأن الأحـــداث التاريخيـــة لدولـــة سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه يكتنفهـــا غمـــوض كثيـــف؛ بسبـــب قلـــة المصـــادر الـــتي يمكـــن أن تتكلـــم عنهـــا بتوســـع واستفاضـــة. وكـــل مـــا توفـــر لدينـــا حـــتى الآن؛ لا يتجـــاوز بعـــض المصـــادر الحاملـــة لمعلومـــات هزيلـــة؛ تشيـــر إلى أمـــراء هـــذه الدولـــة، والمـــدن الـــتي يحكمونهـــا؛ بـــدون تفاصيـــل تذكـــر، ومـــن دون ذكـــر تواريـــخ يمكـــن الاعتمـــاد عليهـــا؛ في تحديـــد الفتـــرات الزمنيـــة الـــتي حكـــم خلالهـــا أمـــراء هـــذه الدولـــة.

هـــذا وتجمـــع المصـــادر المتوفـــرة عـــلى أن الـــذي خلـــف سليمـــان؛ عـــلى عـــرش تلمســـان بعـــد وفاتـــه هـــو ولـــده محمـــد. كمـــا تقـــول المصـــادر أن محمـــدا هـــذا هـــو الـــذي استـــدعى ابـــن عمـــه إدريـــس الثـــاني إلى تلمســـان؛ كي يساعـــده عـــلى إخضـــاع الأطـــراف الشرقيـــة مـــن مملكتـــه، وتأديـــب الثائريـــن مـــن القبائـــل الصفريـــة؛ وبالفعـــل لـــبى محمـــد بـــن إدريـــس طلـــب ابـــن عمـــه محمـــد بـــن سليمـــان وقـــدم إليـــه، كمـــا سبقـــت الإشـــارة إليـــه؛ حيـــث ظـــل في تلـــك الربـــوع حـــتى استتـــب الأمـــر لبـــني سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد بن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة **(مغنية**

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم ابن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد ابن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَبَطْوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 ـــ 36.

حاليــا) غربــا.[1] وكانــوا بمثابــة أمــراء علــى مــدن منعزلــة؛ تقــف كحصــون في وجــه منافسيهــم: مــن بــني الأغلــب والرستميين. كمــا عرفــت هــذه الديــار أيضــا هجــرات أخــرى لأحفــاد علــي بــن أبي طالــب؛ وهــو مــا تؤكــده الآثــار الباقيــة بعدهــم؛ ممثلــة في أسمــاء الأماكــن، والمــدن الجزائريــة؛ الــتي تنســب إليهــم. كســوق حمــزة **(البويــرة حاليــا)**، نسبــة إلى أميــر هــاز حمــزة بــن الحســن بــن سليمــان بــن سليمــان وفيــه يقــول ابــن حــزم: ((**ملــك هــاز مــن أرض المغــرب،** [موقعهــا بالقــرب مــن عيــن بوسيــف الحاليــة] **وملــك قطيعــا مــن صنهاجــة؛ وإليــه ينســب ســوق حمــزة، وولــده بهــا كثيــر؛ وكذلــك أيضــا ولــد اخوتــه في تلــك الجهــة**)).[2] وحسبمــا يبــدو فقــد يكــون السهــل المعــروف الآن بسهــل بــني سليمــان منسوبــا إلى سليمــان بــن عبــد اللــه أيضــا. ثــم ســوق إبراهيــم؛ المنســوب كذلــك إلى إبراهيــم بــن محمــد بــن سليمــان؛ كمــا أن مدينــة بوفريــك الحاليــة؛ منسوبــة إلى أبــي فريــك الكبيــر **[كتــب في بعــض المراجــع خطــأ ــ الكافــر]**؛ وهــو مــن نســل جعفــر بــن الحســن **(عــم إدريــس الأول)**؛ لأن منطقــة متيجــة ــ بقاعدتهــا قزرونــة ــ كانــت خاضعــة لأبنــاء جعفــر بــن الحســن بــن الحســن بــن علــي كــرم اللــه وجهــه.

---

[1] لمزيــد مــن التدقيــق أنظــر إلى مــا كتبــه مــوسى لقبــال عــن بــني سليمــان في ديــار الجزائــر؛ في كتابــه دور كتامــة. ص ص: 209 ــــ 213.

[2] جمهــرة أنســاب العــرب، ص: 55.

وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ـ بدورها ـ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم

---

[1] أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ــ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ـ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ـ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ــ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ــ 146. 293 ـ 294.

الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ـ كما سبق ذكره ـ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان. وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفه
وَرماحه في العَارِضِ المُتهَلِل
وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها
والخيلُ تمْرغ في الوشيج الذبَّل
وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة
وسقىَ جَراوة من نقِيعِ الحَنظل)).

على أنه يستحسن التنبيه إلى دور البيئة القبلية المنغلقة التي كانت تحيط بهذه الدولة؛ الأمر الذي أبقاها محاطة بالغموض؛ الذي كان له تأثير حتى عندما اقتصر الأمر على مجرد السرد التاريخي للمظهر السياسي الخاص بها.

****

4)ـ الدولة الفاطمية:[1]

ينتسب حكام هذه الدولة إلى فاطمة بنت محمد صلى الله علية وسلم، وإلى جدهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ويسمى مؤسسها وأول ملوكها ـ حسبما ورد في كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ـ هو: عبيد الله بن أحمد بن الحسين ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه.[2]

---

[1] ينحصر البحث هنا في حدود الدولة الفاطمية القائمة ببلاد المغرب؛ وينتهي الاهتمام بها بدءا بانتقال الخليفة المعز إلى القاهرة.

[2] تضاربت الآقوال حول نسب مؤسس الدولة الفاطمية؛ ولم تتفق المصادر على سلسلة واحدة لآبائه؛ ومما يقوله ابن الأثير في هذا الباب: ((أول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله؛ فقيل: هو محمد بن عبد الله بن ميمون ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ ومن ينسب هذا النسب يجعله: عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب إليه القداحية. وقيل: هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني [ابن] محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي أبن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد اختلف العلماء في صحة نسبه؛ فقال ـ هو وأصحابه القائلون بإمامته إن نسبه صحيح على ما ذكرناه، ولم يرتابوا فيه. وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضا؛ ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهَوَانِ وَعِنْدِي مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَانْفٌ حَمِيٌّ
ألبَسُ الذلَّ فِي بلاَدِ الأعادِي وَبِمِصْرَ الخَلِيفَةَ العَلَوِيُّ
مَنْ أبُوهُ أبِي، وَمَوْلاَهُ مَوْلاَ يَ إذَا ضَامنِي البَعِيدُ القَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النّا سِ جَمِيعاً: مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ
إنَّ ذُلِّي بِذَلِكَ الْحَيِّ عِزٌّ وَأوَامِي بِذَلِكَ الرَّبْعِ رِيٌّ

هـذا وقـد اختلفـت المصـادر التاريخيـة في سـرد تسلسـل آبـاء هـذه الأسـرة الحاكمـة للدولـة الفاطميين؛ وحـتى نسبهـم الهاشـمي تضاربـت الآراء حولـه؛ فثمـة مـن أنكـره، وثمـة مـن صدقـه. ويبـدو أنهـم تعرضـوا لهجمـة إشاعـات، وحملـة تشويـه؛ نظمهـا ضدهـم أنصـار الدولـة العباسيـة المنافسـة لهـم؛[1] وقـد رأينـا أنهـم استعملـوا الأسلـوب نفسـه مـع إدريـس الثـاني؛ حيـث حاولـوا نشـر الشكـوك حـول انتسابـه لأبيـه إدريـس الأول؛ إذ كلفـوا مـن يطعـن في نسبـه.

ولكـن بعـض المحققيـن ـ مـن أهـل العلـم والمؤرخيـن المدققيـن ـ يميلـون إلى تصديـق نسبهـم الهاشـمي.[2]

وإنمـا لـم يودعهـا ديوانـه خوفـا)). الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص : 124 ـ 125.

[1] لمـن يريـد أن يستزيـد بخصـوص محاولـة التشهيـر بالفاطميين ـ مـن طـرف العباسيين ـ ومـا نسـب إليهـم مـن تزويـر وانتحـال للنسـب النبـوي الشريـف؛ عليـه أن يراجـع مـا كتبـه ابـن الأثيـر في كتابـه الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص ص: 124 ـ 126. ومـا كتبـه المقريـزي في كتابـه اتعـاظ الحنفـا بأخبـار الأئمـة الفاطميين الخلفـا، ص ص: 25 ـ 40.

[2] ومـن بينهـم ابـن خلـدون الـذي يقـول: ((ولا عبـرة بمـن أنكـر هـذا النسـب مـن أهـل القيـروان وغيرهـم؛ وبالمحضـر الـذي ثبـت ببغـداد ـ أيـام القـادر ـ بالطعـن في نسبهـم، وشهـد فيـه أعـلام الأئمـة ـ وقـد مـر ذكرهـم ـ فـإن كتـاب المعتضـد إلى ابـن الأغلـب بالقيـروان، وابـن مـدرار بسجلماسـة؛ يغريهـم بالقبـض عليـه؛ لمـا سـار إلى المغـرب شاهـد بصحـة نسبهـم. وشعـر الشريـف الـرضي مسجـل بذلـك. والذيـن شهـدوا في المحضـر؛ فشهادتهـم عـلى السمـاع؛ وهي مـا علمـت. وقـد كـان نسبهـم ببغـداد منكـرا عنـد أعـدائهـم شيعـة بـني العبـاس منـذ مائـة سنـة؛ فتلـون النـاس بمذهـب أهـل الدولـة؛ وجـاءت شهـادة عليـه؛ مـع أنهـا شهـادة عـلى النـفي. مـع أن طبيعـة الوجـود في الانقيـاد إليهـم؛ وظهـور كلمتهـم حـتى في

من ذلك ما قاله ابن الأثير: ((**ففي امتناع** [الشريف الرضيّ] **من الاعتذار، ومن أن يكتب طعنا في نسبهم مع الخوف؛ دليل قوي على صحة نسبهم؛ وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين في نسبه** [أي نسب عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية] **فلم يرتابوا في صحته... وزعم القائلون بصحة نسبه؛ أن العلماء ممن كتب في المحضر** [الذي طلب منهم التوقيع عليه الخليفة العباسي القادر بالله] **إنما كتبوا خوفا وتقية، ومن لا علم عنده بالأنساب فلا احتجاج بقوله**)).[1]

ومما لا شك فيه؛ أن نجاح الأدارسة في بلاد المغرب جعل بقية العلويين بالمشرق يحسون بعطف سكان تلك الديار تجاه قضيتهم، وميلهم إليهم؛ بحكم النسب الذي يربطهم مع نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق أرسل سادس الأئمة العلويين؛ جعفر الصادق بن محمد الباقر داعيتين إلى المغرب هما: عبد الله بن علي بن أحمد المعروف باسم الحلواني، وأبو سفيان الحسن ابن القاسم. نزل الأول في أرض كتامة، والثاني في مرمجنة بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية الحديثة.

مكة والمدينة أدل شيء على صحة نسبهم. وأما من نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره فكفاه ذلك إثما وسفسفة.)). العبر، مج: 4، ص: 64.

[1] الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 125.

وكان لهما الفضل الأول في التعريف بالقضية العلوية، ونشر الفكر الشيعي بين سكان المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث تمكنا من تحقيق طلب الإمام جعفر بتمهيد المناخ وحرث الأرض؛ انتظارا لمن سيقوم بالحصاد.[1] وما قدوم أبي عبد الله الشيعي ـ فيما بعد ـ إلا من باب استكمال العمل الذي بدأه هذان الداعيتان. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بجهود أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن محمد المعروف بالشيعي وبالمحتسب وبالمعلم؛ فهو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية.[2] حيث لم يكتف ـ كغيره ـ بالدعوة الكلامية؛ بل قام بدور القائد العسكري المحنك؛ الذي ألحق بالأغالبة الهزيمة تلو الأخرى؛ حتى تغلب على حاضرة ملكهم القيروان. كما استطاع إخضاع بقية الممالك بالمغرب الأوسط؛ كمملكة بني رستم بتيهرت، ومملكة بني مدرار بسجلماسة. ودام به الوقت في ذلك العمل الكبير بدءا من عام وصوله إلى ديار كتامة سنة 280هـ(893م)، وحتى بيعة عبيد الله المهدي؛ أول أئمة الدولة سنة 297هـ(909م).

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 ـ 58. والكامل، ج: 6، ص: 126. واتعاظ الحنفا، ص ص: 53 ـ 54. ودور كتامة، ص ص: 216 ـ 238.

[2] أنظر الأعمال التي قام بها هذا الداعية الفذ في كتاب رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 71 ـ 236. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 127 ـ 133. والعبر، مج: 4، ص ص: 65 ـ 76. ودور كتامة، ص ص: 231 ـ 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه ـ في بداية الأمر ـ توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها

---

[1] جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد ـ وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة ـ فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 ـ 610.

العصبيــة الموحــدة بالتغلــب عــلى غيرهــا مــن العصبيــات الغريبــة وإخضاعهــا؛ في سبيــل تحقيــق الملــك القاهــر. وهــذا هــو الــذي حــدث بيــن عشائــر كتامــة؛ حيــث قــضى أبــو عبــد اللــه الشيــعي وأنصــاره وقتــا طويــلا في تمهيــد سلطانــه، وتوحيــد العصبيــات والعشائــر الكتاميــة المتفرقــة؛ ضمــن عصبيــة واحــدة متينــة وقويــة.

ويبــدو أن بــوادر الوحــدة أخــذت تتحقــق في أواخــر سنــة 298 هــ(910م)؛ حيــث تمكــن الداعيــة الشيــعي أبــو عبــد اللــه مــن إخضــاع العشائــر الكتاميــة بكاملهــا؛ خاصــة الــتي كانــت بعيــدة شيئــا مــا عــن أطــراف المــدن.[1] هــذا بخصــوص العشائــر الكتاميــة؛ أمــا القبائــل

---

[1] وفي هــذا يقــول القــاضي النعمــان: ((واستولــت أمــور أبي عبــد اللــه عــلى عامــة بلــد كتامــة؛ وظهــرت دعاتــه في كــل ناحيــة منهــا، وغلــب أمــره عليهــا، واستحكــم فيهــا؛ ولــم يبــق فيهــا إلا مــن يدخــل دعوتــه: إمــا راغبــا، وإمــا راهبــا، أو مخــذولا؛ قــد أنكرهــا بقلبــه، وغلبــت عليــه شقوتــه؛ فأصــر عــلى إنكارهــا؛ فتمسك بمــا هــو عليــه؛ غيــر مدافــع لأمــر، ولا متوثــب عــلى أحــد مــن أهلــه؛ بــل قــد صــار كــل مــن هــذه حالــه تحــت أحكــام الديــن، وأيــدي المؤمنيــن؛ يجــري حكمهــم عليهــم، وينفــذ أمرهــم فيهــم، ويحيــط سلطانهــم مــن ورائهــم؛ بعــد أن كانــت لأبي عبــد اللــه الشيــعي في قبائــل كتامــة وقائــع كثيــرة يطــول ذكرهــا؛ أقــام ــ بعــد انهــزام الجميــع عنــه ــ نحــو سنتيــن يوقعهــا بهــم، وينقــص أطرافهــم، ويقتلهــم، ويغنــم أموالهــم؛ حــتى أجابــوه، وسلمــوا لأمــره؛ طائعيــن، ومكرهيــن، وراغبيــن، وخائفيــن. ولــم يبــق غيــر المدائــن، ومــن فيهــا مــن أمرائهــا، ومــن انضــم إليهــم، وصــار عندهــم؛ مــن غلبــت عليــه الشقــوة، وسبــق في علــم اللــه حلــول البــلاء بــه مــن رؤســاء القبائــل، ووجــوه العشائــر؛ ممــن أنــف عــن الدخــول في الدعــوة، والوقــوع تحــت مــن كــان يــرى أنــه واقــع تحــت أمــره مــن العشيــرة، ومــن خامــره الخــوف مــن مقدمــات ســوء فعلــه، وزيــن لــه الشيطــان التمــادي عــلى

الأخــرى؛ فيظهــر أن عشائــر عجيســة وزواوة تكــون قــد التحقــت بالــدعــوة خــلال عــام 288هـ(900م).[1] أمــا قــبــيــلــة تــلــكــاتــة الصنهاجيــة ــ ذات القــوة والنفــوذ ــ فقــد بقيــت عــلى الحيــاد طيلــة الفتــرة الــتي ناضــل فيهــا أبــو عبــد اللــه الشيــعي؛ في سبيــل إقامــة الدولــة الفاطميــة؛ كمــا أن المصــادر لــم تذكــر أي محاولــة منــه للتعــرض لتلــك الــقــبــيــلــة الــواسعــة الانتشــار. والــذي بــادر ــ حسبمــا يبــدو ــ إلى عقــد صــلات مــع تلكاتــة الصنهاجيــة هــو عبيــد اللــه المهــدي نفســه؛ وذلــك لمــا استتــب الأمــر في القيــروان لعبيــد لــه، وظهــرت أمامــه الأخطــار المحدقــة بدولتــه؛ تلــك الأخطــار الــتي بــدأت بوادرهــا تبــرز مــن خــلال تحركــات القبائــل الزناتيــة؛ نتيجــة لتحريــض الأمويــين بالأندلــس؛ لــذا فقــد ســعى ــ بكــل جهــده ــ لــكي يكســب ود خصــوم الزناتيــن التقليدييــن؛ وهــم بالطبــع الصنهاجييــن.

غيــه وجهلــه؛ وطوائــف مــن القبائــل ممــن قــارب المدايــن، وعاشــر أهلهــا، واستمالهــم أمراؤهــا؛ يدارونهــم، ويكاتبونهــم، ويتسللــون إليهــم في الســر؛ وهــم عــلى ظاهــر الطاعــة، والوقــوع تحــت الدعــوة في الجهــر؛ تركــوا عــلى حالهــم مستوريــن؛ كمــا تــرك رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وعــلى آلــه مــن كــان بالمدينــة وحولهــا مــن المنافقيــن)). رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 121 ــ 122.

[1] رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 119 والعبــر، مج: 4، ص: 69.

هذا وقد تضاعفت الحاجة إلى عونهم بعد استفحال أمر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ الذي كان على رأس القبائل الزناتية الثائرة على الدولة. ومن جهة أخرى فقد وجد المهدي نفسه في حاجة ماسة إلى التحالف مع عصبية أخرى ذات قوة تعادل قوة العصبية الكتامية؛ بغرض تحقيق شرط التوازن. وعليه فقد أخذ يفكر في هذا الأمر بعد أن بدأت فئات من قبيلة كتامة تلجأ إلى حركات فيها مشاغبة، وتمرد في بعض الأحيان. وهكذا شرع عبيد الله في إغراء قبيلة تلكاتة، والعمل على كسب ولائها. وبالفعل وجدت مساعيه أذنا صاغية لدى الصنهاجيين؛ نظرا لأنهم يميلون إلى أبناء علي بن أبي طالب من جهة؛ ونظرا ـ أيضا ـ لحاجتهم الماسة إلى حليف قوي يساعدهم على كبح جماح خصومهم الزناتيين من جهة أخرى. وهكذا توافقت مصالح الطرفين؛ فالتحمت قواهما، وتناسقت جهودهما في مواجهة العدو المشترك.[1]

---

[1] ويشير إلى هذا ابن خلدون بقوله: ((ولما استوسق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم [أي زيري بن مناد] للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم. وكان من أعظم أوليائهم؛ واستطال بهم على عدوه من مغراوة؛ فكانوا ظهرا له عليهم. وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم؛ وتحيزوا إلى المروانيين ملوك العدوة بالأندلس؛ فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى ـ كما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ولما كانت فتنة أبي يزيد؛ والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية؛ كان لزيري بن

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ــ داعية الفاطميين ــ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ــ محمد بن خزر ــ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة.

مناد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

[1] وكان قد سقط ــ من قبل ــ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ــ 198.

وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[1] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ــ حتما ــ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ــ بالدرجة الأولى ــ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

وهنا تصدق ــ أيضا ــ نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه ــ إلى جانب الدعوة الدينية ــ انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه ــ في هذه الحال ــ الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636، 638 ــ 642.**

وهذا هو الذي قصده ابن خلدون؛ ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1]

والدولة الفاطمية ــ مثلها مثل الدولة الإدريسية ــ جاءت نشأتها نتيجة لما وصلت إليه عصبية بني هاشم؛ من ضعف وانقسام. فبعد استفحال أمر بني العباس، وسعيهم لتصفية أبناء علي بن أبي طالب؛ التجأ هؤلاء إلى أقاصي البلاد وأطرافها؛ مستترين ــ خوفا وتقية ــ من أذى أبناء عمومتهم؛ بني العباس. فوجدوا في تلك المناطق النائية الأمن والأنصار معا. وقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة ضمن فصلين في مقدمته: "**فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين**" و"**فصل في كيفية طروق الخلل للدولة**".[2] وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تم التوسع في شرح رأي ابن خلدون في هذا الموضوع ضمن دراسة مستقلة وضعتها تحت عنوان "العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية" حيث تبرز نظرية ابن خلدون هذه؛ الكيفية التي تسقط بها الدول؛ عندما يتسرب إليها الفساد. وكيف تبدأ الدولة بالتفكك؛ حينما يتنكر حاكمها لأهل عصبيته؛ فيسعى لإذلالهم، وتقليم أظافرهم.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] نفسه، ص ص: 859 ــ 862. 863 ــ 867.

إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛ كما سبق ذكره.

وبعد فترة تمكنت من اكتساح دولة بني الأغلب. وهنا فتح الباب على مصراعيه؛ أمام قيام دولة الفاطميين؛ على أنقاض دولة الأغالبة. وتم هذا ببيعة عبيد الله المهدي عام 297هـ(909م) برقادة.

وجملة القول.. فقد حققت دولة الفاطميين ما لم تتمكن دولة الأدارسة من تحقيقه. فالعصبية المناصرة للدولة الفاطمية تفوق العصبية المنحازة للأدارسة بكثير. إذ كان لدولة الفاطميين أتباع عددهم لا يحصى؛ مكنوها من التغلب على إفريقية والمغرب كافة؛ بل مدوا نفوذ هذه الدولة إلى بلدان المشرق أيضا؛ حيث شمل مصر والشام والحجاز. وفي حالات خاصة؛ وصل نفوذ الدولة الفاطمية إلى بغداد نفسها؛ إذ التهمت الدول المتواجدة في تلك الربوع كلها. فغدت الخلافة الفاطمية تزاحم الخلافة العباسية، وتهدد وجودها في عقر دارها. ومرد هذا ـ طبعا ـ يعود إلى ما ذكره ابن خلدون ضمن: **"فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها؛ على نسبة القائمين بها؛ من القلة والكثرة".**[1]

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 644 ـ 646.

ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون؛ من خلال ما قرره ضمن: "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة؛ لا بالمناجزة**".[1] حيث صنف الدول المستجدة إلى صنفين: الصنف الأول؛ تنشأ الدولة فيه بالأطراف؛ التي تكون الدولة المستقرة عاجزة عن حمايتها. وهذا الصنف قاصر ومحدود الفعالية. وإذا تأملنا في أحداث الدولة الإدريسية يتبين لنا بأنها تمثل الصنف الأول هذا.

أما الصنف الثاني؛ فهو الذي يعتمد على الدعوة والدعاة؛ بغرض التعبئة المعنوية الموجهة سواء إلى الحلفاء أو الخصوم. ويتم ذلك ـ عادة ـ بأن يقوم أولئك الدعاة بنشر مفاهيم وأفكار تستند إلى أصول مذهب معين بأساليب جذابة ومثيرة للعواطف؛ عاملين كل جهودهم لكي تحققون الغرض المطلوب من خلال بث مؤثرات نفسية تلهب قلوب العامة، ومن خلال طرح حجج منطقية يمكنها أن تستميل الخاصة؛ ثم العمل بكل القوى على شحذ الهمم وبعث روح التضحية في النفوس، تشجيع المترددين وحثهم على العصيان والثورة؛ ضد كل ما هو قائم.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ـ 878.**

ومن جهة أخرى يسعون بكل الوسائل الممكنة إلى نشر الإشاعات الهدامة في صفوف الخصوم، والعمل على تثبط هممهم، وتفكيك وحدتهم وتشتيت شملهم؛ بواسطة حملات نفسية مدمرة. وهذا الصنف الثاني ــ طبعا ــ يمكن اعتبار الفاطميين مثلا بارزا له.[1]

ــ حكومة عبيد الله بن أحمد بن الحسين المهدي:

اختلفت الأقوال حول المكان الذي ولد فيه عبيد الله المهدي؛ فمن قائل بأنه ولد بسلمية في أرض الشام ومن قائل أنه ولد ببغداد سنة 260هـ(873م). كان قد تولى الإمامة بعد موت والده أحمد (أو محمد في بعض الأقوال) بن الحسين؛ حيث بقي في (عَسْكر مُكرَم) والشام مختفيا؛ إلى أن اشتد البحث عنه من طرف

---

[1] حيث يقول ابن خلدون: ((وكذا العبيديون؛ أقام داعيتهم بالمغرب؛ أبو عبد الله الشيعي؛ ببني كتامة؛ من قبائل البربر؛ عشر سنين ويزيد؛ يطاول بني الأغلب بإفريقية؛ حتى ظفر بهم، واستولوا [أي العبيديون] على المغرب كله، وسموا إلى مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها؛ يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت؛ ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية، والفيوم، والصعيد؛ وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز؛ وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر؛ واستولى عليها، واقتلع دولة طُغُج من أصولها، واختط القاهرة؛ فجاء الخليفة بعدُ المعز لدين الله؛ فنزلها لستين سنة، أو نحوها؛ منذ استيلائهم على الإسكندرية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 876 ــ 877.

العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ـ عندئذ ـ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه. ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ـ أو ابن الأغلب ـ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع.

ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((**فخرج إليهم وجوه أهل المدينة** [مدينة سجلماسة]**...ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم** [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ **فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له**)).[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع ابن مدرار وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[2]

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 239 ــ 240.

[2] وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، واظهروا له السرور

وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ــ أي يوم الجمعة ــ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أورد نص هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: ((**اللهم فصلِّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين**)).[1]

بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبٌ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ ،أبو عبد الله أمام عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتّان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُمَيْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحْن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 158.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 249 ــ 250.

غير أن رأي ابن عذاري يخالف ما ذكره النعمان إذ يرى أن المهدي اتخذ بعض الإجراءات التي توضح تشيع عبيد الله بشكل متطرف، وينسب إليه العداء لبقية المذاهب السنية.[1] كما أن ما جاء في كتاب القاضي النعمان من أشعار مدح بها الشعراء المهدي؛ لا يؤخذ عليها بمكره؛ إلا أن ابن عذاري له نظرة أخرى إذ نسب إلى بعضهم شعرا ـ في مدح المهدي ـ يدخل في عداد النصوص المارقة الداعية للكفر.[2]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وأقر على عمالة القيروان الحسن بن أبي خِنْزِير، وعلى القضاء بها المَرُّوذِي. وأمر أن تُقلع من المساجد والمواجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها؛ وكتب عليها اسمه. وأظهر عُبَيْد الله التشيُّع القبيح، وسب أصحاب النبي ـ صلعم ـ وأزواجه؛ حاشى علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري؛ وزعم أن أصحاب النبي ـ عم ـ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين سميناهم. ومنع المروذي الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم انه مذهب جعفر بن محمد؛ منه سُقُوطُ الحِنْث عمن طلق البَتَّةِ، وإحاطة البنات بالميراث، وأشياء كثيرة يطول ذكرها)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 159 ـ 160. ويقول محمد الصنهاجي أيضا في هذا الباب: ((وكان من جملة ما أخذت عبيد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من أذان صلاة الصبح "الصلاة خير من النوم"، وزاد حي خير، محمد وعلي خير البشر العمل)). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص: 27.

[2] من ذلك ما زعموا أنه لمحمد البديل الذي يقول (بسيط):

حَلَّ برَقَّادَة المَسِيحُ   حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا أَحْمَد المُصَفَّى   حَلَّ بِهَا الكَبْشُ وَالذّبِيحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو المَعَالِي   وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من مؤرخي السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: **((هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده)).**[1]

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجُورُ قَدْ رَضِينَا   لاَ الكُفْرُ وَالحَمَاقَة
يَا مُدَّعِي الغُيُوبِ   مَنْ كَاتِب البِطَاقَة؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.

وهنـــا يصـــدق رأي ابـــن خلـــدون أيضـــا حيـــن كتـــب: **"فصـــل في أن مـــن طبيعـــة الملـــك الانفـــراد بالمجـــد"**[1] إذ يـــرى أن ذلـــك يتـــم بعـــد أن يتحقـــق الملـــك لرئيـــس العصبيـــة البـــارز بيـــن الجميـــع؛ عندئـــذ يقتـــضي منـــه خلـــق الكبـــر والأنفـــة المسيطـــر عليـــه ــ وهـــذان الصفتـــان مـــن خـــواص الطبيعـــة الحيوانيـــة ــ إلى السقـــوط في الغيـــرة والحـــرص عـــلى الاستحـــواذ عـــلى مـــا اكتسبـــه؛ فـــلا يـــرضى بمشاركـــة غيـــره في ذلـــك المجـــد؛ الـــذي غـــدا بيـــن يديـــه؛ وعليـــه يســـعى إلى إبعـــاد الطامعيـــن في المشاركـــة، والمزاحميـــن لـــه في تحقيـــق المجـــد؛ ولمـــا يصطـــدم بمقاومـــة مـــا أو أي اعتراض مـــن طـــرف شركائـــه في الأمـــر؛ يحـــول اهتمامـــه إليهـــم، ويسلـــط آلـــة القمـــع والدمـــار ضدهـــم.

لـــذا فـــلا غرابـــة أن يكـــون أول ضحايـــا القمـــع المسلـــط مـــن المهـــدي هـــو معاونـــه وداعيتـــه، وصاحـــب الفضـــل عليـــه أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ إذ وصـــل بـــه حـــد الانتقـــام إلى قتلـــه؛ بعـــد عـــام مـــن بيعتـــه؛ أي في سنـــة 298هـ(910م). وكـــان الـــذي نفـــذ أمـــر المهـــدي في أبي عبـــد الشيـــعي هـــو رفيقـــه وتلميـــذه القائـــد الكتـــامي عروبـــة بـــن يوســـف.

---

[1] المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 649 ــ 650.

ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ـ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ـ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ـ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ـ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛ حتى أنهم زعموا

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

[2] الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

أنـــه نـــبي.[1] ولـــم تـــدم هـــذه الثـــورة؛ إذ جـــرد المهـــدي جيشـــا بقيـــادة ولـــده أبي القاســـم محمـــد بـــن عبيـــد اللـــه، وكـــان جـــل أفـــراده مـــن قبيلـــة كتامـــة؛ فأخمـــدوا تلـــك الفتنـــة. وبهـــذا يتضـــح بـــأن قبيلـــة كتامـــة لـــم تتأثـــر بذلـــك الانقســـام؛ إذ سرعـــان مـــا عـــادت إلى الطاعـــة، وإلى خدمـــة الدولـــة الفاطميـــة. ويبـــدو أن المهـــدي قـــد شغلهـــم بالفتوحـــات شرقـــا وغربـــا؛ فتركـــوا المشاغبـــات؛ واتجهـــوا صـــوب الفوائـــد الـــتي تأتيهـــم مـــن الحـــروب الخارجيـــة. وقـــد كانـــت أيـــام الدولـــة الفاطميـــة بالمغـــرب مشحونـــة بالحـــروب والفتـــن والثـــورات؛ الأمـــر الـــذي جعلهـــا لا تهنـــأ بفتـــرة مـــن الاستقـــرار والهـــدوء. وأخطـــر الثـــورات عـــلى الإطـــلاق هي الـــتي نشبـــت في عهـــد أبي القاســـم القائـــم بأمـــر اللـــه؛ خليفـــة المهـــدي؛ وهي ثـــورة الخـــوارج؛[2] بقيـــادة أبي يزيـــد مخلـــد بـــن كيـــداد المعـــروف بصاحـــب الحمـــار؛ إذ كـــادت هـــذه الثـــورة أن تقـــضي عـــلى الدولـــة الفاطميـــة نهائيـــا؛ لـــولا الانقسامـــات الـــتي حدثـــت في صفـــوف القبائـــل الثائـــرة.

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص: 273. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 166 ــ 167.

[2] رسالـــة افتتـــاح الدعـوة، ص ص: 277 ــ 279. وأخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص ص: 29 ــ 34. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. والعبـــر، مج: 4، ص ص: 84 ــ 93. مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. واتعـــاظ الحنفـــا، ص ص: 109 ــ 125.

هذا ولم يهنأ عبيد الله طويلا؛ إذ انشغل بعض الوقت في إخماد ثورات عديدة قامت هنا وهناك؛ مثل ثورة الكتاميين بالقيروان، وثورتهم كذلك ببلادهم خلف الصبي المدعو كادو بن معارك، وثورة في صقلية بقيادة ابن وهب، وثورة أخرى بصقلية كذلك بقيادة أحمد بن زيادة الله ابن قرْهب وثورة في تيهرت قامت بها جماعة من قبيلة زناتة، وثورة هوارة بطرابلس بقيادة أبي هارون الهواري، وثورة أهل طرابلس أيضا بقيادة محمد بن إسحاق المعروف بابن القرلين وعصيان من طرف زناتة ولماية. هذا بالإضافة إلى الحملات العسكرية التي قام بها أبو عبد الله الشيعي المغرب الأوسط، وما قام به أبو القاسم بن المهدي من حملات أيضا ضد قبائل عديدة هنا وهناك.

ولم يكن هدف الفاطميين هو الاكتفاء بتشييد دولة لهم ببلاد المغرب فحسب ـ كما كان الحال بالنسبة للأدارسة ـ بل كانوا يتخذون من دولتهم بالمغرب خطوة تكتيكية؛ في سبيل تحقيق هدف استراتيجي؛ وهو الإطاحة بالخلافة العباسية، وقيام دولتهم بدلا منها. لذا فقد شرع المهدي منذ سنة 301هـ(913م) في غزو مصر. وكانت أولى خطوات تمت في هذا السبيل؛ هي أوامره بخروج حباسة ابن يوسف في أسطول نحو مصر؛ حيث احتل المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ مثل سرت

وإجدابية وبرقة؛ كما اشتبك مع جيش قدم من المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ فانتهى السجال بينهما أخيرا بهزيمة جيش مصر. ثم تقدم إلى الإسكندرية بحرا؛ حيث تغلب عليها. وبعد ذلك تقدم حباسة نحو مصر؛ أين فتح بعض الحصون هناك؛ إلى أن لحق به أبو القاسم بن عبيد الله في جيش عظيم؛ فاحتل الإسكندرية سنة 302هـ(914م)؛ ثم تقدم أبو القاسم إلى الفيوم؛ أين عسكر بها.[1] وهناك وصلته الأخبار بوصول القائد العباسي مؤنس الخادم إلى مصر بغرض محاربة جيش الفاطميين. عندها أرسل أبو القاسم إلى حباسة يطلب منه الالتحاق به، وتسليم أمر الجيش إلى أبي فريدن؛ فغضب حباسة بسبب ذلك؛ وقال: ((**لما أشرفت على أخذ البلد؛ يفوز أبو فريدن بخيره وذكره**)).[2]وكان رد فعله أنه عاد مع مجموعة صغيرة إلى المغرب.[3]

---

[1] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 147. واتعاظ الحنفا،، ص ص: 98 ـ 100. والنجوم الزاهرة، ج: 3، ص ص: 172 ـ 173. 186 ـ 187. 196.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 173.

[3] وكانت هذه الحادثة هي السبب في عصيان حباسة وأخيه عروبة؛ إذ خرجا عن طاعة الدولة ؛ فانتهى أمرهما إلى الإعدام.

وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[1] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم ـ في الوقت ذاته ـ بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: **149**.

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم بن عبيد الله وأمره بالزحف ـ مرة ثانية ـ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ـ مشكلا من ثمانين مركبا ـ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ـ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ـ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ـ كما قالوا ـ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم ابن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ـ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ـ 182.

فلوْ كانتِ الدُّنيَا مِثــالاً لِطائِــرٍ

لكانَ لكمْ مِنهَا بِمَا حُزتم الذنــبُ

مــن بيــن أولئــك المؤرخيــن المقريــزي؛ الــذي يكمــل حديثــه فيقــول: ((**فحــرك همتــه** [أي همــة أبي القاســم] **هــذا البيــت؛ فقــال: "<u>واللــه لا أزال حــتى أملــك صــدر الطائــر ورأســه ــ إن قــدرت ــ وإلاّ أهلــك دونــه</u>". وكابــد عــلى ديــار مصــر مــن الحــروب أهــوالا، ومــات ولــم يظفــر بهــا؛ وأوصى ابنــه المنصــور... وكــان الظافــر بهــا المعــز**)).[1] وحــتى أن صحــت حكايــة هــذه القصيــدة؛ فــلا يمكــن أن يقــوم المهــدي وولــده أبــو القاســم بشــن حــرب عــلى دولــة بــني العبــاس امتــدت زمنيــا بعشــرات السنيــن، وكلفــت الدولــة آلاف الأرواح، وأمــوالا لا تحــصى؛ لا لــشيء ســوى أنــه أصــر ــ بعنــاد ونكايــة في القــادر العبــاسي ــ أن يستــولي عــلى صــدر الطائــر ورأســه..!! فهــذا التعليــل فيــه كثيــر مــن الأصبــاغ الأسطوريــة مــا يضحــك. أمــا الحقيقــة فتكمــن في الرغبــة الجامحــة لــدى الفاطمييــن للإطاحــة بالخلافــة العباسيــة ــ الــتي يــرون فيهــا دولــة مغتصبــة لحقــوق العلوييــن ــ حــتى يتســنى لهــم إقامــة الخلافــة الفاطميــة العلويــة الشرعيــة في نظرهــم.

---

[1] اتعــاظ الحنفــا، ص: 99.

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد ابن خزر** [الزناتي] **وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا**)).[1]

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 82.

وفي سنة 322هـ(933م) توفي عبيد الله المهدي؛ بعد أن حكم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب مدة أربع وعشرين سنة؛[1] فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته مدة من الزمن قيل أنها وصلت إلى السنة تقريبا؛ بينما يقول أبي عبيد الله محمد الصنهاجي أنها لم تتجاوز الشهر؛ وذلك خوفا من حدوث فتنة أو بعض الاضطرابات[2].

ـ حكومة القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبيد الله:

ثمة من يقول أن اسمه عبد الرحمن أو نزار وليس محمدا. وتلقب من ألقاب الخلافة بلقب القائم بأمر الله. وولد هو الآخر في سلمية بأرض الشام؛ وقدم إلى المغرب رفقة والده؛ حيث تعرض لنفس الظروف التي عرفها والده؛ من خوف وتستر وسجن ..الخ. تولى شئون الدولة بعد ممات والده؛ دون أن يعلن موته في بداية الأمر؛ خوفا من حدوث فتن.

---

[1] قال محمد الصنهاجي: ((وتوفي عبيد الله يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة 322هـ؛ وكسف القمر في تلك الليلة كسوفا كليا (؟!). وعمره اثنتان وستون سنة ـ أو ثلاث وستون ـ وكانت وفاته من دواء سقاه إياه ابن الجزار؛ يقال أنه حب (السورنجان)؛ لنقرس كان يشكوه؛ وكان إسحاق الإسرائيلي نهاه عنه، وأعلمه أنه يجد على إثره إفاقة، ثم يشتد عليه. وقد يتسبب في هلاكك. فلم يقبل منه قوله؛ لشدة ما يجده؛ فوجد تلك الإفاقة ثم مات)) أخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 26 ـ 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 27. والكامل، ج: 6، ص: 238.

ولم يعلن نبأ وفاة والده حتى تمكن من الأمر،[1] وقبض دفة التسيير بيد ثابتة.[2] ومع هذا فقد وقع ما كان يتوجس منه؛ إذ أنه ما أن أعلن وفاة والده حتى اشتعلت بعض الثورات في عدة جهات؛ كانت أبرزها ـ آنئذ ـ هي الثورة التي قام بها في نواحي طرابلس شخص يدعى ابن طالوت القرشي؛ إذ ادعى أنه ابن المهدي؛ غير أن أمره كشف، واتضح للناس كذبه؛ فقتله من كان في تلك الجهات من الأمازيغ. كما أرسل أبو القاسم جيشا بقيادة ميسور الفتى إلى النواحي الغربية بغرض إخضاع؛ حيث دخل إلى نكور وفاس.

---

[1] قال ابن عذاري: ((ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة. فقام بسيرة أبيه، واظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده؛ فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية، وثار عليه عدة ثوار؛ فأمكنه الله منهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 208 209.

[2] يقول ابن الأثير: ((ولما توفي [أي عبيد الله] ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد؛ وكان أبوه قد عهد له. ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكن، وفرغ من جميع ما أراده، واتبع سنة أبيه. وثار عليه جماعة فتمكن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشي؛ في ناحية طرابلس؛ وزعم انه ولد المهدي؛ فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس؛ فقاتله أهلها؛ ثم تبين للبربر كذبه؛ فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم)). الكامل، ج: 6، ص: 238.

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[1]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[2] ويعود ـ في الحقيقة ـ ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر ـ في نشاطه ـ على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح.

---

[1] الكامل، ج: 6، ص : 238.

[2] قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 217.

ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك للأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[1] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[2] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلاّ بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[3] وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو

---

[1] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: 89. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

أَلَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ

[3] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: ((**فلم يُسمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد**)).[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

---

[1] قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: **((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)).** العبر، مج: 4، ص: 93.

[2] العبر، مج: 4، ص: 89.

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ وَأَبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفوَيسِقُ مُخلدٌ قرْداً ولَكنْ قدْ مسخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ وَبنو الحداية تَصْطرِخْ

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

أَلَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ
مَدِينَةُ سُوسَةَ لِلْمَغْرِب ثغْرٌ يَدِينُ لَهَا المَدائِنُ وَالثُّغورُ
لَقَدْ لُعِنَ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيهَا كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَة وَالنَّضِيرُ
أعَزَّ الدِّينَ خَالِقُ كُلَّ شَيْءٍ بِسُوسَةَ بَعْدَمَا الْتَوَتِ الأمُورُ

لرَأيتَ مَا عَقَـدَ اللعِيـ ــنُ بِلُطفِ رَبكَ قَد فُسِخْ

وقـال أحدهـم في أخـرى:

... فَسَلَختهُ مِنْ جِلـدِهِ وَحَشَوتهُ حَشْـوَ المَزَاوِدْ

وَضَرَبتـهُ مَثلاً يَسِيـ ــر فِي الأقارِبِ وَالأبَاعِدْ

وَرَدَتْ بـهِ أطماعـهُ وَظُنونـهُ شرَّ المـوَارِدْ

وزحـف المنصـور نحـو تيهـرت ــ بعـد القبـض علـى أبي يزيـد ــ حيـث ضبـط الأمـور بهـا؛ وانتقـم مـن الخارجيـن عـن طاعـة الدولـة الفاطميـة؛ الأمـوات[1] منهـم والأحيـاء. وكذلـك الحـال في القيـروان؛ إذ نقـل ابـن عـذاري عـن ابـن حمـادوه خبـر عمليـات التنكيـل الـتي سلطهـا المنصـور علـى بعـض سكـان القيـروان.[2] ومـن إنجـازات المنصـور العمرانيـة تشييـده لمدينـة صبـرة الـتي سماهـا المنصوريـة؛ حيـث أمـر بالبـدء في بنائهـا سنـة 336هــ(947م)؛ إذ انتقـل إليهـا تاركـا المهديـة، الـتي تهدمـت جـل أحياؤهـا.

---

[1] قـال محمـد الصنهـاجي: ((ثـم انصـرف إسماعيـل إلى المسيلـة، وتوجـه منهـا إلى تاهـرت يـوم الثلاثـاء، لسـت بقيـن مـن صفـر مـن هـذه السنـة؛ فلمـا وصـل إليهـا أمـر بنبـش عظـام مصالـة وفضـل بـني حبـوس، وأحرقهـا بالنـار، وأحـرق منبـر جامعهـا؛ لكونـه خطـب عليـه لعبـد الرحمـن بـن محمـد (الخليفـة الناصـر الأمـوي) وأقـام بهـا أيامـا وولى عليهـا)). أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: 45.

[2] قال ابـن عـذاري: ((وقـال ابـن حمـادوه: "ولمـا ظفـر بـأبي يزيـد؛ نهـض إلى القيـروان؛ فدخلهـا في هـذه السنـة؛ فقتـل مـن أهلهـا خلقـا، وعـذب آخريـن؛ ولـم يزالـوا معـه في الامتحـان إلى أن هلـك")). البيـان المغـرب، ج: 1، ص: 220.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[1] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطيع. وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي ــ لعنه الله ــ في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي ــ رحمه الله ــ والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج ــ لعنه الله ــ ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.

ـ حكومة المعز لدين الله معد بن إسماعيل:

خلف المعز لدين الله والده إسماعيل في سدة الملك بإفريقية وبلاد المغرب سنة 341هـ(952م) كما جاء في أشهر الأقوال. وكان مولد هذا الخليفة بالمهدية سنة 319هـ(931هـ) ولما ولي الخلافة كان عمره في حدود اثنين وعشرين سنة. ويعتبر المعز من أشهر الخلفاء الفاطميين على الإطلاق؛ إذ شاع ذكره في العالم الإسلامي؛ نظرا لكونه أول من تغلب على مصر بالكامل، ونقل مركز الخلافة الفاطمية إليها. وتقول المصادر التاريخية أنه بدأ عهده في سنة 342هـ(953م) بالخروج إلى جبل أوراس في جيش عظيم؛ بغرض تأديب وإخضاع من بقي متمردا عن الدولة؛ من أتباع أبي يزيد. فسلط غضبه على قبيلتي: هوارة ومليلة المنحازتين ــ سابقا ــ إلى أبي يزيد؛ ولم تثنهم موته عن مواصلة العصيان، والخروج عن طاعة الدولة الفاطمية. وبعد أن حقق المعز هدفه نحو الخوارج ـ من بقايا أنصار أبي يزيد ــ اتجه صوب المغرب الأقصى؛ حيث بعث إلى تلك الديار سنة 347هـ(958م) خادمه الوفي ــ الذي بدأ نجمه يسطع؛ جوهر الكاتب ــ قصد تطويع القبائل المتمردة من زناتة ومكناسة وغيرهما.[1]

---

[1] قال المقريزي في تلخيص لخبر ابن الأثير: ((وفي سنة سبع وأربعين عظم أمر أبي الحسن جوهر عند المعز، وعلا محله، وصار في رتبة الوزارة؛ فسيره في صفر منها على جيش كثيف؛ فيهم الأمير زيري بن مناد

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ وضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1]

الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يُصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ـ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ـ 139.

وتحــرك الجيــش الفاتــح مــن القيــروان نحــو مصــر يــوم السبــت رابــع عشــر شهــر ربيــع الأول مــن سنــة ثمــان وخمسيــن وثلاثمائــة؛ فوصــل إلى مصــر في يــوم الثلاثــاء ثامــن عشــر شعبــان مــن السنــة نفسهــا.[1] وقــال محمــد بــن هــاني الأندلــسي مودعــا الجيــش ومادحــا جوهــر الكاتــب في قصيــدة طويلــة نذكــر منهــا:

رَأيتُ بِعيــنِي فوقَ مَا كنتُ أسمــعُ
وَقدْ رَاعــنِي يوْمٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ
غــدَاة كــأنَّ الأفــقَ ســدَّ بمثلــهِ
فَعَادَ غرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيثُ تَطــَعُ
فلــمْ أدْرِ إذْ سلمــتُ كيــفَ أشيــعُ
ولَــمْ أدْرِ إذْ شيعــتُ كيــفَ أوَدِّعُ
وَكيفَ أخُوضُ الجَيْشَ وَالجَيْشُ لُجَة
وَإنِّي بمنْ قدْ قــادَهُ الدَّهــرُ مُولــعُ
وَأينَ وَمَا لِي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلَــكٌ
وَلاَ لِجوَادِي فِي البسيطــةِ مَوْضِــعُ
ألاَ إنَّ هذَا حَشــدُ مَنْ لمْ يــذُقْ لــهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ وَلاَ باتَ يَهجــعُ

[1] النجــوم الزاهــرة، ج: 4، ص: 28.

نَصِيحَتــهُ لِلمُلــكِ سَدَّتْ مَذَاهِــبِي

وَمَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبَــعُ

فقدْ ضَرعَتْ مِنهُ الرَّوَاسِي لِمَا رَأَتْ

فكيفَ قلوبُ الإنس وَالأنسُ أضْــرَعُ

فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قَبلِ عَسْكــرِ جَوْهــرٍ

تخبُّ المَطايــا فِيهِ عَشراً وَتُوضِــعُ

تَسيــرُ الجبــالُ الجامِــدَاتُ بسيــرِهِ

وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفِيفِ وَتَرْكَــعُ

إذَا حــلَّ فِي أرْضٍ بَناهــا مَدَائنــاً

وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهْيَ بَلقعُ

إلى أن يقــول:

وَنودِيَ بِالترْحَالِ فِي فَحمةِ الــدُّجَى

فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصرِ تَرْدِي وَتَمــزَعُ

فلاَحَ لها مِنْ وَجْهــهِ البدْرُ طالِعــاً

وَفِي خــدِّهِ الشِّعرَى العبورُ تَطلــعُ

وَأضْــحَى مــرَدًّى بِالنجــادِ كأنــهُ

هِزَبرُ عَرِينٍ ضَــمَّ جَنبيــهِ أشجــعُ

فكبــرَتِ الفرْســانُ للـــهِ إذْ بــدَا
وَظـــلَّ السِّــلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقــعُ

ثــم أضــاف:

فسِــرْ أيها الملــكُ المطاعُ مُؤَيــداً
فلِدِّيـــــنِ وَالدُّنيــا إليــكَ تطلـــــعُ
وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقينِ خيفـــة
تكادُ لَهــا دَارُ السَّـــلاَمِ تضَعضـــعُ
وَأعطـــتْ فِلسْطِينُ القِيــادَ وَأهلُهـــا
فلـــمْ يبــقَ مِنهـــا جَانـــبٌ يَتمَنـــعُ
وَمَا الرَّمْلة المَقصُورَة الحَظْوِ وَحْدَهَـــا
بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنـــكَ مَفـــزَعُ
وَمَا ابْنِ عُبيْدَ اللـــهِ يَدْعوكَ وَحــدَهُ
غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ
بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غيْرَهُ
فـــلاَ أحـــدٌ إلاَّ يـــذِلُّ وَيخضـــعُ
وَإنَّ بأهــلِ الأرْضِ فقـــراً وَفاقـــة
إلَيـــكَ وَكلُّ الناسِ آتيــكَ مهطـــعُ

أَلاَ إنمَا البُرْهــانُ مَا أنتَ مُوضِــحٌ
مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أنتَ مُزْمِــعُ

رَحَلْــتَ إلَى الفسْطاطِ أيمنَ رِحْلــةٍ
بأيمنِ فــالٍ فِي الذِي أنتَ مُجْمِــعُ

ولَمَّا حَثَثْــتَ الجَيْــشَ لاَحَ لأهلِــهِ
طرِيــقٌ إلَى أقصَى خرَاسَانَ مَهيــعُ

ثــم قــال:

وَمَا جهِلتْ مِصرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لَهَــا
بِأنــكَ ذَاكَ الهبــرزِيُّ السميــذَعُ

وَأنــكَ دُونَ النــاسِ فاتــحُ قفلِهــا
فأنــتَ لهــا المرْجــوُّ وَالمُتوَقَــعُ

فإنْ يــكُ فِي مِصْرٍ رِجالُ حلومِهــا
فقدْ جَاءَهمْ نِيلٌ سِوَى النيــلِ يَهــرَعُ

وَيممهــمْ مَــنْ لاَ يَغيــرُ بنِعمــةٍ
فيسْلبهــمْ لكِــنْ يَزِيــدُ فيوسِــــعُ

ويبدو أن الذي شجع المعز لإرسال جيشه إلى مصر هو ما أصبحت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في مصر بعد موت كافور؛ إذ يقال أن بعض المصريين قد بعثوا إليه مستنجدين به، ومحفزين إياه لفتح البلاد، وطرد الاخشيذيين.[1] ولما أصبحت مصر في يد الفاطميين؛ بادر جوهر من يومه الأول إلى رفع الدعوة في المنابر باسم

---

[1] قال يوسف بن تغري بردي: ((كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذي؛ لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير ــ يومئذ ــ جعفر بن الفرات؛ فقلت الأموال على الجند؛ فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد؛ وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليه مصر؛ فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر؛ فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية؛ وأرسل إلى أهل مصر؛ فأجابوه بطلب الأمان، وتقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلى ذلك، وكتب لهم العهد. فعلم الإخشيذية بذلك؛ فتأهبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا على قتاله، وأمروا عليهم ابن الشويزني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في= =حادي عشر شعبان، ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصياديين، وأخذ مخاضة منية شلقان؛ ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب؛ فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: "لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله"!فعبر عريانا في سراويل وهو في موكب ومعه الرجال خوضا؛ والتقى مع المصريين، ووقع القتال بينهم، وثبت كل من الفريقين؛ فقتل كثير من الإخشيذية، وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم؛ وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب؛ فسكن الناس وفتحت الأسواق، ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده)). النجوم الزاهرة، ج: 4، ص ص: 30 ــ 31.

الخليفة المعز لدين الله الفاطمي؛ كما ألزم المؤذنين بإتباع نص الأذان المتبع عند الشيعة؛ وأمر بترك شعار السواد، ولبس الأبيض من اللباس. وبعدها أرسل بالبشرى إلى المعز يعلمه بما فتح الله له. فوصلت الأخبار إلى القيروان في رمضان من سنة 358هـ(968م).

وبهذا يكون قد امتد الزمن بالخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب؛ حتى حل عهد المعز لدين الله معد بن المنصور ـ وهو رابع ملوكهم ـ حيث استطاعت الدولة الفاطمية ـ في عهد هذا الخليفة ـ تحقيق أعظم إنجازاتها السياسية؛ إذ تمكنت من نشر سلطانها على ديار مصر كلها؛ ثم الحجاز وبلاد الشام بعد ذلك؛ ومن ثمة أصبحت تهدد الخلافة العباسية بحق. وما أن وصلت البشائر بالفتح؛ حتى أنشد شاعر البلاط الفاطمي؛ محمد بن هاني الأندلسي قصيدته الشهيرة التي قال فيها مادحا الخليفة المعز:

تقولُ بَنو العَبَاسِ هل فتِحَتْ مِصْرُ
فقلْ لِبنِي العباسِ قدْ قضِيَ الأمرُ

وَقدْ جاوَزَ الإسكِندَرِيةَ جوْهرٌ
تُطالعهُ البشرَى وَيَقدُمهُ النصْرُ

وَقدْ أوفدَتْ مِصرٌ إليهِ وُفودَها
وَزِيدَ إلَى المَعْقودِ مِنْ جسْرِها جِسرُ

فما جاءَ هذَا اليــوْمُ إلاَّ وَقدْ غــدَتْ

وَأيدِيكــمُ مِنها وَمِنْ غيرِها صِفِــرُ

فلاَ تكثرُوا ذِكرَ الزَّمانِ الذِي خــلاَ

فذَلكَ عصرٌ قدْ تقضَّى وَذَا عصْــرُ

أفِي الجيشِ كنتمْ تَمْترُونَ، رُوَيدَكــمْ

فَهذَا القنا العَرَّاصُ وَالجَحْفلُ المَجــرُ

وَقدْ أشرَفــتْ خيلُ الإلـــهِ طوَالعــاً

علَى الدِّينِ وَالدُّنيا كَما طلعَ الفجــرُ

وَذَا ابنُ نبيٍّ اللـــهِ يطلــبُ وِتــرَهُ

وَكانَ حــرٍ أنْ لاَ يضيعَ لـــهُ وِتــرُ

ذَرُوا الورْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِـــهِ

فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تَمنَعُونَ وَلاَ الغمــرُ

أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بَعدَمَــا

تَجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونهـــا سِتــرُ

وَمـــا هِيَ إلاَّ آيــة بعــدَ آيــــةٍ

وَنـــذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنِيكــمُ النــذرُ

فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أوِ ارْعـــوُوا

إلَى مَلِكٍ فِي كفــهِ المَوْتُ وَالنشــرُ

أطيعـوا إمامـاً للأئمـةِ فاضـلاً
كما كانتِ الأعمـالُ يفضُلهـا البـرُّ
رِدُوا سَاقِيـاً لاَ تنزِفـونَ حِياضـهُ
جموماً كما لاَ تنزِف الأبحرُ الـذُّرُّ
فإنْ تتبعـوهُ فهوَ موْلاَكـمُ الـذِي
لهُ برَسـولِ اللـهِ دُونكـمُ الفخـرُ
وَإلاَّ فبعـداً لِلبعِيـدِ فبينـهُ
وَبينكـمُ مـا لاَ يقرِّبـهُ الدَّهـرُ
أفِي ابنِ أبِي السِّبطَينِ أمْ فِي طلِيقِكمُ
تنزَّلـتِ الآيـاتُ وَالسـوَرُ الغـرُّ؟

ومـا أن استقـر جوهـر في مصـر؛ حـتى بـادر إلى بنـاء جامـع الأزهـر، وبعـض الأحيـاء مـن المدينـة الـتي سماهـا القاهـرة؛ حسـب وصيـة المعـز. ثـم جـرد في سنـة 359هـ(969م) جيشـا بقيـادة جعفـر بـن فـلاح الكتـامي لفتـح بـلاد الشـام؛ فكـان لـه ذلـك؛ إذ تمكـن ذلـك القائـد الكتـامي مـن أسـر الحسـن بـن عبـد اللـه ابـن طغـج بالرملـة؛ ثـم زحـف عـلى طبريـة ودمشـق؛ فصالـح الأولى وتغلـب عـلى الثانيـة بسيـف القـوة والقهـر. وفي سنـة 361هـ(971م) تحـرك المعـز لديـن اللـه نحـو مصـر؛ تاركـا بـلاد المغـرب بيـن أيـدي

الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ــ بشكل أوسع ــ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق

وينمو إلا عندما تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية في وضع جيد. لذا فقد كانت منجزات الدولة الفاطمية: العمرانية والثقافية في بلاد المغرب؛ تتم في محيط قبلي ضيق، ومنغلق على نفسه؛ وقد ازداد تضييقا وانغلاقا بسبب التوجه المذهبي المتعصب لأصحاب الدولة الفاطمية؛ ذلك التوجه المبني على أساس أن الدولة الفاطمية كانت تستخدم الثقافة باستمرار لتحقيق أغراض سياسية وعسكرية ومذهبية؛ تلك الأغراض التي حرصت الدولة الفاطمية على ترسيخها وتمتين أسسها؛ لكي تحقق سيطرة وهيمنة مذهبها الشيعي في كامل أقطار المغرب.

ويتضح هذا التوجه من خلال ما استحدث وأنجز من منشآت عمرانية في هذه الربوع؛ إذ كل ما أنجز في ظل الدولة الفاطمية ببلاد المغرب؛ يخدم بالأساس أهدافا عسكرية وسياسية قبل كل شيء؛ فالمدن ـ مثلا ـ التي بنيت في تلك الفترة كـ: المهدية والمحمدية والمنصورية؛ كلها تدخل في هذا المعنى. وما أستحدِث أيضاً من أعمال ثقافية؛ كانت كلها تخدم المذهب الشيعي فقط؛ بل كان القائمون على هذه الدولة يقمعون كل إنجاز ثقافي يخالف تعاليم مذهبهم. إذ وصل بهم الحد إلى إتلاف كل الأعمال التي كانت قائمة قبل دولتهم، تلك الأعمال التي تتعارض مع معتقداتهم المذهبية؛ من ذلك مثلا ما قاموا به تجاه مكتبة المعصومة

بتيهرت؛ التي يقال – إن صح الخبر – أن أبا عبد الله – الداعية الشيعي – أتلف معظم مجلداتها؛ التي تبلغ نحو الثلاثمائة ألف من المجلدات؛ ولم يترك منها سوى الكتب التي وجد انه سيستفيد منها؛ وهي الكتب ذات الطابع العلمي والتقني؛ ويقال أن ما حدث للمعصومة حدث أيضا لمكتبة الأغالبة بالقيروان. ومع ذلك فقد استفادت الدولة الفاطمية واستعانت بما ورثته عن الدول التي تغلبت عليها في بلاد المغرب؛ مثل: الدولة الأغلبية والدولة الرستمية والدولة المدرارية والدولة الإدريسية وغيرها؛ من إنجازات عمرانية، وتراث علمي وثقافي؛ إذ استولى الفاطميون على خزائن الكتب التي وجدت في تلك الدول المنهارة. كما أن جل علماء الدولة وأدبائها وشعرائها؛ ورثتهم عن دولة القيروان؛ وحتى كبار موظفيها وفقهائها كانوا من أتباع الدولة الأغلبية قبل ذلك؛ وإن كان بعضهم ينتمي – في السابق – إلى مذاهب غير المذهب المالكي؛ مثل: الفقيه إسحاق بن أبي المنهال؛ المتمذهب بالحنفية قبل ظهور الشيعة. والفقيه علي ابن منصور الصفار؛ الذي كان من أتباع سعيد ابن الحداد، والفقيه عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن البردون؛ الذي كان مالكيا من قبل، والفقيه أبي بكر بن سليمان؛ الحنفي المذهب كذلك؛ وغيرهم.

وجملــة القــول إنــه كــان لهــذه الدولــة ببــلاد المغــرب نشــاط ثقــافي معيــن؛ في حــدود مــا يسمــح بــه المذهــب الشيــعي؛ حيــث عمــل أصحــاب الدولــة عــلى نشــر مذهبهــم الشيــعي بواسطــة الدعــاة والخطبــاء؛ وبواسطــة المــدارس الــتي أنشئــت في ربــوع الدولــة؛ بغــرض تعليــم الصغــار والكبــار مبــادئ المذهــب الإسماعيــلي؛ وهي المــدارس الــتي عرفــت بمــدارس الدعــوة. كمــا كــان لــلآداب والشعــر حظــوة لــدى ملــوك الدولــة وأمرائهــا. حيــث كــان أئمــة الدولــة يقرضــون الشعــر ويتذوقونــه؛ بــدءا بعبيــد اللــه المهــدي؛ الــذي يعتبــر هــو نفســه مــن علمــاء الشيعــة الباطنيــة؛ ويقــال أنــه ألــف بعــض الكتــب؛ منهــا كتــاب الأســرار. كمــا كــان يقــرض الشعــر أحيانــا. ومــن الشعــر المنســوب إليــه هــذه الأبيــات الــتي بعــث بهــا لسعيــد بــن صالــح صاحــب نكــور يتوعــده:

فإنْ تَستقيمــوا أستقــمْ لِصَلاَحكــمْ
وَإنْ تعدِلوا عنِّي أرَى قتلكــم عــدْلاَ
وَأعلــو بسيــفِي قاهــراً لسيوفكــم
وَأدْخلهــا عفــواً وَأملؤُهــا قتــلاَ

ثــم إن الداعيــة أبــا عبــد اللــه الشيــعي ــ أيضــا ــ كــان مــن العلمــاء المتفقهيــن في المذهــب الإسماعيــلي؛ وقــد عــرف بالقــدرة عــلى الإقنــاع؛ والتمكــن مــن فنــون الخطابــة؛ وحــب الآداب. وكــان ولــده أبــو القاسـم يقــرض الشعــر أيضــا. كمــا اشتهــر كذلــك إسماعيــل المنصــور بالفصاحــة والبيــان، وبالتفنــن في الخطابــة، والقــدرة عــلى اختــراع الخطبــة ارتجــالا في حينهــا. أمــا المعــز لديــن اللــه فقــد كــان يحســن عــدة لغــات؛ منهــا: العربيــة والأمازيغيــة واللاتينيــة والصقلبيــة والإسبانيــة والسودانيــة؛ وكــان يقــول: ((**واللــه مــا تلــذذت بــشيء تلــذذي بالعلــم والحكمــة**)). ويقــول فيــه القــاضي النعمــان: ((**نظــر في كــل فــن وبــرع في كــل علــم**)). وهــو إلى جانــب كــل ذلــك يقــرض الشعــر؛ ومــن شعــره:

أطلــعَ الحسنُ مِنْ جبينــكَ شمســا
فــوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيــك أظــــلاَّ
وَكأنَّ الجمــالَ خــافَ عَلَى الــوَرْ
دِ جفافــاً فمــدَّ بالشعــرِ ظــلاَّ

وتنســب إليــه هــذه الأبيــات أيضــا:

لِلــهِ مَــا صَنعــتْ بنــــا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجــرْ

أمضَى وَأقــضَى فِي النفــو

سِ مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ

وَلَقــدْ تعبـــــتُ ببينكـــــمْ

تعب المهاجرِ فِي الهوَاجــرْ

هــذا ويحتــل عصــر المعــز ــ في بــلاد المغــرب ــ الــذروة في مجــال نشــر العلــم والأدب والفنــون. ومــع هــذا يبــدو أن الشعــر كــان هــو الفــن الأكثــر حظــوة واستحسانــا لديــه، ولــدى حكــام الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب؛ لأنــه ــ في نظرهــم ــ كــان بمثابــة الســلاح الــذي يستخــدم في الدعايــة للدولــة ومذهبهــا؛ كمــا يستخــدم لتشويــه صــور الأعــداء في أذهــان النــاس. وكمــا كــان المعــز شغوفــا بالعلــوم وحفــظ اللغــات، ومحبــا للآداب والشعــر؛ فقــد ســار عــلى نهجــه جــل أبنائــه؛ فهــذا ولي عهــده العزيــز باللــه؛ الــذي ولــد في المهديــة سنــة 344هــ(955م)؛ كــان يجيــد ــ كوالــده ــ لغــات عديــدة؛ ويتمتــع أيضــاً بــذوق فــني رفيــع؛ وقــد أبــدا تسامحــا جليــلا في قضايــا الديــن والمذهــب؛ واعتــنى بنشــر العلــوم؛ إذ يعتبــر هــو صاحــب المبــادرة في جعــل الأزهــر منــارة للعلــم بمصــر.

وكـان أيضـاً يجيـد قـول الشعـر؛ ومـن شعـره هـذه الأبيـات الـتي نظمهـا في يـوم عيـد؛ جلـس فيـه للعـزاء بسبـب مـوت ولـد لـه:

نحـنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحـنٍ
جرِّعهـا فِي الحيـاةِ كاظِمنـا
عجيبـةٌ فِي الأنـامِ محنتنـا
أوّلنـا مبتـلى وَآخرُنـا
يفـرَحَ هـذَا الـورَى بعيدِهـمْ
طـراً وَأفرَاحنـا مآتمـا

واشتهـر أيضـا ــ مـن بيـن أبنـاء المعـز ــ ولـده تميـم الـذي بـرع في الآداب وتفنـن في قـرض الشعـر؛ وهـو مـن مواليـد المنصوريـة سنـة 337هـ(948م). ولكنـه انغمـس في اللهـو والمجـون؛ وقـد تعـددت الأغـراض الـتي تناولهـا في شعـره؛ ومـن شعـره:

مَا بانَ عذْرِي فيـهِ حـتَّى عـذِّرَا
وَمـشَى الـدُّجَى فِي خدِّهِ فتحيَـرا
همـتْ تقبلـهُ عقـاربُ صُدْغِـهِ
فاسْتـلَّ ناظِـرُهُ عليهـا خِنجـرا
وَاللـهِ لـوْلاَ أنْ يقـالَ تغيـرَا
وَصَبا وَإنْ كانَ التصَـابِي أجـدَرَا

لأعــدْتُ تفــاحَ الخــدُودِ بنفسَجــاً
لثمــاً وكافــورَ الترَائــبِ عنبــرَا

ومــن شعــره أيضــا:

أما وَالذِي لاَ يملــكُ الأمــرَ غيــرُهُ
وَمنْ هــوَ بالســرِّ المكتــمِ أعلــمُ
لئــنْ كانَ كتمَانُ المَصَائبِ مُؤلِمــاً
لإعلاَنهــا عنــدِي أشــدُّ وَآلـــمَ
وَبي كلُّ مَا يبــكِي العيــونَ أقلــهُ
وَإنْ كنــتُ منــهُ دَائمــاً أتبســـمُ

ولــه كذلــك:

وَمَا أمٌّ خشفٍ ظــلَّ يوْمــاً وَليلــةٍ
ببلقعــةٍ بيــدَاءَ ظمــآنَ صادِيــا
تَهيــمُ فلاَ تــدرِي إلَى أينَ تنتــهِي
مُولَهــة حيــرَى تجوبُ الفيافيــا
أضَــرَّ بها حرُّ الهجيــرِ فلمْ تجــدْ
لغلتهــا مِــنْ بــاردِ المــاءِ شافيــا
فلَمَّا دَنتْ مِنْ خِشْفِهَا انعَطفــتْ لــهُ
فَألفتــهُ ملهــوفَ الجوَانــحِ طاوِيــا

بأوْجَــعَ منِّي يوْمَ شــدَّتْ حمولهــمْ
وَنـــادَى منادِي الحيِّ أنْ لاَ تلاَقيــا

ومــن شعــره أيضــا هــذه الأبيــات:
يــومٌ لنا فِي النيــلِ مختصــرٌ
وَلكــلِّ يــوْم مســرَّةٍ قصــرُ
وَالسفــنُ تصْعدُ كَالخيولِ بنــا
فيــهِ وَجيــشُ المــاءِ ينحــدِرُ
فكأنمـــا أموَاجــهُ عكـــنٌ
وكأنمـــا دَارَاتـــهُ ســـرَرُ

وممــا قــال أيضــا:
اشرَبْ علَى غيمٍ كصبِغِ الــدُّجَى
أضحكَ وَجهَ الأرْضِ لما بــكَى
وَانظــرْ لماءِ النيــلِ فِي مــدِّهِ
كأنمــا صنــدل أوْ مسكـــا

ومــن شعــره الــذي يفتخــر فيــه:
أنا ابنُ المعــزِّ سليــل العــلا
وَصِنــوُ العزِيــزِ إمام الهــدَى

سمـــا بي معــدٌ إلَى غايـــةٍ
مِنَ المَجـدِ مَا فوقهـا مرتــقَى
فرُحـــتُ بها فاطِــمِيٌّ النجــارِ
حسينيـــهُ علـــــوِيٌّ الجــنى
وَمَا احتجتُ يوْمـــاً إلَى ناصِــرٍ
وَلاَ رُحتُ يوْماً ضَعِيف القــوَى

وقــد بــرز في هــذه الدولــة كذلــك شعــراء محترفــون، وآخــرون جعلــوا مــن الشعــر وسيلــة للترويــح عــن النفس، والتعبيــر عمــا تنطــوي عليــه صــدورهــم مــن مشاعــر وأفكــار. وضمــت أيضــا إليهــا عــددا كبيــرا مــن العلمــاء في الديــن واللغــة، وقــادة عسكرييــن وأمــراء يهتمــون بالعلــم والثقافــة. وفي هــذا السيــاق نذكــر أهــم علمــاء الدولــة الفاطمييــن في الفتــرة المغربيــة؛ وأولهــم بالطبــع هــو:

ــ أبــو عبــد اللـــه الحسيــن بن أحمــد بن محمد بن زكريـــاء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيــعي: ويعتبــر هــذا الداعيــة المتميــز هــو المؤســس الحقيــقي للدولــة الفاطميــة. وكــان أبــو عبــد اللـــه الشيــعي ــ كمــا لا يخــفى ــ مــن العلمــاء البارزيــن في المذهــب الشيــعي؛ كمــا كــان خطيبــا قــوي الحجــة. وقــد وصفــه ابــن الأثيــر بقولـــه: ((**وكــان لـــه علــم وفهــم ودهــاء**

ومكـــر)).[1] ويقـــول المقريـــزي أن أصلـــه مـــن رَامَ هُرْمُـــزْ بخراســـان؛ وولـــد بالكوفـــة؛ غيـــر أن بعضهـــم كابـــن الأثيـــر ينسبـــه إلى اليمـــن؛ إذ يسميـــه الصنعـــاني نسبـــة إلى صنعـــاء. وثمـــة مـــن يقـــول أنـــه اشتغـــل ــ في بدايـــة الأمـــر ــ في التعليـــم؛ حيـــث كـــان مـــن العلمـــاء المعلميـــن في مذهـــب الإماميـــة الباطنيـــة. بينمـــا يقـــول آخـــرون أنـــه كـــان محتسبـــا في ســـوق الغـــزل بالبصـــرة.[2] ويقـــول عنـــه القـــاضي النعمـــان بـــن محمـــد: ((**كـــان أبـــو عبـــد اللـــه هـــذا مـــن الكوفـــة؛ واسمـــه الحسيـــن بـــن أحمـــد بـــن محمـــد بـــن زكريـــا؛ وكـــان ذا علـــم وعقـــل وديـــن وورع وأمانـــة ونزاهـــة؛ وكـــان أكثـــر علمـــه الباطـــن؛ ونظـــر في علـــم الظاهـــر نظـــراً لـــم يبالـــغ فيـــه))**.[3] ويقـــال أنـــه اتصـــل بالإمـــام محمـــد بـــن جعفـــر؛ فأعجـــب بـــه، وبعثـــه إلى أبي القاســـم بـــن حوشـــب داعيـــة الشيعـــة في اليمـــن؛ حيـــث أكمـــل أعـــداده هنـــاك للقيـــام بالمهمـــة الـــتي تنتظـــره؛ وذلـــك مـــا تجـــلى مـــن خـــلال تكليفـــه بأمـــر الدعـــوة في بـــلاد المغـــرب.

---

[1] الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص: 127.

[2] اتعـــاظ الحنفـــا، ص: 68.

[3] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص: 59.

وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[1] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد

---

[1] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ـ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ـ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثُّلْمة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخْلُبهم بما أوتِيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البِرّ؛ فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 124 ـ 125.

الله؛ حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأغلبية السنية وإعلان قيام الدولة الفاطمية الشيعية.

ـ **ثم أبو جعفر محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المَرْوَرُذي أو مروُّذي:** وهو منسوب إلى مَرْو الروذ في خراسان. وقد اختلفت المصادر في رسم اسمه وفي تسلسل آبائه؛ ويقال أنه كان من جند خراسان. وقد كان من علماء المذهب الحنفي في القيروان[1] قبل ظهور الفاطميين؛ إلا أنه أصبح من المتعصبين للمذهب الشيعي؛ عندما تغلب الفاطميون على القيروان؛ خاصة وأن له ـ من قبل ـ ميلا للشيعة. ولما دخل أبو عبد الله الشيعي للقيروان مسقطا بذلك دولة الأغالبة؛ ولاه ـ مؤقتا ـ قضاء القيروان؛ ثم أقره في منصبه عبيد الله المهدي؛ ولكنه انقلب عليه فيما بعد؛ خاصة بعد مقتل عبيد الله الشيعي؛ وذلك بعد اتهامه بانتقاد الدولة ومعارضة المهدي؛ لذا فقد قبض عليه ورمي في إسطبل مقيد الأيدي والأرجل؛ فقتلته الدواب بحوافرها. وهكذا مات تحت العذاب في محبسه برقادة سنة 303هـ(919م) على الرغم من ولائه وإخلاصه وتفانيه في نشر المذهب الشيعي. ويقول فيه ابن عذاري: ((**ولَّى أبو عبد الله على قضاء مدينة القيروان محمد بن عمر بن يحيى بن عبد**

---

[1] تراجم أغلبية، ص: 516.

الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ــ أصلحك الله ــ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو احْتَلتَ في ترك صيامه؛ لَكفيتنا مَؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عنِّي يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

---

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ــ 152.

ـ **ثم إسحاق بن أبي المنهال:** وهو من أسرة معروفة بالعلم والجاه في القيروان، ومن العاملين في خدمة الدولة الأغلبية؛ وكان من قبل حنفي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي؛ مثله مثل المروذي وبعض فقهاء الحنفية الآخرين. ويقال أنه ولي قضاء صقلية أيام بني الأغلب؛ قبل أن يلتحق بخدمة الدولة الفاطمية؛ في المنصب نفسه بصقلية عند قيام الدولة؛ ثم ولاه عبيد الله المهدي خطة القضاء ـ بعد المروذي ـ في فترتين: الأولى من 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانية من 312هـ(924م) إلى أن مات في عهد ولده أبي القاسم. وذكر ابن عذاري السبب في عزله من منصبه وعودته إليه؛ فقال: **((وفي سنة 311هـ عزل عبيد الله إسحاق بن المنهال عن قضاء مدينة القيروان؛ يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة؛ وأخرج إليه عبيد الله من قال له: "لم نعزلك عن حرجة؛ وإنما عزلناك للينك ومهانتك". وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي؛ وكان قبل ذلك في قضاء مدينة إطرابلس؛ فجمع بها أموالا كثيرة من الرِّشى والأحباس، ورفعها إلى عبيد الله؛ فكانت له وسيلة إليه)).**[1]

---

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص: 188.

أما عودته إلى منصبه فيقول ابن عذاري عنه: **((وفي هذه السنة [سنة 312هـ] مات بالقيروان القاضي محمد بن عمران النفطي؛ في شهر ربيع الأول؛ وكان يرتشي على الأحكام، ويستهتر في ضروب المنكر. فولى عبيد الله القضاء مكانه إسحاق ابن أبي المنهال مرة ثانية؛ وكتب في عهده: "وإنما كنا عزلناك للينك ومهانتك؛ ورددناك لدينك وأمانتك"))**.[1] وتجمع جل المصادر على أن إسحاق ابن أبي المنهال هذا قد سار على نهج المروذي في اضطهاد فقهاء المالكية والتنكيل بهم.

ــ ثم أبو حنيفة القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي: ولد هذا الفقيه بالقيروان سنة 302هـ(914م) ضمن أسرة تنتهج المذهب المالكي؛ ولنكه اختار ــ عندما كبر ــ المذهب الإسماعيلي؛ حيث أصبح أبرز فقيه إسماعيلي بالمغرب؛ بل أهم منظر في أصوله؛ إذ كان المجتهد الأول في الفقه الإسماعيلي أيام الدولة الفاطمية؛ حيث يعتبر هو الواضع الحقيقي لأسس الفقه الإسماعيلي؛ وذلك ضمن كتابه دعائم الإسلام. هذا وقد شغل في الدولة الفاطمية وظيفة قاضي القضاة في عهد الخليفة المعز لدين الله؛ علما بأنه عمل في ميادين علمية عديدة خلال الفترة المغربية من حكم آباء

---

[1] **البيان المغرب،، ج: 1، ص: 189.**

المعز. ومن مؤلفاته: رسالة افتتاح الدعوة، وكتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وشرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، وتأويل دعائم الإسلام، وتأويل الشريعة، وكتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة، وكتاب المجالس والمسايرات. هذا وكانت وفاته بمصر سنة 363هـ(973م).

ـ ثم أبو اليَسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي: وهو من الأدباء البارزين في القيروان. ويرجع في أصوله إلى بغداد. وكان مكلفا ـ في زمن الأغالبة ـ بديوان الرسائل؛ ثم وأسندت إليه مهمة الإشراف على بيت الحكمة؛ وذلك إلى جانب ديوان الإنشاء. وذكر ابن عذاري حكاية طريفة وقعت له عندما ذهب إلى الأندلس؛ قال فيها: ((**وكان** [أي أبو اليسر] **ظريفا، أديبا، مُرَسلاً، شاعرا، حسن التأليف؛ وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن** [الأموي] **ـ رحمه الله ـ بكتاب اخترقه إليه على ألسِنةِ أهل الشام؛ فتقبله الإمام محمد، وأنزله، ووسع عليه، ووصله؛ وأطلع على أن الكتاب مختَرَقٌ مصنوع؛ فلما أراد أبو اليسر الانصراف؛ دُفع إليه كتابٌ مختومٌ؛ جواباً عن كتاب أهل الشام فيما أرى.**

فلما جاز البحر؛ فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه؛ فإذا هو بياضٌ؛ وليس فيه إلاَّ: "بسم الله الرحمن الرحيم". فعلم أنَّ تمويهه لم يَجزْ؛ وأن الذي أعطِيَ وحبي عن تكرم وفضل؛ وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله؛ وحدث بما عرض له، وعجب الناس منه. وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم؛ ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث، وكتاب في القرآن سماه "سراج الهدى"، وله كتاب "لقيط المرجان" ورسالة "الوحيدة المؤنسة"، و"قطب الأدب"؛ وغير ذلك من الأوضاع)).[1] هذا وتوفي أبو اليسر في سنة 298هـ(910م)

ـ ثم أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي: كان هذا الرجل بمثابة وزير في دولة عبيد الله المهدي؛ وقد لعب دورا أساسيا في الإيقاع بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويقال أنه كان ـ من قبل ـ يشتغل في ديون بني العباس ببغداد؛ ثم فر إلى عبيد الله المهدي؛ حيث انضم إليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ فكلفه بمهمة القيام بنشر الدعوة في بلاد الأندلس؛ ولما نشأت الدولة الفاطمية برقادة التحق بها. وقد تولى ـ في

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 162 ـ 163.

البداية ــ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هـ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ــ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ــ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ــ بدهائه ــ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ــ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ــ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

ــ **أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني:** وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: ((**وكان أول من مدحه** [أي عبيد الله] **منهم** [أي الشعراء] **وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه** [أي عبيد الله]

وإنشاده ما قال فيه؛ وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم؛ فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قِفْ بِالمطِيِّ عَلَى مرَابعِ دُورِ
لبِسَتْ مَعالمِهنَّ ثوبَ دُثُورِ
لَعِبتْ بِها حتَّى مَحَتْ آثارَها
رِيحانُ: رِيحِ صَبا ورِيحِ دُبورِ

فلما انتهى إلى قوله:

وَسَفِيهةٍ هبتْ تَصُدُّ عَنِ النوَى
وَيدُ النوَى مَلَكتْ عَنانَ مَسِيرِي
خافتْ عَليَّ مِنَ الخطوبِ لأنني
مِنْ قبلُ غِبتُ فأبتُ بَعدَ دُهورِ
ثمَّ اجتمَعنا بَعدَ ذَاكَ فيَالها
مأسورَة جمعتْ عَلَى مَأسُورِ

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه؛ فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل؛ فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أعَنِ ابْنِ فاطِمَةٍ تَصُدِّينَ امرءاً
بنتِ النبيِّ وَعترَةِ التطهيرِ

كـــفِّي عَـــنِ التثبيـــطِ إنِّـيَ زَائِـــرٌ
مِنْ أهلِ بَيـــتِ الوَحْيِ خيرَ مُـــزُورِ

فقـــال لـــه أبـــو عبـــد اللـــه ـــ وكـــان بيـــن يـــدي المهـــدي ـــ صدقـــت هـــو افضـــل العالميـــن؛ فقبـــل سعـــدون الأرض بيـــن يـــدي المهـــدي عليـــه الســـلام، ومـــرّ فيهـــا حـــتى انتـــهى إلى قولـــه:

هذَا أميـــرُ المُؤمنيـــنَ تَضَعْضَعـــتْ
لقدُومِـــهِ أركـــانُ كـــلّ أميـــرِ
هذَا الإمـــامُ الفاطـــميُّ وَمـــنْ بـــهِ
أمنـــتْ مغاربهـــا مِـــنَ المَحـــذُورِ
وَالشـــرقُ ليسَ لشَامِـــهِ وَعِرَاقـــهِ
مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِـــهِ المَنصُـــورِ
حَتَّى يَفـــوزَ مِنَ الخِلاَفـــةِ بالمـــنَى
وَيفـــازَ مِنـــهُ بعدلـــهِ المَنشـــورِ

فقـــال أميـــر المؤمنيـــن: "مـــا شـــاء اللـــه"؛ ومـــرّ فيهـــا إلى أن ذكـــر أبـــا عبـــد اللـــه فقـــال:

يا مَنْ تَخيـــرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتـــهِ
أرْجاهـــمُ لِلعسْـــرِ وَالميســـــورِ

حتَّى استمـــالَ إليـــهِ كــلَّ قَبيلـــةٍ

ورَمَى إليـــهِ قيـــادَ كـــلِّ عشـــورِ

أشْبَهـــتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ الـــتِّي

تلـــقَى فتلقـــفُ كلَّ إفـــكٍ سُحـــورِ

فنظـــر المهـــدي إلى أبي عبـــد اللـــه وتبســـم؛ فقبـــل أبـــو عبـــد اللـــه الأرض؛ قـــال للورجيـــني: "أنـــا دون ذلـــك بعـــد مـــا بيـــن السمـــاء والأرض". فأمـــر لـــه [أي للشاعـــر] **أميـــر المؤمنيـــن بصلـــة جزيلـــة، وبـــأن يجـــرى عليـــه لكـــل عـــام؛ ووصلـــه أبـــو عبـــد اللـــه أيضـــا))**.[1]

وكـــان سعـــدون الورجيـــني هـــذا قـــد تعـــرض ــ أيـــام الأغالبـــة ــ للأســـر مـــن طـــرف النصـــارى؛ ثـــم وجـــد مـــن افتـــداه. فلمـــا وصـــل إلى صقليـــة مـــن القسطنطينيـــة؛ وهـــو في حـــال يـــرثى لهـــا؛ تمكـــن مـــن الدخـــول عـــلى والي صقليـــة أبي الحسيـــن محمـــد بـــن الفضـــل؛ وكـــان هـــذا الـــوالي مـــن أفاضـــل القـــوم ومـــن أدبائهـــم وشعرائهـــم المجيديـــن؛ فواتتـــه فرصـــة ذهبيـــة حيـــن عـــرض كاتـــب ابـــن الفضـــل بيتيـــن قالهمـــا سيـــده عـــلى الشعـــراء الجالسيـــن؛ طالبـــا منهـــم الزيـــادة عليهمـــا بأبيـــات تناسبهمـــا. والبيتـــان همـــا:

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: **254 ــ 256.**

تَثــنَى فَقلتُ: الغُصْن مِنــهُ تعلمــا

وَأزْرَى بِحُسنِ البــدْرِ حينَ تبَسَّمــا

هـــلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ

بتصويِـــرِهِ إيـــاهُ لمـــا تجسمـــا

فبـــادر سعـــدون الورجيـــني فـــورا قائـــلا:

تتاثـــرَ مِنـــهُ الـــدُّرُّ لمـــا تكلمـــا

وَأبصـــرَهُ بـــدْرُ السمـــاءِ فأظلمـــا

هـــلاَلٌ كستـــهُ الشَّمسُ حلة وَجْهـــهِ

وَأهـــدَى إليهِ الغصْـــنُ قداً منعمـــا

سقـَـانِي بكفِّ الحُسنِ كأسَ صُبابـــةٍ

وَوَكـــلَ بِي قلبـــاً عليـــلاً متيمـــا

فما زِلـــتُ أشْكوهُ إلَى حُسنِ وَجْهـــهِ

بخطِّ يدِي حتَّى بـــكَى قلـــبِي دَمـــا

وَمسمعـــة لمـــا رَأتْ ذُلَّ موقـــفِي

لدَيـــهِ تغنـــتْ كَيْ يـــرَقَّ وَيرْحمـــا

((تثـــنَى فقلتُ: الغُصْن مِنهُ تعَلَّمـــا

وَأزْرَى بِحسنِ البـــدْرِ حينَ تبسمـــا))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالـــتْ مُجيبـــة
وَأوْميـــت بعينيهـــا إلي ليفهمـــا
((هلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ
بتصويـــرِهِ إيـــاهُ لمـــا تجسمـــــا))

فأعجـب كاتـب محمـد بـن الفضـل ببديهتـه وحسـن طريقتـه؛ فكافـأه بصـرة مـن الدنانيـر؛ أصلحـت حالـه، وفكـت حاجتـه.

ويبـدو أن سعـدون الورجيـني هـذا كـان مـن الشعـراء المعروفيـن في الدولـة الأغلبيـة؛ وقـد ورد ذكـره في ريـاض النفـوس للمالـكي، وفي مـدارك القـاضي عيـاض؛ حيـث نشـرت فيهمـا قصيـدة لـه رثـا بهـا العالـم الصالـح الزاهـد يحـيى بـن عمـر بـن يوسـف الأندلـسي؛ جـاء فيهـا:

عيـــنُ ألـــمَّ بهـــا وَجـــدٌ فلـــمْ تنـــمِ
تبكِي بدَمْـــعٍ كنظمِ الـــدرِّ منسَجـــمِ
مدَامع الصَّـــبِّ أقـــلاَمٌ تخـــطُّ بهـــا
أيدِي الصَّبَابةِ مَا بِالقلـــبِ مِنْ سَـــدَمِ
لفـــظُ الضَّمِيرِ لِسَانُ الدَّمعِ ترْجمَـــهُ
حَتَّى بَـــدَا كلُّ سِـــرٍّ فِيـــهِ مُنكتِـــمِ

لوْلاَ المَدَامِــعُ لــمْ يعْلــمْ بلوْعتــهِ

يُخفِي تبارِيحَ وَجدٍ غيــر مُنْصــرمِ

وَهلْ تلــذُّ بطعمِ النوْمِ مُقلــة مَــنْ

كستــهُ كــفُّ الرَّزَايــا حلة السَّقــمِ

وَكلُّ جَارِحَــةٍ مِنْ جسْمِــهِ قدَحــتْ

فِيها يــدُ البــثِّ نيرَانــاً مِنَ الألــمِ

لمْ يعــدَمِ الحــزْنَ إلاَّ أنَّ مهجتــهُ

قدْ أبدِلتْ مِنْ سُرُورِ العَيشِ بِالعَــدَمِ

تأبَى الليالِي علينا أنْ تــدُومَ عَــلَى

جَمعٍ مِنَ الشمْلِ أوْ سَــدٍّ مِنَ الثلــمِ

لاَ لوْمَ إنْ كنتُ بَعدَ الثكــلِ لمْ أنــمِ

لوْ ذَاقَ مَنْ لاَمنِي مَا ذُقــتُ لمْ ينــمِ

أنَّى يجيبُ إلَى جَنبِ الكرَى رَجُــلٌ

قدْ أفرَدَتهُ المَنايا مِــنْ ذَوِي الرَّحِــمِ

عَجبتُ أنْ لمْ أمُتْ حُزناً وَقدْ دَفنــتْ

كفَايَ فِي التربِ أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ

يا مَــوْتُ أثكلتِنــا يَحيَى وكانَ لنــا

فِي بَلدَةِ الغربِ مِثل البَدرِ فِي الظلمِ

يَنجابُ عَنا بهِ غيــمُ الخنــا وَمَــتَى
نقِــسْ بهِ الناسَ فَضلاً كانَ كَالْعَلَــمِ
مَا كانَ إلاَّ سراَجاً يُستضــاءُ بــهِ
فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلُــمِ
وَكانَ يَحْيَى ــ إذَا خفنا ــ لنا حَرَماً
نلجَأ إليهِ، فقــدْ صِرنا بــلاَ حَــرَمِ
وَكانَ يَحيَى لنا سَيفــاً يُعــزُّ بهِ الــ
ــدِّينُ الحَنيفُ وَيُحمَى كلُّ مُهتضَــمِ
وَكانَ يَحــيَى لنا فِي الزَّائغيــنَ إذَا
ضَلوا لِسانــاً يُبينُ الحــقَّ عَنْ أمَــمٍ
وَكانَ يَحيَى لنا حِــرْزاً، وَكانَ لنــا
كنــزاً، وَكانَ لنا كالغيــثِ فِي الأزَمِ
لتبكِ يَحــيَى عيــونٌ بِالدَّمــعِ فــإنْ
غاضــتْ مَدَامِعهــا فلتبكــهِ بــدَمِ
أبكِي عَلى العِلمِ وَالتقوَى بهِ اجْتمَعــا
وَمَنْ مَضَى وَهوَ أوفَى الناسِ بالذِّممِ
أبكِي عَلَى الحِلمِ ثــوْبٌ كانَ يَلبَسُــهُ
أبكِي عَلَى طاهِرِ الأخــلاَقِ وَالشيــمِ

أبكِي فتى الدَّهرِ، أبكِي شَيْخَ كلِّ حِجَى

أبْكِي أخَا الفَضْلِ، أبكِي مَعدَنَ الكرَمِ

مَنْ كانَ مِنْ بَعدِ سَحْنُــون لنا خلفــاً

مَنْ كانَ فِي الحَقِّ مِثْلُ الصَّارِمِ الخذِمِ

إلى أن يقــول:

مَا كانَ أشجعــهُ، مَا كانَ أوْرَعــهُ

مَا كان أفصَحهُ فِي مَحفــلِ الكلــمِ

مَا كانَ أرْغبهُ فِي سنـــةِ درَســتْ

يُشيِدُهــا ببنــاءِ الحــاذِقِ الفهــمِ

مَا كانَ أفقهــهُ، مَــا كــانَ أعلمــهُ

مَا كانَ أحماهُ عِندَ الخــوْفِ لِلحــرَمِ

مَا كانَ أطهرَ تِلكَ النفس مِنْ رِيَــبٍ

مَا كانَ أكتــبَ تِلكَ الكــفّ بِالقلــمِ

سَقَاكَ يَا قبرَ يَحيَى عَــارِضٌ لجــبٌ

سمحُ الـــرَّذَاذِ كريمُ الوَبَــلِ وَالدِّيــم

مُبارَكُ الظلِّ يكسو الأرْضَ أرْدِيــةٍ

كالوَشْيِ يُلقَى علَى القِيعَانِ وَالأكــمِ

يا رَبِّ! صَاحِبُ هذَا القبـــرِ خادِمـــ
ـــكَ المَعْرُوفِ بالنُّصْحِ وَالإحْسَانِ وَالخدَمِ
أتاكَ ضيفاً فلاَ تجعـــلْ قـــرَاهُ سِـــوَ
ى الرِّضْوانِ، إنّكَ ذُو فَضْلٍ وَذُو كرَمِ

ـ **ثــم محمــد بــن رمضـــان النفــطي:** كـــان يعتنـــق المذهـــب الشيـــعي قبـــل ظهـــور أبي عبـــد اللـــه داعيـــة الفاطميـيـــن بالمغـــرب. ويبـــدو أنـــه كـــان مـــن المتأثريـــن بالدعـــوة الـــتي بثهـــا أبـــو سفيـــان؛ الـــذي استقـــر في تالـــة أو **(تـــالا)** جنـــوب الكـــاف. وتقـــول المصـــادر أن أهـــل نفطـــة تشيعـــوا بتأثيـــر منـــه.[1] وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان شاعـــراً؛ فاتخـــذ مـــن شعـــره وسيلـــة للدعـــوة ونشـــر مـــا يتناقلـــه أهـــل الحدثـــان عـــن المهـــدي المنتظـــر. ومـــن شعـــره في هـــذا البـــاب قولـــه:

ســـلاَ ظبيـــة القنـــاصِ أينَ احتلاَلَهـــا
فقـــدْ هاجـــنِي تفتِيرُهـــا وَامذِلاَلَهـــا
لعـــلَّ الـــتِي عنهـــا تفـــرِّقَ أهلهـــا
فبـــادَتْ مَغانيهـــا وَطـــالَ احتيَالهـــا
أرَقـــتُ لها مِـــنْ بعدِ أنْ نـــامَ إنسهـــا
خناطِيـــلُ آرَامِ الظبـــــاءِ جمالهـــــا

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 54 ـــ 55.

فعــدِّ عنِ الــدَّارِ الــتِي بـــانَ أهلهـــا
وَعَنْ كَيفَ مِنْ بَعْدِ البلَى صَارَ حَالُهَـــا
فهــذَا أوَانُ الحــقِّ قـــدْ حـــانَ حِينـــهُ
وَدَوْلـــة أهــلِ البــغْيِ آنَ زَوَالهـــــا
كأنِّي بشَمْسِ الأرْضِ قدْ طلعــتْ لنـــا
مِنَ الغـــرْبِ مقرُونـــاً إليهـــا هِلاَلهـــا
فيمـــلأ أرْضَ اللــــهِ قسطـــاً بعدْلـــهِ
بمـــا ضــــمَّ مِنهـــا سَهلهـــا وَجبالهـــا
وَآمـــنُ فيهـــا مـــا أخـــافُ وَأتــقِي
وَأظفــرُ بالزُّلــــفَى بــــه وَأنالهــــا

ويقــول القــاضي النعمـــان أن محمـــد بـــن رمضـــان هــذا أدرك أيـــام عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ بعـــد أن وصـــل مـــن العمـــر عتيـــا؛ وبعـــد أن خـــرف؛ ومـــع هـــذا فقـــد ولاه المهـــدي قضـــاء ميلـــة؛ وبـــقي في منصبـــه حـــتى مـــات. كمـــا أورد القـــاضي النعمـــان ــ أيضـــا ــ حكايتـــه مـــع الأميـــر الأغلـــبي إبراهيـــم بـــن أحمـــد؛ حيـــث هجـــاه محمـــد بـــن رمضـــان؛ بعـــد المجـــزرة الـــتي قـــام بهـــا في حـــق أهـــل بلزمـــة؛ إذ غـــدر بهـــم وقتـــل منهـــم ألـــف رجـــل ببـــرودة وبشاعـــة؛ وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان في تلـــك الأثنـــاء ببلزمـــة في جـــوار أهلهـــا وفي ضيافتهـــم؛ فقـــال:[1]

[1] رسالــة افتتــاح الدعــوة ، ص ص: 88 ــ 90.

جلَّ المصَابُ لئِنْ كانَ الذِي ذَكــرُوا
مِمــا أتتنــا بــهِ الأنبــاءُ وَالخبــرُ
عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآســادِ قدْ قتلــوا
لِساعَــةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غــدِرُوا
لوْ كانَ مَنْ بيــتَ الآســادَ أيقظهــمْ
حلــتْ بــهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغِيــرُ
قلْ لابــنِ أحمــدَ ابرَاهِيــم مألكــة
عَنِ الخبيــرِ بما يــأتِي وَما يــذَرُ
عَنِ المشرَّدِ فِي حبِّ الأئمــةِ مِــنْ
آلِ النبيِّ وَخيــرِ الناسِ إنْ ذُكِــرُوا
اعلمْ بأنَّ شِــرَارَ النــاسِ أطولَهــمْ
يداً بمكرُوههــمْ يومْــاً إذَا قــدِرُوا
لاَ سِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ
أعطــوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفــرُوا
فما اعْتــذَارُكَ مِنْ عارٍ وَمنقصــةٍ
أتيتهــا عامِــداً إنْ قــامَ مُعتــذِرُ
جرَّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شارِبهــا
عمــا قليــلٍ وَأمــرُ اللــهِ ينتظِــرُ

فدَوْلةُ القائمِ المهـــدِيِّ قـــدْ أزِفـــتْ
أيامُهـــا وَالـــذِي أنبـــا بـــهِ الأثـــرُ
عنِ النـــبيِّ، وَفيهـــا قطـــعُ مدَّتكـــمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِـــرُوا
وَقطـــعُ أمرِ بنِي العَبـــاسِ بعدَكـــمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَـــرْوَانَ إذْ بطـــرُوا

ولمـــا علـــم إبراهيـــم بـــن أحمـــد بالقصيـــدة؛ أراد خداعـــه واستدراجـــه؛ إذ قـــال: ((**لعـــن اللـــه مـــن طلبـــه وشـــرده؛ فمـــا مثـــل هـــذا يـــؤذى؛ ولـــو أتانـــا لصفحنـــا عنـــه وأحسنـــا إليـــه؛ ولقـــد أحســـن في الوفـــاء لمـــن أجـــاره، وصنـــع المعـــروف إليـــه؛ ومثـــل هـــذا تزكـــو عنـــده الصنائـــع، ومـــا ينتقـــم عليـــه تشيعـــه؛ بـــل ذلـــك مـــا يقربـــه منـــا ويدنيـــه عندنـــا؛ فأبلغـــوه عنـــا ذلـــك؛ فـــإن أحـــبَّ القـــدوم إلينـــا فهـــو آمـــن، ولـــه عندنـــا ـــ مـــع ذلـــك ـــ الحبـــاء والإكـــرام**)). ولمـــا وصـــل قولـــه إلى محمـــد بـــن رمضـــان؛ لـــم تنطـــل عليـــه الخدعـــة؛ وعلـــم بالفـــخ الـــذي نصبـــه لـــه إبراهيـــم؛ فقـــال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصِيـــدُ بِحبـــهِ للقطتُ حبـــهْ
مَنْ ذَا يغـــرُّ بغـــادرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ رَبهْ

ـ **ثــم عــلي بــن محمــد الإيــادي:** كــان مــن شعــراء بــني الأغلــب قبــل أن يتغلــب عليهــم الفاطميــون؛ ثــم أصبــح مــن شعــراء البــلاط الفاطــمي بعــد ذلــك. ولــه قصائــد في مــدح عبيــد اللــه المهــدي وابنــه أبي القاســم، ثــم إسماعيــل المنصــور بــن أبي القاســم. وتــوفي الإيــادي في ســنة 365هـ(975م). ومــن شعــره في وصــف قصــر صبــرة:

وَلَما استطالَ المَجدُ وَاستَولَتِ العــلاَ

عَلَى النّجمِ وَامتــدَّ الرِّوَاقُ المــروَّقُ

بنَى قبــة للمُلــكِ فِي وَســطِ جنــةٍ

لَها مَنظرٌ يزْهَى بهِ الطرْفُ مونــقُ

وَإنْ صَافَحتها لاَحــتْ كأنهـــا

فرنــدٌ عَلَى تــاجِ المعــزِّ وَرَونــقُ

كــأنَّ شرُفاتِ المقاصــرِ حولَهــا

عــذَارَى عَليهــنَّ مِلاء الممنطــق

ومــن شعــره في وصــف الأسطــول الفاطــمي في عهــد إسماعيــل المنصــور:

أعجب لأسطــولِ الإمــامِ محمــدٍ

ولَحسنــهِ وزَمانــهِ المستغــــربِ

لبسَــتْ بهِ الأموَاجُ أحسَــنَ مَنظــرٍ
يبــدُو لعيــنِ الناظِــرِ المتعجــبِ
مِنْ كــلِّ مُشرفِــةٍ عَلَى مَا قابلــتْ
اشرَافُ صَدْرِ الأجــدَلِ المنتصِــبِ
دَهمــاء قدْ لبســتْ ثيــابَ تصَنــعٍ
تســبِي العقولَ عَلَى ثيــابٍ ترْهــبِ

ـ **ثـم أيـوب بـن إبراهيـم:** يبدو أنـه كـان مـن أعـوان الدولـة الفاطميـة وأتباعهـا المخلصيـن. ولـم نعثـر علـى مـا يفيـد عنـه؛ أكثـر مـن هـذه الأبيـات الشعريـة الـتي مـدح بهـا أبـا طاهـر إسماعيـل المنصـور؛ وهي:

يا ابْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ
المُصْطَـفَى وَابنِ النـبيِّ المرْسَـلِ
اللــهُ أعطــاكَ الخلاَفــة وَاهبــاً
وَرَآكَ للإِســلاَمِ أمنــعَ معقــلِ
نلتَ الخِلاَفــة وَهْيَ أعظــمُ رُتبــةٍ
نِيلتْ، وَليسَــتْ مِنْ علاَكَ بِأفضَــلِ
فمَنَعتَ حوْزتَهَــا وَحطــتَ حَرِيمَهَــا
بالمَشْرَفيــةِ وَالوَشيــجِ الذُبــلِ

ـ ثم أبو العباس خليل بن إسحاق: وهو من القادة العسكريين والأمراء الذين يتكل عليهم إمام الدولة الفاطمية؛ وقد ولاه الخليفة أبو القاسم صقلية فظل بها أربع سنوات تقريبا؛ حيث أظهر فيها سوء سيرة، إذ ارتكب جرائم شنيعة في حق الرعية. ومما جاء في مجموع المكتبة العربية الصقلية: **((وفي سنة 325هـ قدَّم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق؛ فعمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين؛ أهلكهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم، وتنصر كثير منهم؛ وبقي بصقلية أربعة أعوام؛ ولما قدم منها سنة 329هـ؛ قال يوما مفتخرا بظلمه في مجلس حَضَرَهُ جماعة من وجوه الناس؛ تكلموا فيه معه في أمور شتَّى؛ ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية؛ فقال: "إنِّي قتلت ألف ألف ـ يقول المُكثرُ؛ والمُقللُ يقول مائة ألف ـ في تلك السفرة"؛ ثم قال: "لا والله الآ أكثر". فقال له أبو عبد الله المؤَدِّب: "يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك".**

وكان خليل هذا يكنى أبا العباس؛ وكان عبيد الله الشيعي يصرفه في الأعمال وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال؛ ثم وقعت فيه أقوال فكرهه عبيد الله وأبغضه؛ ولولا ابنه أبو القاسم لأهلكه)).[1] ومن شعره الذي قاله في عبيد الله المهدي:

إنَّ الإمامَ أقامَ سنة جدِّهِ
للمسلمينَ كما حذَوْتَ نِعالها
أحيَى شرائعهُ وَقوَّمَ كتبها
وَفرُوضها وَحرامها وَحلالَها

وقال أيضا هذه الأبيات الشعرية عندما بعثه إسماعيل المنصور لقتال أبي يزيد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعتُ خيرَ الخلقِ طراً
وَلاَ فارَقتهُ عَنْ طِيبِ نفسِ
وَلَكِنّي طلبتُ بهِ رِضَاهُ
وَعَفوَ اللهِ يوْمَ حُلولِ رَمسِ
فعاشَ مُلكاً مَا لاَحَ نجمٌ
عَلَى الثقلينِ مِنْ جنٍّ وَإنسِ

[1] البيان المغرب، ج:1، ص: 215. والمكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)، جمع: المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري، ص ص: 368 ـ 369.

ـ ثم أبو جعفر بن أحمد بن محمد المروذي:

على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست واضحة ـ بالضبط ـ إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه ـ كسابقه ـ أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره ـ في الحقيقة ـ عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن

وصـــول إسماعيـــل المنصـــور بجيشـــه إلى مدينـــة المحمديـــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد؛ قولـــه:

ثمَّ إلَى مَدِينـــةٍ مرْضِيـــهْ
أسَّتْ علَى التقوَى محَمدِيهْ
أقبل حتّى حلَهـــا عَشِيـــهْ
بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ
فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلـــهْ
فِي هيـــأةٍ كامِلةٍ جَميلـــهْ

وقـــال أيضـــا في أخـــرى عـــن حركـــة إسماعيـــل ومطاردتـــه لأبي يزيـــد:

لقدْ تَاهـــتْ بِطلعتِـــكَ الغـــرُوبُ
كما ابتهجتْ بدَوْلتِـــكَ القلـــوبُ
لقدْ زَهتِ الخِلاَفـــة إذْ حدَاهـــا
نَجيـــبٌ رَاحَ بِحملِـــهِ النَّجيـــبُ

وقـــال عنـــد الوصـــول إلى طبنـــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد أيضـــا:

سِرنـــا وَقدْ حلَّ بقـــرْبِ طبنـــهْ
وَصَـــارَ مِنها أهلها فِي مِحنـــهْ
فأعظـــمَ اللـــهُ العزِيـــزُ المنـــهْ
وَبدَّلـــوا مِنْ بعـــدِ نـــارٍ جنـــهْ

ــ **ثـــم محمـــد بـــن المنيـــب:** كـــان في جيـــش إسماعيـــل المنصـــور؛ عندمـــا طـــارد أبـــا يزيـــد في المغـــرب الأوســـط؛ ولـــم نعثـــر في المصـــادر أكثـــر مـــن اسمـــه وقصيدتـــه هـــذه:

حَـــلَّ البَـــلاَءُ بمخلـــــدٍ
وَجَمِيعِ شِيعتِـــهِ النوَاكِـــرْ
أمـــسَى بـــأرْضِ كيانـــةٍ
قدْ بانَ مِنـــهُ كلُّ ناظِـــرْ
يرنـــو بطـــرفٍ خاشِـــعٍ
نَظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ
يرنو إلَى عـــدَدِ الحَـــصَى
وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِـــرْ

يـــا مُخلـــدُ بـــنِ سَبيكـــةٍ

يا شَرَّ بيتٍ فِي العشائِـــرْ

ذُقْ مَا جَنتـــهُ يَدَاكَ قـــبـــ

ـــلُ مِنَ الكَبَائرِ وَالصَّغائِرْ

ذُقْ هَـــولَ شقـــكَ لِلبطـــو

نِ وَمَا ارتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرْ

يـــا شـــرَّ مَـــنْ بكيانـــةٍ

وكَيَانـــة شـــرُّ البرَابـــرْ

أنظرْ إلَى القفـــصِ الـــذِي

لاَ بدَّ فِيـــهِ أنتَ صَائِـــرْ

أنظـــرْ إلَى يَدَيـــكَ فيـــ

ـــهِ وَمؤنِسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ

قدْ طـــالَ شوقِهمَـــا إليْـــ

ـــكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ـ ثـم أبـو القاسـم محمـد بـن هـاني بـن سعـدون الأندلـسي: ولـد بإشبيليـة ـ في عهـد الخليفـة الأمـوي الناصـر لديـن اللـه بيـن سنـتي: 322هـ و 326هـ ـ مـن أسـرة كانـت تسكـن المهديـة بإفريقيـة. وينسـب ابـن هـاني في أصولـه الأولى إلى قبيلـة الأزد اليمنيـة

العربيـــة. ويقـــال أنـــه منحـــدر مـــن أســـرة يزيـــد بـــن حاتـــم بـــن قبيصـــة. كمـــا تذكـــر المصـــادر أنـــه تأثـــر بالمذهـــب الشيـــعي منـــذ صبـــاه في الأندلـــس؛ إذ تشبـــع بالأفكـــار الفلسيـــة ذات المنطلـــق العقـــلاني المعتـــزلي.

ويكـــون ابـــن هـــاني قـــد تـــرك الأندلـــس، وانتقـــل إلى الضفـــة المغربيـــة سنـــة 347هــ(958م)؛ حيـــث التحـــق ببـــني بـــني عـــلي بـــن حمـــدون: جعفـــر ويحـــيى؛ أمـــراء المسيلـــة؛ فلمـــا علـــم بـــه المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي بعـــث يطلبـــه؛ جاعـــلا منـــه شاعـــر البـــلاط الفاطـــمي الأول. فقـــدم غليـــه حيـــث حـــلاه بأفضـــل مـــا قيـــل في مـــدح الملـــوك؛ مـــن غـــرر الأشعـــار؛ لـــولا بعـــض الغلـــو الـــذي نســـب إليـــه، والـــذي يدخـــل في سيـــاق الكفـــر وكبائـــر القـــول. أمـــا خبـــر وفاتـــه فقـــد اكتنفـــه غمـــوض كبيـــر؛ ســـواء مـــن حيـــث المضمـــون والتفاصيـــل أو في تحديـــد تاريـــخ وقوعهـــا. وكـــل مـــا يمكـــن قولـــه هنـــا أنـــه قتـــل، أو مـــات في برقـــة بينمـــا كـــان متوجهـــا إلى مصـــر ليلحـــق بالمعـــز هنـــاك. وقـــال عنـــه ابـــن خلكـــان: **((ولمـــا بلـــغ المعـــز وفاتـــه وهـــو بمصـــر تأســـف عليـــه كثيـــرا وقـــال: "هـــذا الرجـــل كنـــا نرجـــو أن نفاخـــر بـــه شعـــراء المشـــرق؛ فلـــم يقـــدر لنـــا ذلـــك". ولـــه في المعـــز المذكـــور غـــرر المدائـــح ونخـــب الشعـــر... وفي هـــذا الأنمـــوذج دلالـــة عـــلى علـــو درجتـــه وحســـن طريقتـــه. وديوانـــه كبيـــر؛ ولـــولا مـــا فيـــه مـــن الغلـــو في المـــدح المفـــضي إلى الكفـــر لكـــان مـــن أحســـن الدواويـــن؛ وليـــس في المغاربـــة مـــن هـــو في طبقتـــه: لا مـــن متقدميهـــم ولا**

من متأخريهم؛ بل هو أشعرهم على الإطلاق؛ وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة؛ وكانا متعاصرين؛ وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه...

ويقال أن أبا العلا المعري كان إذا سمع شعر ابن هانيء يقول: "ما أشبهه إلاّ برَحَى تطحن قرونا"؛ لأجل القعقعة التي في ألفاظه؛ ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ؛ ولعمري ما أنصفه في هذا القول؛ وما حمله على هذا إلاّ فرط تعصبه للمتنبي؛ وبالجملة فما كان إلاّ من المحسنين في النظم)).[1]

ومن شعر ابن هاني هذه القصيدة؛ وهي أولى القصائد التي مدح بها المعز؛ فور قدومه من المحمدية. ويقال أنه كافأه عليها بدست ثمنه ستة آلاف دينار؛ فقال ابن هاني: "يا أمير المؤمنين ما لي موضع يسع الدست إذا بسط"؛ فأمر له ببناء قصر؛ فغرم عليه ستة آلاف دينار، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار. وقد رأيت أنه من الأفضل أن أثبت معظم أبياتها هنا؛ نظرا لما تشتمل عليه من أفكار ومعان توضح ما يتضمنه المعتقد الشيعي الفاطمي آنئذ؛ وقد بدأها بهذا المطلع:

---

[1] وفيات الأعيان، ج: 4، ص ص: 423 ــ 424.

هــلْ مِــنْ أعِقــةِ عالــجٍ يبرِيــنُ

أمْ مِنهمَــا بقــرُ الحــدُوجِ العِيــنُ[1]

وَلمــنْ ليــالٍ مَــا ذَممنــا عَهدَهــا

مــذْ كــنَّ إلاّ أنهــنَّ شجــونُ[2]

المشرِقــاتُ كأنهــنَّ كوَاكـــبٌ

وَالناعمــاتُ كأنهــنَّ غصـــونُ

بيــضٌ وَمَا ضَحِكَ الصَّباحُ وَإنهَــا

بِالمِسْكِ مِنْ طرَرِ الحِسَــانِ لَجُــونُ[3]

أدْمَى لَها المَرْجــانُ صَفحَــة خَــدِّهِ

وَبَــكَى عليْهــا اللؤلْــؤُ المَكنــُونُ

أعْدَى الحَمَــامَ تــأوُّهِي مِنْ بعدِهــا

فكأنــهُ فيمــا سَجعــنَ رَنيـــنُ

بَانــوا سرَاعــاً لِلهــوَادِجِ زَفــرَةَ

ممــا رَأيــنَ وَلِلمــطِيِّ حَنيـــنُ

---

[1] الأعقــة: جمــع عقيــق؛ أي الــوادي. وعالــج: موضــع مــا في الباديــة. يبريــن: مكــان في البحريــن بــه رمــال كثيــرة. بقــر العيــن: تشبيــه للنســوة ذات العيــون الجميلــة. الحــدوج: جمــع حــدج وهــو عبــارة عــن مركــب تركبــه النســاء.

[2] الشجــون: الهمــوم.

[3] جــون: شديــد الســواد.

فَكأنَّمَـــا صَبَغـــُوا الضُّحَى بِقبَابِهـــمْ

أوْ عَصْفَـــرَتْ فِيها الخدُودَ جُفـــونُ[1]

مَاذَا عَلى حُلَـــلِ الشَّقِيقِ لَـــوْ انَّهـــا

عَـــنْ لاَبِسِيهـــا فِي الخـــدُودِ تبيـــنُ[2]

وهنـــا يشـــرع في مـــدح المعـــز بطريقتـــه المستفـــزة؛ المليئـــة بالمبالغـــة الغريبـــة، والغلـــو الفاضـــح؛ وهـــو مـــا رفضـــه معظـــم المسلميـــن مـــن أهـــل السنـــة ونـــددوا بـــه؛ وفي ذلـــك يقـــول:

هـــذَا معـــدٌ وَالخلاَئـــقُ كلهـــــا

هـــذَا المعِـــزٌّ متوَّجـــاً وَالدِّيـــــنُ

هذا ضَمِيـــرُ النشـــأةِ الأولَى الـــتِي

بـــدَأَ الإلـــهُ وَغيبهـــا المكنـــونُ

مِنْ أجـــلِ هذَا قـــدِّرَ المقـــدُورُ فِي

أمِّ الكتـــابِ وكَـــوِّنَ التكوِيـــــنُ

---

[1] أي احمـــر الضـــحى مـــن احمـــرار قبابهـــم. وصبغـــت دموعهـــم الداميـــة خدودهـــم.

[2] حلـــل الشقيـــق: الثيـــاب الحمـــر الـــتي تشبـــه شقائـــق النعمـــان.

وَبذَا تلقى آدَمٌ مِنْ رَبهِ

عفواً وَفاءَ لِيونسَ اليقطِينُ

يَا أرْضُ كَيفَ حَمَلتِ ثِنْيَ نِجَادِهِ

وَالنَّصْرُ أعظمُ مِنكِ وَالتمْكِينُ[1]

حَاشا لِمَا حُمِّلتِ تَحمِلُ مِثلهُ

أرْضٌ وَلكنَّ السماءَ تعينُ

وَلوْ يَلتقِي الطُّوفانُ قَبْلُ وَجُودُهُ

لمْ يُنجِ نوحاً فلكهُ المَشحُونُ

لوْ أنَّ هَذَا الدَّهرَ يَبْطشُ بَطشَهُ

لمْ يَعْقبِ الحَركاتِ مِنهُ سُكونُ

الرَّوْضُ ما قدْ قيلَ فِي أيامهِ

لاَ أنهُ وَرْدٌ وَلاَ نسْرِينُ

وَالمِسْكُ مَا لَثمَ الثرَى مِنْ ذِكرهِ

لاَ أنَّ كلَّ قرَارَةٍ دَارَينِ[2]

---

[1] الثني: الطي. تقول: "أرسلته ثني كتابي" أي طي كتابي. النجاد: حمائل السيف؛ لأنه يعلو العاتق. يقال: "هو طويل النجاد" كناية عن انه طويل القامة.

[2] دارين: موضع بالبحرين؛ وهو همزة وصل لجلب المسك من الهند.

مَلـكٌ كمـا حُدِّثـتَ عنـهُ رأفـة
فالخمـرُ مـاءٌ والشراسـة ليـنُ
شِيـمٌ لوْ أنَّ اليـمَّ أعـطِيَ رِفقها
لمْ يَلتقـمْ ذَا النـونِ فِيـهِ النـونُ[1]
تاللـهِ لاَ ظلـلُ الغمـامِ معاقِـلٌ
تـأبَى عليهِ ولاَ النُّجـومُ حُصُـونُ
وَوَرَاء حَقِّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغـمٌ
أسْـدٌ وشَهبـاءُ السِّـلاَحِ منـونُ
الطالبـانِ: المِشرَفيـة والقنـا
المدْرِكـانِ: النصْـرُ والتمكِيـنُ

ثـم يضيـف قائـلا:

أنظـرْ إلى الدُّنيـا بإشفـاقٍ فقـدْ
أرْخَصْـتَ هذَا العِلـقَ وَهوَ ثمِيـنُ
لوْ يَستَطِيعُ البَحْرَ لاستَعْـدَى عَـلى
جـدْوَى يَدَيـكَ وَإنـهُ لقميـنُ

[1] ذا النـون: النـبي يونـس عليـه السـلام. والنـون الحـوت الـذي التهمـه.

أمـــددهُ أوْ فاصْفــحْ لـــهُ عنْ نيلِـــهِ
فلقــدْ تَخـــوَّفَ أنْ يقـــالَ ضَنَيـــنُ
وَأذَنْ لـــهُ يغــرِقْ أميـــة معلِنـــــاً
مـــا كـــلُّ مـــأذُونٍ لـــهُ مـــأذُونُ
وَاعـــذِرْ أميـــة أنْ تغــصَّ برِيقهـــا
فالمهــلُ مَـــا سُقِيتـــهُ وَالغِسْلِيـــنُ[1]
ألقـــتْ بِأيْدِي الذُّلِّ مُلـــقَى عَمْرِهَـــا
بِالثـــوْبِ إذْ فغـــرَتْ لـــهُ صِفِيـــنُ[2]
قـــدْ قـــادَ أمْرَهـــمُ وَقلـــدَ ثغرَهـــمُ
مِنهـــمْ مهيـــنٌ لاَ يكـــــادُ يبيـــــنُ

ويقـــول أيضـــا:

وَرَمَى إلَى البلـــدِ الأميـــنِ بِطرفـــهِ
ملـــكٌ عَـــلَى ســـرِّ الإلـــهِ أمِيـــنُ
لمْ يَـــدْرِ مَا رَجـــمُ الظنـــونِ وَإنمَـــا
دُفِـــعَ القضَـــاءُ إليـــهِ وَهـــوَ يقيـــنُ

---

[1] المهـــل: الصديـــد والقيـــح. الغسليـــن: مـــا يسيـــل مـــن جلـــود أهـــل جهنـــم.
[2] عمرهـــا: المقصـــود هنـــا عمـــرو بـــن العـــاص؛ وأراد بعبـــارة ملـــقى: مـــا جـــرى لـــه حيـــن طعنـــه عـــلي بـــن أبي طالـــب فألقـــاه أرضـــا في موقعـــة صفيـــن.

كذِبتْ رجَالٌ مَا ادَّعَــتْ مِنْ حَقكُــمْ

وَمِــنَ المقــالِ كأهلــهِ مأفــونُ

أبــنِي لــؤَيٍّ أينَ فضــلُ قدِيمكــمْ

بلْ أيــنَ حِلــمٌ كَالجبــالِ رَصِيــنُ[1]

نازَعتــمُ حــقَّ الــوَصِيِّ وَدُونــهُ

حــرَمٌ وَحِجــرٌ مانــعٌ وَحجــونُ[2]

نَاضَلتمُــوهُ عَــلَى الخِلاَفــةِ بِالــتِي

رُدَّتْ وَفِيكــمْ حَدُّهــا المسْنــونُ

حَرَّفتُمُوهَا عَنْ أبِي السِّبْطَيْــنِ عَــنْ

زَمَــعٍ ولَيــسَ مِنَ الهجــانِ هجيــنُ[3]

لــوْ تتقــونَ اللهَ لــمْ يَطمــحْ لَهــا

طــرَفٌ ولَمْ يَشمــخْ لَهــا عرنِيــنُ[4]

---

[1] بنــو لــؤي: قريــش.

[2] الــوصي: عــلي بــن أبي طالــب.

[3] السبطيــن: الحســن والحسيــن. عــن زمــع: أي عــن إصــرار ومضــاء في الأمــر. الهجــان مــن كــل شــيء: خيــاره. والهجيــن: مــن كــان أبــوه عــربي وأمــه أمــة.

[4] العرنيــن: الأنــف كلــه؛ جمعــه عرانيــن.

لكِنكــمْ كنتــمْ كَأهــلِ العِجْــلِ لــمْ

يُحفــظْ لمــوسَى فِيهــمُ هــارُونُ[1]

لوْ تَسْألــونَ القبــرَ يَــومَ فرِحتــمُ

لأجــابَ أنَّ محمــداً محـــــزُونُ

مَاذَا ترِيــدُ مِنَ الكِتــابِ نوَاصِــبٌ

وَلَــهُ ظهــورٌ دُونهــا وَبطــونُ[2]

هِيَ بُغيَــة أضلْلتمُوهَــا فَارْجِعُــوا

فِي آلِ يَاسيــنٍ ثــوَتْ ياسِيـــنُ

رُدُّوا عليْهــمْ حكمَهــمْ فَعَليهــــمُ

نـــزَلَ البيــانُ وَفِيهــمُ التبييـــنُ

البَيْــتُ بَيْــتُ اللـــهِ وَهــوَ معَظــمٌ

وَالنــورُ نــورُ اللـــهِ وَهــوَ مبيــنُ

وَالسِّترُ سِترُ الغيْـــبِ وَهْوَ مُحَجَّــبٌ

وَالسِّـــرُّ سِرُّ الوَحْيِ وَهْوَ مصُــونُ

النـــورُ أنـــتَ وَكـــلُّ نــورٍ ظلمـــة

وَالفــوقُ أنـــتَ وَكــلُّ فــوقٍ دُونُ

---

1 أهــل العجــل: بنــو إسرائيــل.

2 النواصــب: الذيــن ينصبــون لعــلي بــن أبي طالــب العــداء.

لـــوْ كانَ رَأيــكَ شَائِعــاً فِي أمـــةٍ

علِمُـــوا بما سَيَكـــونُ قبْــلَ يَكـــونُ

أوْ كَانَ بِشْرُكَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ لـــمْ

يُكْسَفْ لَهَا عِنـــدَ الشُّـــرُوقِ جَبيـــنُ

أوْ كَانَ سُخطكَ عدْوَةً فِي السُّمِّ لـــمْ

يَحْمِلــهُ دُونَ لَهاتـــهِ التنيـــنُ

لــمْ تسْكــنِ الدُّنيَــا فــوَاقَ بَكيــةٍ

إلاَّ وَأنــتَ لِخوفهـــا تأميـــنُ

اللــهُ يَقبَــلُ نُسكنـا عنـــا بمـــا

يُرْضِيـــكَ مِنْ هـــدْيٍ وَأنتَ مُعِيـــنُ

فَرْضَانِ مِنْ صَوْمٍ وَشُكــرِ خلِيفـــةٍ

هـــذَا بهـــذَا عِندَنـــا مَقـــرُونُ

فَارزُقْ عِبَــادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَـــةٍ

وَاقــرُبْ بهمْ زُلــفَى فأنــت مَكِيـــنُ

لــــكَ حمْدُنـــا لاَ أنـــهُ لــكَ مَفخــرٌ

مَـــا قـــدْرُكَ المَنثـــورُ وَالمَـــوزُونُ

قْد قالَ فِيــكَ اللـــهُ مَـــا أنـــا قائِـــلٌ

فكـــأنَّ كـــلَّ قصِيـــدَةٍ تَضْمِيـــنُ

اللــــهُ يَعْلَمُ أنَّ رَأيــكَ فِي الـــوَرَى
مَأمـــونُ حـــزْمٍ عِنـــدَهُ وَأمِيـــــنُ
وَلأنتَ أفضَـــلُ مَنْ تشِيـــرُ بِجَاهِـــهِ
تحْــتَ المِظلـــةِ بِالســـلاَمِ يَمِيـــنُ

ومـــع مـــرور الوقـــت، وتفـــاوت الزمـــن؛ بـــدأت أعـــراض الشيخوخـــة تـــدب في كيـــان الدولـــة الفاطميـــة؛ وذلـــك بعدمـــا فســـدت عصبيتهـــا، وتلاشـــت قوتهـــا؛ بافتـــراق الأنصـــار، وزوال الدعـــوة الصادقـــة، وانعـــدام الدعـــاة الأكفـــاء. وتلـــك هي سنـــة اللــــه في الحيـــاة، وذلـــك مـــا تقتضيـــه طبيعـــة الـــدول. وعليـــه فقـــد انتـــهى الأمـــر بالدولـــة الفاطميـــة ــ كمـــا انتـــهى بـــدول أخـــرى في ذلـــك العصـــرــ إلى السقـــوط والاندثـــار في القاهـــرة سنـــة 567هـــ(1171م)؛ بواسطـــة صـــلاح الديـــن الأيـــوبي.

وعنـــد المقابلـــة بيـــن الدولتيـــن: الإدريسيـــة والفاطميـــة؛ ضمـــن منظـــور يبـــرز إنجازاتهمـــا الحضاريـــة والثقافيـــة. سرعـــان مـــا يتضـــح قصـــور الأدارســـة، وعجزهـــم، وضيـــق إمكاناتهـــم أمـــام الفاطمييـــن. لأنهـــم لـــم يتمكنـــوا مـــن إنجـــاز معالـــم حضاريـــة ذات قيمـــة كبيـــرة؛ تضـــاهي المعالـــم الحضاريـــة الفاطميـــة. وقـــد يعـــود السبـــب ــ علـــى مـــا يبـــدو ــ إلى الوســـط القبـــلي الكثيـــف الـــذي يكتنـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وإلى عجزهـــا عـــن التخلـــص منـــه. أمـــا الدولـــة الفاطميـــة؛ فقـــد شـــرع حكامهـــا في بعـــث بـــوادر حضاريـــة وثقافيـــة منـــذ البدايـــة.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

****

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

<u>المصادر والمراجع العربية:</u>

- **آراء الخوارج الكلامية:** (تحقيق وتقديم عمار طالبي لكتاب الموجز لأبي عبد الله الكافي التناوتي الإباضي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.
- **الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى:** صالح باجية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1976م.
- **الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا):** علي يحيى معمر، مكتبة وهبه، القاهرة.
- **ابن هاني:** أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
- **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،** أحمد بن عمر بن أبي الضياف، (ت: 1291هـ/1845م): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.

- **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**: أحمد ابن علي المقريزي، (ت: 845هـ/1441م)؛ تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.
- **الإحاطة في أخبار غرناطة:** لسان الدين ابن الخطيب، (ت: 776هـ/1374م)؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.
- **أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة):** فلهوزن؛ بوليوس: ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها يرحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم:** لمجهول، مكتبة المثني، بغداد، طبع بمطبعة رِبَدَنَيرَ Rivadeneyra بمدريد 1867م.
- **أخبار ملوك بني عبيد:** محمد بن علي بن حماد الصنهاجي، (ت: 626هـ/1230م)؛ تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- **أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلفِي):** أحمد بن محمد السِّلفِي (ت: 576هـ/1180م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

ـ **الأدب المغـــربي:** محمـــد بـــن تاويـــت، و محمـــد عفيـــفي، دار الكتـــاب اللبنـــاني، بيـــروت، 1969م.
أزهـــار الريـــاض في أخبـــار عيـــاض: أحمـــد بـــن محمـــد التلمســـاني المقـــري (ت:1041هـــ/1631م)؛ تحقيـــق مصطـــفى السقـــا، وإبراهيـــم الأبيـــاري، وعبـــد الحفيـــظ شلـــبي، مطبعـــة التأليـــف والترجمـــة والنشـــر، القاهـــرة، 1892م ــ 1942م.
ـ **الإستقصـــاء لأخبـــار دول المغـــرب الأقـــصى:** أحمـــد بـــن خالـــد الناصـــري الســـلاوي، (ت: 1315هـــ/1897م)؛ تحقيـــق جعفـــر الناصـــري، ومحمـــد الناصـــري، دار الكتـــاب بالمغـــرب، الـــدار البيضـــاء، 1954 ــ 1956م.
ـ **الإســـلام في إسبانيـــا:** لطـــفي عبـــد البديـــع، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة، القاهـــرة، ط: 1، 1958م.
ـ **الأعـــلام (قامـــوس تراجـــم لأشهـــر الرجـــال والنســـاء مـــن العـــب والمستعربيـــن والمستشرقيـــن):** خيـــر الديـــن الزركـــلي، مطبعـــة كوستـــا تسومـــاس وشركـــاه، 1954م ــ 1959م).
ـ **أعمـــال الأعـــلام في مـــن بويـــع قبـــل الاحتلام مـــن ملـــوك الإســـلام**: لســـان الديـــن محمـــد بـــن الخطيـــب السلمـــاني (ت: 776هـــ/1374م)، (القســـم المخصـــص لتاريـــخ إسبانيـــا الإسلاميـــة)؛ تحقيـــق ليـــفي بروفنســـال، دار المكشـــوف، بيـــروت، 1956م.

ـ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي**)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

ـ **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي:** محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.

ـ **أنموذج الزمان في شعراء القيروان:** حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس:** علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.

ـ **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:** يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل،

والغوثي أبو علي، مطبعة فنطانة الشرقية، الجزائر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

ـ **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**: أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبة المثنى، بغداد، وطبع بمطبعة روخس، مدريد، 1884م.

ـ **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي:** إبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:** محمد بن عذاري المراكشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

ـ **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)**: إحسان عباس؛ دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي:** حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج: 1 ـ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريخ افريقية والمغرب:** إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (ت: بعد 417هـ/1026م)؛ تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، 1968م.
ـ **تاريخ الأمم والملوك:** محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ/923م)، مكتبة خياط، بيروت.
ـ **تاريخ الجزائر العام:** عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، 1980م.
ـ **تاريخ الجزائر في القديم والحديث:** مبارك بن محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
ـ **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب:** حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 3، 1964م.
ـ **تاريخ صقلية الإسلامية:** عزيز أحمد، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1980م.
ـ **تاريخ علماء الأندلس:** عبد الله بن محمد الأزدي بن الفرضي (ت: 403هـ/1012م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ـ **تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين:** علي مصطفى الغزالي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1959م.

ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا):** علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية):** دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.

ـ **تاريخ المغرب الكبير:** محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ـــ 1974م.

ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر:** محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.

ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض):** القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.

ـ **التكملة لكتاب الصلة:** محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.

ـ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية):** خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.
ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس:** محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ـ **جمهرة أنساب العرب:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.
ـ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول:** شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.
ـ **حضارة العرب في الأندلس:** خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.
ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية:** محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ـ 1973م.
ـ **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس):** محمد بن محمد الأصفهاني (ت:

597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971ـ 1972ـ 1973م.
ـ **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا):** محمود إسماعيل.
ـ **دائرة المعارف الإسلامية:** محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.
ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس:** أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
ـ **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي:** جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.
ـ **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى:** عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.
ـ **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي:** محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية:** موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ـ **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة:** إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
ـ **دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع):** محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م ـ 1969م.
ـ **الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي):** محمد الطالبي؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.
ـ **الدولة العربية في إسبانيا:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
ـ **ديوان ابن هاني الأندلسي:** دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت: 542هـ/1147م)؛ تحيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، 1975م ـ 1979م.
ـ **رسالة افتتاح الدعوة:** القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام):** محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

ـ **السجلات المستنصرية:** تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي:** محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب:** عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء:** أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية:** عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.
ـ **صلة الصلة:** أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط، بيروت.
ـ **ضحى الإسلام:** أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10.
ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس**: أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت: 333هـ/944م)؛ تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **طبقات المشائخ بالمغرب:** أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م)؛ تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.
ـ **ظهر الإسلام:** أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952 ـ 1959م
ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصـــر هشـــام بـــن عبـــد الملـــك:** عبـــد المجيـــد محمـــد صـالـــح الكبيـــسي، جامعـــة بغـــداد، بغـــداد، 1975م.
ـ **العلاقـــات الخارجيـــة للدولـــة الرستميـــة:** عبـــد الكريـــم جـــودت، المؤسســـة الوطنيـــة للكتـــاب، الجزائـــر، 1984م.
ـ **العلاقـــات السياسيـــة بيـــن الدولـــة الأمويـــة في الأندلـــس ودول المغـــرب:** عبـــد العزيـــز فيـــلالي، الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1982م.
ـ **فتـــوح مصـــر والمغـــرب:** عبـــد الرحمـــن بـــن عبـــد اللـــه بـــن عبـــد الحكـــم (ت:257هـــ/871م)؛ تحقيـــق عبـــد المنعـــم عامـــر، لجنـــة البيـــان العـــربي، القاهـــرة، 1961م.
ـ **فجـــر الإســـلام:** أحمـــد أميـــن، دار الكتـــاب العـــربي، بيـــروت، ط: 10، 1969م.
ـ **فجـــر الأندلـــس:** حسيـــن مؤنـــس، الـــدار السعوديـــة للنشـــر والتوزيـــع، جـــدة، 1985م.
ـ **الفـــرق الإسلاميـــة في الشمـــال الإفريـــقي مـــن الفتـــح العـــربي حـــتى اليـــوم:** ألفـــرد، بـــل؛ ترجمـــة عبـــد الرحمـــن بـــدوي، دار الغـــرب الإســـلامي، بيـــروت، 1181م.
ـ **فـــوات الوفيـــات والذيـــل عليهـــا:** محمـــد بـــن أحمـــد بـــن شاكـــر الكتـــبي (ت: 764هـــ/1362م)؛ تحقيـــق إحســـان عبـــاس، دار الثقافـــة، بيـــروت، 1973 ـ 1974م.

ـ **في التاريخ العباسي والفاطمي:** أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
ـ **في تاريخ المغرب والأندلس:** أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
ـ **القبائل الأمازيغية:** بوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).
ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان:** الفتح بن محمد بن خاقان الإشبيلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
ـ **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي:** الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **الكامل في التاريخ:** علي بن أبي المكارم الجزري المعروف بابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
ـ **كتاب الجغرافيا:** علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
ـ **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية:** عبد الله بن محمد المالكي (قد تكون وفاته في سنة 474هـ/1081م)؛ تحقيق بشير البكوش، ومحمد

العـروسي المطـوي، دار الغـرب الإسـلامي للطباعـة والنشـر، بيـروت، 1981م ــ 1983م.
ــ **كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم:** أبـو زكريـاء يـحي بـن أبي بكـر الورجـلاني (ت: 471هـ/1078م)؛ تحقيـق إسماعيـل العـربي، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1984م.
ــ **كتـاب الصلـة:** خلـف بـن عبـد الملـك بـن بشكـوال (ت: 578هـ/1182م)، الـدار المصريـة للتأليـف والترجمـة.
ــ **كتـاب فتـوح البلـدان:** أحمـد بـن يـحي البـلاذري (ت: 279هـ/892م)؛ تحقيـق صـلاح الديـن المنجـد، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة.
ــ **كتـاب المفصـل في الملـل والأهـواء والنحـل:** عـلي بـن أحمـد بـن حـزم الأندلـسي (ت: 456هـ/1063م)؛ ج:1، 1317هـ، ج: 2 ــ 3، 1320هـ، المطبعـة الأدبيـة بمصـر، ج: 4، 1321هـ، مطبعـة التمـدن بمصـر، ج: 5، 1321هـ، مطبعـة الموسوعـات بمصـر.
ــ **المجتمعـات الإسلاميـة في القـرن الأول (نشأتهـا، مقوماتهـا، تطورهـا اللغـوي والأدبي):** شكـري فيصـل، دار العلـم للملاييـن، بيـروت، 1966م.
ــ **مجموعـة الوثائـق الفاطميـة:** جمـال الديـن الشيـال، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، ط: 2، 1965م.

ـ **مختصر تاريخ الإباضية:** سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).

ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا:** أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.

ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية:** محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.

ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.

ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر:** عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.

ـ **معجم البلدان:** أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.

ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة:** عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

ـ **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم):** موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

ـ **المغرب في حلى المغرب:** أبو محمد الحجاري، وعبد الملك بن سعيد، وآخرون؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964م.

ـ **المغرب عبر التاريخ:** إبراهيم حركات، مطبعة دار السلمي بالمغرب، الدار البيضاء 1965م

ـ **المغرب العربي تاريخه وثقافته:** رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.

ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك):** عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيق ماك قوكين دي سلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبة أمريكا والشرق، بباريس، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.

ـ **المقتبس في أخبار بلد الأندلس:** حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعة التي حققها عبد الرحمن علي حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس:** حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.

ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس):** محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **مقدمة ابن خلدون:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.

ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع):** أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio .Della Societa LIPSIA. 1857.

ـ **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

ـ **الملل والنحل:** محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.

ـ **المهدي المنتظر بين العقيدة الدينية والمضمون السياسي:** حجاب؛ محمد فريد؛ المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1984م.

ـ **نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر:** لمجهول عاش في سنة 712هـ (وربما كان لأبي علي صالح بن عبد الحليم؛ حسب تحقيق موسى لقبال)؛ تحقيق ليفي بروفنسال 1934م.

ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:** أبو المحاسن يوسف الأتابكي ابن تَغرِي بَرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.

ـ **نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد الزيانية:** بوزياني؛ الدراجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

ـ **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم مما مضى**

من الزمان: محمد بن عبد الله التلمساني التنسي (ت: 899هـ/1493م)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
ـ **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر:** عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.
ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب:** أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،
ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب:** أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: 733هـ/1332م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر، 1954م.
ـ **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب؛** أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)؛ تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959م.
ـ **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي:** محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1974م.
ـ **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية:** حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، 1966 ـ 1972م.

ـ **الـوزارة والـوزراء في العصـر الفاطـمي:** محمـد حمـدي المنـاوي، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، 1970م.
ـ **وصـف إفريقيـا:** الحسـن بـن محمـد الـوزان الفـاسي الشهيـر بليـون الأفريـقي (ت: بعـد 957هـ/1550م)؛ ترجمـه عـن الفرنسيـة: محمـد حـجي، و محمـد الأخضـر، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت 1983م.
ـ **وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان**: أحمـد بـن محمـد بـن خلكـان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر ببيـروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 1971،7م، ج: 8، 1972م.

الـمـراجـع بالـلـغـة الأجـنـبـيـة:

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.
- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.
- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.
- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.
- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.

- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB.** S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): - **Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve , Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne , Paris. 1946. et
-MARCAIS
GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

فهرس المحتويات